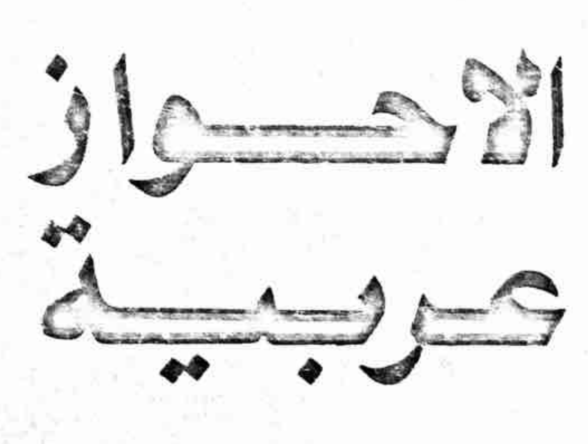
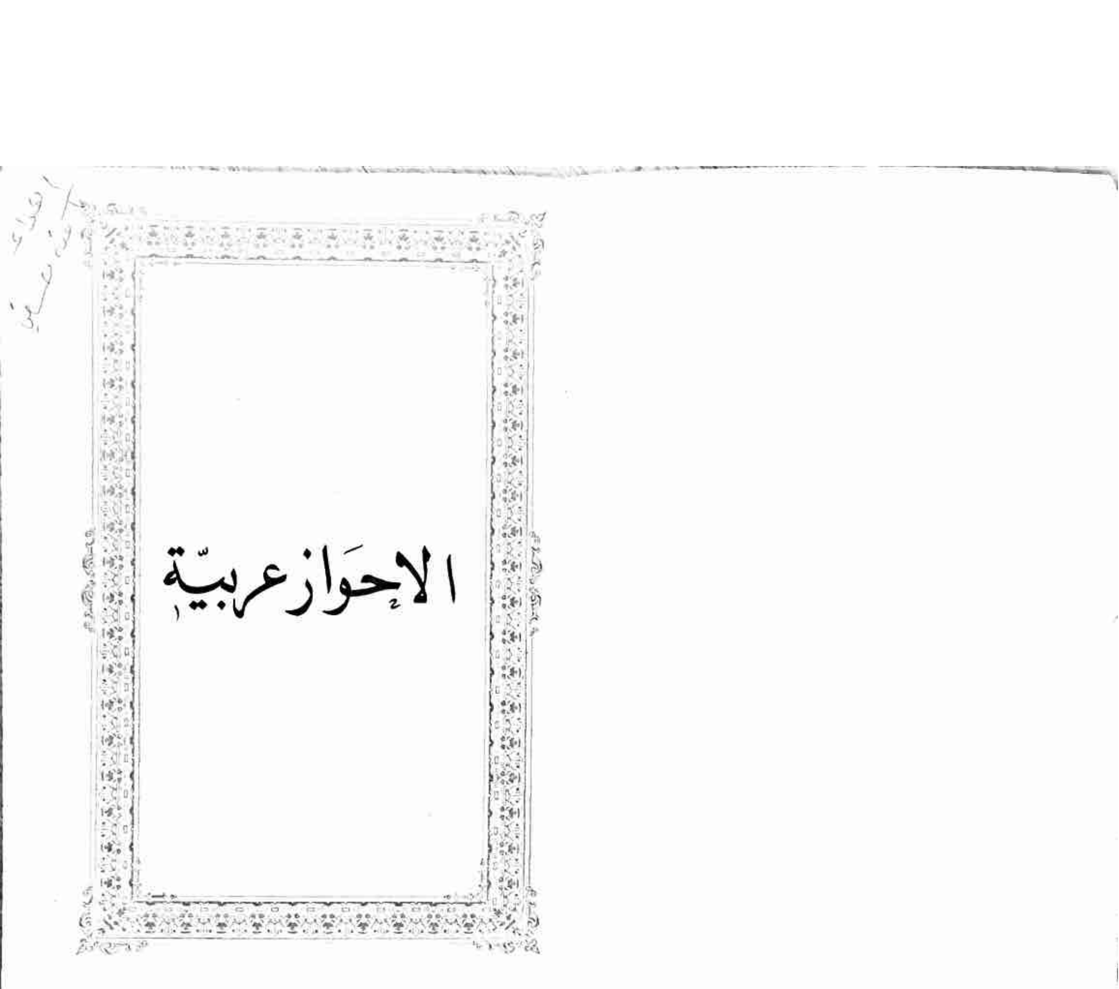




الاحواز عربية

القِسمُ الثانِي

خَيرالله طِلفاح



الإحَواز عربيّة

المقدمـــة

لم يعد المؤرخ ، اي مؤرخ منصف ، بحاجة لجهـد كبير لاثبات هـوية «الاحواز» وحقيقة انتمائها للأرض العربية ، كامتداد طبيعـي للوطـن العربي ، وكارتباط قومي بالشـعب العـربي الذي تمتد علاقته ــ مـن خلال العراق واقطار الخليج العربي خاصة ــ بشعب الاحـواز عميقـاً وتتضـح في كل الادوار التأريخية التي مـر بهـا الاقليم ، منذ ان كان يستقل استقلالا كليا عن ايران ، ولا يخضع لاي نفوذ اجنبي حاول ان يتسلط على الحكم في الاحواز .

ان اقليم الاحـواز ــ جغـرافيا ــ يشـكل امتدادا للسـهل المنخفض الموجود في العراق ، وهو مشابه لأراضي العـراق الجنوبية ، التي هـي جزء من نطاق اليابس الحديث التكوين . كما ان منطقة الاحـواز هـي النهاية الطبيعية لسهل العراق الرسوبي ذي التربة الغرينية الخصبة .

وهذا الاقليم العربي ــ منذ ان ظهر على مسرح السـياسة في الشرق الاوسط ــ شهد فاعلية القوى العربية الرئيسية التي استوطنت فيه منذ الاف السنين ، حيث هاجر بنو كعب مـن العـراق سـعيا للاسـتقرار والاستقلال فيه واسسوا اماراتهم التي بدأت تتوسع من جهة الشـمال والشرق وتنمو قوتها سريعاً ولم تخضع بصورة فعلية الى العثمـانيين والفرس ــ شأنها في ذلك شأن امارة الحويزة ــ رغم ان كلتي الدولتين ادعتا حق السيادة على الاحواز .

لقد تعرض هذا الاقليم العربي الى محاولات ضم عديدة ومـؤامرات تسلط اجنبي محمومة ، كغيره من الاقـطار العـربية الاخـرى . كمـا حاولت ايران في عهود حكامها المختلفين ، ان تمد نفوذها بالتعاون مع الدول الاستعمارية الكبرى ذات المصلحة المعروفة بالمنطقة ، وتفـريس هذه الارض ومسخ هويتها القومية بسـبب خصـوبة ارض الاحـواز واهمية موقعها السوقي وطبيعة جغرافيتها وايضاً ما تحتضنه ارضها

من كنوز وخيرات لاسيما بعد ان اكتشف النفط في الاحواز وتبلورت الاطماع الدولية في الخليج العربي وراحت انظار اساطيل الدول الاوربية تتجه الى موانيء الاحواز المهمة الممتدة على الخليج العربي .

ويبدو ان هذا السعي الاستعماري والتكالب الاجنبي قد نجح بصيغة واخرى ، في ضم هذا الاقليم العربي الى ايران والاستفادة من الظروف السلبية التي تحيط بالأمة العربية في قمع شعب الاحواز وكبت نداءاته حول الاستقلال والانتماء القومي للأمة العربية ، وضرب بنود المعاهدات الدولية حول احقية الاقليم واستقلاله الواضح عرض الحائط ، ومحاولة طمس الحقائق التأريخية والسياسية والجغرافية الخاصة بالاقليم ، رغم انها لا تحتاج الى تأويل او تدقيق كبير ، فالاحواز ـ ارضاً وشعباً ـ عربية وان كافة الدلائل تشير الى ارتباطها بالوطن العربي وتؤكد علاقتها بالشعب العربي ، لغة وتطلعا .. ولعل في صفحات هذا الكتاب ما يميط اللثام عن حقيقة التطورات التي شهدها اقليم الاحواز وطبيعة بنائه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والاحداث الكبيرة التي مر به وآثار العلاقة التي ربطته بالدول المختلفة . وأملي واسع ان اكون قد استكملت الحديث الذي بدأته عن الاحواز في كتاب سابق تناول تأريخ الاقليم من خلال أبرز القبائل والأسر العربية التي استقرت فيه وتكاثرت وعملت في أرضه . فقد يتشعب الحديث عن الاحواز ويطولُ ، بما لا تتسعه هذه الصفحات ، ولكن ثمة حقيقة جوهرية تختزلها كلمتين او اكثر هي : ان الاحواز ارض عربية وان شعبها عربي ، رغم كل محاولات القهر والتسلط الأجنبي ، والتبعية الوهمية التي يحاول حكام ايران ، دائما اخفاءها على طبيعة صلتهم بالاقليم .

■ ***المؤلف***

الموقع

تقع الاحواز الى الجنوب الشرقي من العراق ـ وهي بذلك تكون نهاية الطرف الشرقي من الهلال الخصيب ، الذي يبدأ عند السهول الفلسطينية مارا ببلاد الشام والعراق ـ وتحتل القسم الشمالي الشرقي من الوطن العربي ، وهي تشكل منطقة حاجزة بين الوطن العربي ـ آسيا العربية ـ والقسم غير العربي من قارة آسيا . وقد كانت احدى الوحدات السياسية الصغيرة التي تحف بشبه الجزيرة العربية ، فهي امتداد طبيعي لسهول وادي الرافدين ومتصلة اتصالا ـ يكاد يكون تاما ـ بها من الناحية الجغرافية والاقتصادية والبشرية والتاريخية .

والاحواز محصورة بين خطي عرض ٣٠ ، ٣٢ درجة شمالا ، اما بالنسبة لخطوط الطول فتقع بين ٤٨ و ٥١ درجة شرقا ـ وبهذا يكون امتدادها من الشرق الى الغرب يساوي امتدادها من الشمال الى الجنوب تقريبا ـ ومن ملاحظة امتدادها بالنسبة لخطوط العرض نجد انها تقع في القسم الجنوبي من المنطقة المعتدلة الشمالية .

يحدها من الشمال سلسلة جبال كردستان ومن الشرق جبال زاجروس وتكون هذه الجبال حدودا طبيعية ـ ومن الغرب العراق ـ بمحافظتيه البصرة وميسان ـ ومن الجنوب الساحل الشمالي للخليج العربي .

وقد لعبت الاحواز دوراً رئيساً في التجارة لما تحتله من موقع استراتيجي على فم الخليج العربي ـ اذ انها تحتل سواحله الشمالية ، وتسيطر سيطرة كاملة على موانئه ـ ولا سيما زمن العباسيين ، لان قناة السويس لم تكن قد فتحت بعد . كما ان للاحواز مكانة مهمة في العالم الحديث ـ وبخاصة العالم العربي ليس لكونها غنية في ثروتها الطبيعية او لاهميتها الاستراتيجية فحسب ، بل لكونها ـ كما اسلفنا ـ تشكل منطقة انتقال بين العرب وغير العرب في قارة آسيا .

ولقد اتجه العالم الغربي ـ نظراً لاحتياجه القوى المحركة ـ بقوة الى هذه المنطقة ليسد حاجته من معدن النفط ، ولهذا اصبح للاحواز مكانة اقتصادية يمكن ان تلخص بما يلي :

١ ـ وقوعها على راس الخليج العربي وعلى الطريق الاقصر الذي يربط البحر المتوسط بالمحيط الهندي .

٢ ـ اتصالها بميادين النفط والحقول المجاورة بأسهل الطرق وايسرها ، فجعلتها ميدانا للتنافس الدولي الخطير ـ كما سنرى ـ للحصول على النفط ـ العصب الرئيس للصناعة والحرب .

٣ ـ مجاورتها للجزء الجنوبي من ايران والعراق والكويت ، وإشرافها المباشر على سواحل الخليج وجزره .

٤ ـ أن الاراضي الخصبة ونهر كارون تجعلها مركزاً مهماً للانتاج الزراعي والصناعي ، فاذا ما استغلت مواردها الطبيعية استغلالا جيداً فستتحول ـ حتماً ـ الى مصدر من مصادر الانتاج الزراعي والصناعي الرئيسية في الشرق .

اما موقع عربستان العسكري فلا يقل اهمية عن مكانتها الاقتصادية فقد وصفه العسكريون بأنه في غاية الاهمية ، لانه يقع ضمن الجسر الارضي الذي يوصل القارات الثلاث ـ آسيا وأفريقيا وأوربا ـ بعضها ببعض ، كما أنه يكون خط الدفاع الطبيعي ـ المتمثل بجبال زاجروس

وكردستان ـ بين العراق وايران . وتبلغ مساحة الاحواز ١٥٩,٦٠٠ الف كيلومتر مربع .

اما عدد سكانها فيقدر بـ (١,٥) مليون عربي ينتمي معظمهم الى بني كعب وبني تميم وبني طرف ـ مما حدا بفارس ـ تحت حكم الصفويين ـ ان تطلق على هذا الاقليم اسم (عربستان) ومعناها بلاد العرب ـ وهذا اعتراف ضمني من فارس بعروبة هذه المنطقة ـ غير ان العرب كانوا يطلقون اسم الاحواز على هذا الاقليم فالاحواز اسم عربي وكان اسمها في ايام الفرس خوزستان ومعناها بلاد القلاع والحصون .

إن منطقة الاحواز هي النهاية الطبيعية لسهل العراق الرسوبي (السهل الفيضي) ذي التربة الغرينية الخصبة ، والذي تتوافر فيه المياه الغزيرة . فسهل الاحواز ـ من حيث تكوينه وطبيعة ارضه ـ امتداد للسهل المنخفض الموجود في العراق . وهو مشابه لاراضي العراق الجنوبية التي هي جزء من نطاق اليابس الحديث التكوين ، ويكون بصورة عامة ـ سهلا منبسطا ـ شأنه شأن المناطق التي تكونها ترسبات الانهار ، وقد تكون هذا السهل الرسوبي نتيجة للترسبات التي جلبتها مياه الانهار . ونهر الكرخة وكارون يعدان من اعظم الانهار القادمة من المرتفعات الشرقية ـ تكوينا للترسبات . وقد كونا دلتاهما بسرعة تفوق سرعة امتداد دجلة والفرات وبينما كان نهرا دجلة والفرات يرسبان الطمى كان نهر كارون يصب مياهه الغرينية في ملتقى نهري دجلة والفرات وبهذه الكيفية كان عاملا اساسيا في تكوين الاراضي المرتفعة ـ نسبيا ـ التي تمتد من البصرة في اتجاه الشرق .

ومن دراسة الظواهر الجغرافية لمنطقة الاحواز نلاحظ ان سطحها عبارة عن سهل منبسط متشابه في جميع اجزائه تشقه عدة انهار وتتخلل بعض اقسامه اهوار ومستنقعات ، اما الاراضي البعيدة عن الانهار فهي صحراوية قاحلة تغمر بعضها السباخ ، وترتفع الاراضي

فجأة من الشرق الى ارتفاعات شاهقة في جبال زاجروس ومن الشمال في كردستان وليس هناك ـ ما عدا ذلك ـ سوى سلسلة من التلال طولها نحو ٣٠ ميلا وارتفاعها نحو ٣٠٠ قدم من منطقة الاحواز ويشقها نهر كارون عند مدينة الاحواز . اما تربة هـذا الاقليم ـ ومعـظمها سـباخ يعلوها الملح ـ فقد تأثرت كثيراً بالرواسب ذات الذرات الكبيرة الخشنة التي حملتها المجاري المائية الصغيرة المنحدرة من المرتفعات الايرانية نحو هذا السهل ، ونتيجة لهـذا تبددت مياههـا حتى تكونت الدلتاوات المروحية والى جانب ذلك هناك اودية ضيقة حفرتها المجاري في منطقة التلال في اثناء انحدارها من المرتفعات الايرانية .

تجري في الاحواز انهار كثيرة ـ دون انقطاع ـ فهي ليست بالانهـار الموسمية مما يؤمن للمزارعين وفرة المياه لسقاية مزروعاتهم ، اشهرها كارون ـ وقد لعب دورا كبيراً في حياة الامارة ـ وهناك انهـار اخـرى عديدة اقل اهمية من نهر كارون ، اما نهر كارون ـ وهـو عند العـرب نهر دجيل ـ (وسموه نهر الاحواز ونهر تستر) ، فـانه ينبع مـن جبال زاجروس ويصب في شط العرب بالقرب من المحمرة وتقع عليه مـدينة الاحواز في الوسط ، وهو اكبر انهار عربستان وأشهرها : طوله زهـاء ١٣٠٠ كيلومتر ، فهو اطول من شط العرب ، وعمقه كعمق نهري دجلة والفرات ، ماؤه مشهور بعذوبته وخفته اهم روافـده نهـر ديز (كارون الاسفل) الذي ينبع من جبال كوه كارو ويدخل مقاطعة الاحـواز تاركا ديزفول على الضفة اليسرى . ويعد نهـر الميتاو ـ نهـر دبيس ـ احـد الفروع المهمة لنهر كارون في شرقي مدينة الاحواز ، يسكنه الان فخـذ من عشيرة كعب يسمى «كعب الميناو» او كعب دبيس ـ أما كرخة (نهر السوس) فلا يقل اهمية عن نهر كارون ، ينبع من سفوح جبال بشتكوه الغربية ـ وله ثلاثة منابع رئيسية ـ وبعـد ان يقـطع المنطقـة الجبلية يدخل اراضي الاحواز السهلة ويصـب في الوقـت الحـاضر في هـوير الحويزة ، وتتوزع مياهه فيه بوساطة عدد من المصبات ، ولهـذا فـان

القسم الادنى من واديه ليس جيداً كطريق للنقل ، أما القسم الاوسـط منه فانه جيد .

اما نهر الجراحي فانه من مقاطعة بهبهان ويصب في هور الفـلاحية وهو نهر قوي كنهر كارون يبعد عن الاحواز ٣٨ كيلومترا .

مناخ الأقليم مشابه الى حد كبير مناخ المنطقة الجنوبية من العراق ، التي تقع في منطقة انتقال بين المناخ الصحراوي الحار ومناخ البحـر الابيض المتوسط ، فقد اثر الموقع هذا في المناخ اذ جعل صـيفه شـديد الحرارة عديم الامطار .

الا ان درجات الحرارة تقل كلما اتجهنا مـن الجنوب الى الشـمال والشمال الشرقي ، وقـد تعتدل الحـرارة بعض الاعتدال في الصـيف عندما تهب الرياح الشمالية .

امـا هبوب الرياح الجنوبية الشرقية ـ فـانها تقلب الصـيف لاذعا محرقا كما تؤثر تاثيرا بينا في ارتفاع معدل الرطوبة النسبية لا سـيما ان المنطقة قريبة من الخليج العربي ومن منطقـة المسـتنقعات ، امـا شتاؤه فمعتدل تسقط فيه امطار قليلة ومتغيرة في كميتهـا ومـواسمها الى درجة انها لا تكفي للزراعة ، فلابد من الاعتماد على الري ، ويعتبر الخليج العربي المصدر الرئيسي للامـطار التي تسـببها الاعاصـير في عربستان الى جانب اعاصير البحر المتوسط .

ولابد من الاشـارة هنا الى التفـاوت الواضـح في مناخ عربسـتان فـالمنطقة الجنوبية التي تحيط بهـا الاهـوار والبحيرات ويجـاورها الخليج العربي تتأثر بالرطوبة القـادمة منهـا جميعا ، امـا المنطقـة الشمالية القريبة من الجبال العالية فتتأثر ببرودتها كثيراً ، والفصـول الاربعة في الاحـواز متداخلة ـ شـأنها شـأن البصرة ـ والفصـلان المتميزان فيها هما الصيف والشـتاء ، امـا الربيع والخـريف فهمـا قصيرا الامد .

وفي الاحواز كثير من المدن القديمة الجـذور العـريقة في الحضـارة

والتي لها ماض تاريخي، الى جانب المدن الجديدة التي نشأت في الفترة الحديثة ولعوامل متعددة، منها تجارية ومنها سياسية ومنها التي خلقها وجود النفط. والسكنى الحقيقية في الامارة مركزة بشدة على جوانب الانهار بسمك محدود، وهكذا اصبحت الانهار كعقد منظوم من المدن التي تتجانب على طولها تبلغ قرابة ٥٠ مدينة.

فالاحواز (الاهواز وتسمى الناصرية) ـ وقد اطلق العرب عليها اسم الاحواز لتمييزها عن اسم اقليم الاحواز ـ هي الى الشمال الشرقي من المحمرة حوالي ١٢٠ كم، وهي مركز امارة الاحواز تقع على نهر كارون في اواسط الاقليم.

أما المحمرة ـ وهي اليوم خرمشهر ـ فتقع عند مصب نهر الكارون في شط العرب وتبتعد عن الاحواز ١٢٠كم عن طريق نهر كارون وهي ميناء تجاري مهم مرتبط بالبصرة ارتباطا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. شيدها يوسف بن مرداو ـ من شيوخ قبيلة البوكاسب ـ عام ١٨١٢ على بقايا مدينة كانت قائمة هناك قبل ستة قرون، بعد ان اذنت له قبيلة كعب ـ وكان تابعا لها ـ واتخذها وأتباعه سكنا لهم وسموها محمرة. وأصبحت عاصمة للامارة بعد استقلالها.

وعبادان ـ وتسمى جزيرة خضر ـ من مدن الاحواز التاريخية المهمة، تقع جنوب المحمرة حوالي ١٨ كم، وهي ميناء لتصدير نفط الاقليم وفيها اكبر مصفاة للنفط في الشرق الاوسط.

وهي عبارة عن جزيرة مستطيلة الشكل تحيط بها مياه شط العرب من جميع جهاتها. وعبادان مدينة قديمة زارها رحالة كثيرون وكتب عنها مؤرخو العصور الاسلامية وقد عدوها ضمن مدن البصرة والعراق الجنوبي.

والحويزة ـ وهي اليوم دشت ميشان ـ من المدن العريقة في الاحواز، اتخذتها دولة المشعشعين العربية عاصمة لها سنة ١٤٤١ ايام المغول وكانت من قبل تابعة للعراق، وتسكنها عشائر كثيرة من

العرب، وقد خضعت منطقة البصرة الى نفوذ امارة الحويزة سنة ١٦٩٧ ـ ١٧٠٠، وتقع الحويزة شمال غربي المحمرة ـ تجاه محافظة ميسان ـ على نهر الكرخة وهو موطن قبائل بني طرف ويسكنها الصابئة منذ القدم. ومن المدن العربية في الاحواز تستر ـ ويسميها الفرس شوشتر ـ وهي ارض الأحواز الخصبة ذات المياه الوفيرة. ومنها دسبول «دازفول» الواقعة على نهر «ديز» جنوب جند يسابور ـ ذات المواقع الاثرية ومدرسة الطب المشهورة ـ ومعناها قنطرة دز او قنطرة القلعة وهي عبارة عن تلول متوازية. والى جنوب غربي دسبول تقع اطلال مدينة السوس ـ الاثرية ـ اما الفلاحية ـ ويسميها الفرس شاوكان ـ وتسمى الدورق، فهي مركز امراء الاحواز قبل بناء المحمرة، عمرها وسكنها بنو كعب، وتقع على نهر الجراحي واشهر مزروعاتها النخيل. ومن المدن المهمة مسجد سليمان في اقصى الشرق ـ حيث آبار النفط ـ التي تمتد منها الانابيب الى مصفى عبادان. وهناك مدن اخرى في الاحواز اذكر منها: الخفاجية ـ الحميدية ـ الخزعلية ـ الفيلية ـ الدبيس ـ قرية الملا ـ معشور ـ البستين ـ قلعة الشيخ.

التطورات السياسية العامة للامارة

بنو كعب

وهم من القـوى الرئيسـية التي لعبت دورا فعـالا في حياة امـارة الاحواز السياسية ، وظهرت على مسرح السياسة في الشرق الاوسط في منتصف القرن السابع عشر ، عندما هاجرت فروعها من العراق سعياً للاستقرار والاستقلال ، واستوطنت شـط العـرب شرقـاً وغرباً ـ لذا عدوا رعايا عثمـانيين في الاصـل ـ وأخـذت تزرع الرز وتربي الحيوانات . واتخذت ـ عقيب ظهورها ـ مدينة قبان (التي كانت مـن ممتلكات الدولة العثمانية) ـ وقد اخضـعها افـراسياب لولاية البصرة منذ ١٥٩٦ م ـ مقراً لها . وفي اواسط القرن الثامن عشر حـدث نزاع عنيف في فارس من اجل العرش ـ اثر مقتل نادر شاه سـنة ١٧٤٧م ـ فوسط الفوضى التي سادت فارس ، قـدمت قبيلة بني كعـب مـن قبان بقيادة الشيخ سلمان ، واستولت على الدورق ، واتخذتها قـاعدة لهـا ، وأبدلت اسمها الى الفلاحية . وكانت هذه البقاع مـن الاحـواز تحـت نفوذ قبائل الافشار التركية . وقـد نال بنو كعـب المسـاعدة مـن دولة المشعشعين العربية (امارة الحـويزة) المجـاورة التي سـبق ان قـدم اميرها ولاءه الى السلطان العثماني سليمان القـانوني ـ عندمـا فتح العراق ـ فاقر في منصـبه ، ولكن ظـل ذلك الامير متذبذباً في ولائه بين السلطان والشاه ، وقد سيطر على شط العرب لدرجة انه لم يتح لسفينة ان تمر الا بعد ان تدفع ضريبة لوكيله .

وبدخول بني كعب الى الفلاحية ، بدأت هذه الامارة تنقرض بعد حكم دام زهاء خمسمائة عام ، فقامت على انقاضها امارة بني كعـب ، التي

اخذت قوتها تنمو نمواً سريعا ، وبدأت تتوسع في جهة الشمال والشرق ، وقد تذبذت في ولائها السياسي بين العثمانيين والفرس ، ولم تخضع بصورة فعلية الى اي من الدولتين ــ شأنها في ذلك شأن امارة الحويزة ــ فادعت كلتا الدولتين حق السيادة عليها . واستطاع الكعبيون وسط هذا الصراع الناشيء في المنطقة بين الفرس والعثمانيين ، ان يثبتوا وجودهم كعامل اساس للامن والاستقرار ، وكضرورة ملحة لتأمين الملاحة والتجارة عبر الخليج ، وقيادة القوافل البرية ، فحقق هذا الوضع لهم مركزاً ممتازاً بين الامبراطوريتين المتصارعتين ، مما دفع كلا منهما الى التقرب اليهم واجتذابهم الى حظيرتها ، كما طالب كل فريق منهما بدفع ضريبة سنوية . لقد الزم موقع بني كعب المائي على شط العرب والخليج العربي ، شيوخها ان يستعينوا على معاشهم ــ الى جانب ما تنتجه اراضيهم من تمور وغلات اخرى ــ ببناء اسطول بحري كبير يعد من اضخم الاساطيل في الخليج خلال القرن الثامن عشر ، استطاعوا ان يدعموا به استقلال اماراتهم الناشئة ، وتمكنوا بوساطته من القيام بالتوسعات ، فاستولوا على جزر شط العرب المحاذية لامارتهم ، ووصلوا الى حدود البصرة ، وظلوا مصدر ازعاج لها طيلة حكمهم ــ مستغلين ضعف الوالي .

والواقع ان مولد الاسطول البحري لبني كعب كان حدثا تاريخيا بارزا من احداث الخليج العربي ، فقد لعب دورا رئيسيا في مياهه الدافئة وعد واحدا من الاحلاف القوية التي قامت في الخليج ، الى جانب قوة القواسم في ساحل عمان وكانا قد وقفا معا في حربهم ضد المقاومة الفارسية العثمانية البريطانية المشتركة فانتصروا عليها . وتمكن بنو كعب ان يكونوا سادة الخليج في قسمه الشمالي ، كما كان القواسم سادته في القسم الجنوبي ، فأصبح الخليج انئذ منطقة نفوذ عربية .

لقد وصف الذين كتبوا عن كعب ــ لا سيما المؤرخون الانكليز ــ

والقبائل الاخرى التي سيطرت على اوجه النشاط البحري في الخليج بالقرصنة ، وهذا حكم يحتاج الى بعض التروي ، اذ ان المد القبلي ، الذي طفح في جزيرة العرب ، دفع هؤلاء وغيرهم الى السواحل بعد ان عجزت الارض عن اعالتهم ، كان على راس ذلك المد بنو كعب ، الذين استعملوا بادىء الامر سفنا صغيرة في استخراج اللؤلؤ وفي صيد الاسماك ، كما استعملوها في نقل التجارة بين سواحل الخليج الاخرى والهند ، ولكن منطقة بني كعب كانت الطريق الوسطى بين طرق التجارة الشرقية التي تمر بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط فلم تترك وشأنها ، إذ جاءتهم السفن الاوربية الكبيرة لتنافسهم في ارزاقهم وتجارتهم ، فاضطروا الى استعمال صورة مشابهة لما كان يقع بين القبائل من مشاحنات في البر تحولت عند سيطرتهم على البحر الى حروب بحرية ، فكانوا يشنون هجمات موفقة على السفن الاوربية ، وقد مارست كل من البرتغال وهولندا وفرنسا وانكلترا هذا الاسلوب الا انهم وصفوها بكونها حروبا بحرية تتم لحساب دولهم ، ولما كانت القبيلة يمكن اعتبارها وحدة سياسية رسمية في تلك البيئة ، فلذا يصح ان تطلق على تلك المغامرات العربية اسم الحروب البحرية ايضا ، وغايتها منع الاوربيين وعدم السماح لهم بارتياد مناطق النفوذ العربية في الخليج .

وقد شهد الخليج العربي نشاطا كبيرا لبني كعب ايام امارة الشيخ سلمان بن سلطان (١٧٣٧ ــ ١٧٦٧) ــ الذي يعد اعظم من تولى الامارة في القرن الثامن عشر ــ فازدهرت الاحواز في حكمه ازدهارا لم تبلغ مثله من قبل ، اذ اهتم بتشجيع الزراعة والتجارة في كل المناطق التي تحت سيطرته ، وقد وصف بالشجاعة والذكاء واستعان بالخبراء العمانيين فعزز اسطول الامارة ووسعه حتى اصبح يضاهي في قوة الاسطول العثماني في الخليج ، ففرض الضرائب على السفن المارة شمال الخليج دون استثناء وحمى المنطقة بالقوة .

وتمكن من نشر سلطانه على كافة الموانيء الممتدة من جزيرة عبادان الى قرب مدينة بوشهر وعلى سواحل عمان في الخليج العربي ولم تتخلص حكومة البصرة من ارهابه فاضطر متسلمها (علي بك) الى مصالحته سنة ١٧٦١ وهابته شركة الهند الشرقية ، وقد كان الشيخ سلمان على جانب كبير من الدهاء والحزم ، فأظهر مقدرة فائقة على الحكم ، وقد صادف في ايامه ان زار الاحواز الرحالة الدانمركي كارستن نيبور ، فترك لنا وصفا دقيقا عن استقلاله الذاتي في المنطقة ودبلوماسيته فذكر : «انه لم يكن يدفع شيئا الى كريم خان ، فاذا طالبه اعتذر شاكيا عدم قابليته على الدفع ومعللا ذلك بتقاضي الاتراك الاموال الطائلة منه ، اما اذا طلب باشا بغداد الرسوم منه فانه يشكو امر الفرس معه .

وكان يعرف جيدا كيف يجتذب الى جانبه انبل اعيان البصرة ، وبذلك استطاع ان يضم قراها اليه الواحدة تلو الاخرى مقابل واردات يؤديها بسخاء الى متسلمها .

وكان يتقاضى رسوما كمركية لا بأس بها من السفن القادمة الى البصرة وعليها ان تشتري تمرا منه عند عودتها الى وطنها» .

بلغ من قوة الشيخ سلمان ما اقلق الاتراك (متسلم البصرة وباشا بغداد) والفرس (كريم خان الزندي) والانكليز (شركة الهند الشرقية) فحاربوه متفرقين فلم يفلحوا ، فقد جرد كريم خان حملته عليه سنة ١٧٥٧ لكسر شوكة ذلك النفوذ العربي في الاحواز وضمها الى السيادة الفارسية ، الا ان هذه الحملة لم تنجح في مهمتها . كما ان الاتراك تراجعوا امام قوته ، فعندئذ حاربوه متحالفين سنة ١٧٦٥ ، وكانت دوافعهم متباينة ـ فقد حاربه كريم خان الزندي لنزعته التوسعية ـ كأسلافه ـ فكان يرمي دائما الى ضم العراق ـ موطن ائمة الشيعة ـ اليه لا الاحواز ـ حلقة الوصل بينه وبين العراق ـ وحدها وقد حاربه العثمانيون لانهم شعروا بالضعف امامه فلم يتقاضوا منه الرسوم

التي كان يدفعها امراء المنطقة من قبل . وكان قد هددهم بالسيادة على شط العرب ـ منفذ العراق الى الخليج ـ اما الانكليز فحاربوه لتهديده مصالحهم التجارية المتمثلة في شركة الهند الشرقية والتي حولت مقرها منذ عام ١٧٦٣ من بندر عباس الى البصرة وتحولت ـ بالرغم من احتفاظها بطابعها التجاري ـ الى مؤسسة سياسية واستطاعت الحصول على براءة قنصلية من السلطان العثماني اعترف بموجبها بوكيل شركة الهند الشرقية قنصلا انكليزيا في البصرة . وقد كانت لهذه البراءة اهمية سياسية ، اذ استغل ممثل الشركة ضعف الاتراك في البصرة وتزايد قوة كعب فكانت البصرة بين سنتي ١٧٦٤ ـ ١٧٧٣ تعتمد اعتمادا كليا في حمايتها من اسطول كعب على اسطول شركة الهند الشرقية .

ولكن الشيخ سلمان استطاع ان يشتت اساطيل المتحالفين . فلم يستطع الاتراك التصدي له بصورة فعالة ، فاضطروا الى مصالحته . وزحف اليه كريم خان بجيش كبير ، ولكن احتماء الشيخ سلمان بمناطق الاهوار والجزر التي تكتنف امارته لم يمكن كريم خان من اللحاق به بسبب فقدان وسائل المواصلات فاضطر الى الانسحاب ، بعد ان خرب السدود ومشاريع الري التي بناها العرب على ضفاف نهر كارون . وتفرغ بعدئذ للانكليز الذين لعبوا دورا فعالا في مساعدة سلطات البصرة في نزاعها مع كعب ، فوجه اليهم الشيخ سلمان ضربته واستولى على بعض سفنهم القادمة من الهند ، واشتبك معهم بعدئذ بحرب ابدى فيها من الشجاعة والمهارة العسكرية ما اثار اعجاب اعدائه حتى بلغت شهرته اوربا . واخيرا اضطروا الى التراجع بعد ان غنم منهم سفنا وذخائر كبيرة ، ومنذ ذلك الوقت بدأ اهتمام الانكليز بالمنطقة ، وفكروا في ادخالها في منطقة نفوذهم ـ كما سنرى .

ان هذه الانتصارات المتوالية قوت عزيمة قبائل كعب ، ومدت نفوذها على جميع الاحواز ، ويبدو ان الكعبيين كانوا على اتصال دائم مع

القبائل العربية الاخرى في قطر والبحرين والكويت وعمان ، الا انه لم يحدث ان دخلت تلك القبائل مع بعضها في حلف سياسي ، ولم نعثر على ما يؤيد عكس ذلك ، فشكل ذلك سببا رئيسيا في زوال السيادة العربية على الخليج بعدئذ والحلف الرئيسي في المنطقة ـ بعد وفاة الشيخ سلمان سنة ١٧٦٧ ـ هو دخول الكعبيين في حلف مع كريم خان ، فأيدوه في حملته على البصرة ـ وكانوا قد انصرفوا عن مضايقتها فترة من الزمن ـ بوساطة اخيه صادق خان . وقد بذل موظفو شركة الهند الشرقية المتحالفة من اخضاع البصرة ، وكان ذلك في عهد المماليك في العراق . والقيمة السياسية لهذا التحالف تكمن في ان فارس اعترفت اعترافا فعليا بتلك القوى العربية وسيادتها التامة على المنطقة ـ وكانت قد عجزت عن اخضاعها ـ ولا يمكن ـ في العرف السياسي ـ الدخول في تحالف مع طرف اخر اذا لم يكن ذلك الطرف معترفا بسيادته ومكانته السياسية .

ومما يلفت النظر في الحياة السياسية للامارة ان نزاعا حادا دب في صفوف امرائها اسفر عن انقسام ـ يمكن وصفه بأنه خطير ـ اذ حدث ان اذن رئيسها لشيخ قبيلة (البوكاسب) ـ احد افخاذ كعب ـ المدعو مرداو بن علي بن كاسب ، بالاقامة على مصب نهر كارون ، فوضع احد امرائها الحاج يوسف اساس بلدة المحمرة سنة ١٨١٢ ، فكان هذا ايذانا بانقسام بني كعب الى قسمين :

قسم ظل في الفلاحية (وهم البوناصر) وقسم انتقل الى المحمرة .

(وهم البوكاسب) الا ان المحمرة غدت خصما لبني كعب ـ قسم الفلاحية ـ بدل ان تكون ظهيرا لهم . اما التي في الفلاحية فقد انقسمت على نفسها سنة ١٨٤٩ ، وثار بينهم النزاع على الامارة ، وشبت حرب فتكت بقوتهم اغتنمتها فارس ، للتنكيل بهم الا انها فوضت امرهم بالتالي للحاج جابر رئيس البوكاسب انذاك .

النزاع الفارسي العثماني على الامارة :

لقد شهدت المنطقة العربية في الشرق صراعا دمويا عنيفا بين الفرس والعثمانيين ، استمر من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر ، وكانت الاحواز احدى المناطق العربية التي تعرضت لذلك الصراع . ومما يميز هذه الفترة من تاريخ العراق العربي (القسم الجنوبي من العراق) ان امارات عربية نشأت فيه على صعيد محلي قبلي ، فكانت امارة آل عليان (في المدينة شمال البصرة) ، وامارة المنتفك ، وامارة الحويزة ، وامارة الفلاحية (في الاحواز) ، وكان امراؤها من العرب المحليين ، يتمتعون باستقلال ذاتي في اماراتهم وقد تعرضت الاحواز لهجمات متوالية مباشرة من الفرس والعثمانيين ، على حد سواء ، اكثر من تلك الامارات العربية التي تجاورها ، وتفسير ذلك يكمن في كونها من مناطق الحدود بين الامبراطوريتين الفارسية والعثمانية ، والتي تحتل اهمية عسكرية بالنسبة لاستراتيجية الخليج العربي ، فهي تشرف على الطريق المؤدية الى العراق من ايران ، ولذلك ادركتها كل قوة راغبة في التوسع الاقليمي ، فان من يسيطر على منافذها البرية والبحرية يتفوق على غيره ، فيستطيع ان يشل اطماع خصمه ومصالحه . فهي اذن بالغة الاهمية في الدفاع والهجوم . فالى جانب كونها تشكل حاجزا منيعا ضد اي هجوم على رأس الخليج ـ بسبب محاذاتها الى خط الدفاع الطبيعي المتمثل بجبال كردستان والبختيارية ـ فان من يمتلك مشارفها تعطيه زمام المبادرة بالهجوم والقوة في الدفاع . والواقع ان الدولتين ـ خلال سلسلة الحروب

الطويلة بينهما ـ لم تستطيعا الاحتفاظ بنفوذهما في المنطقة ، فكان اسميا في الغالب ، ويبدو ان النزاع الفارسي العثماني هذا لا يخلو من جوانب ايجابية ، فلولا الصراع الرهيب الذي فرضه العثمانيون على المنطقة ضد الفرس ، ولولا بسط حمايتهم على الامارة في فترات منقطعة غير قصيرة لما كانت الاحواز حتى الآن عربية ، ولكانت حتما منذ زمن بعيد جزءاً منصهراً في فارس ، فعروبة المنطقة مدينة بلا شك الى ذلك النزاع الذي فرضه العثمانيون على الاحواز ، فكان من ثماره ان نعم العرب بالاستقلال الذاتي في منطقتهم ، واحتفظوا بمقوماتهم الاساسية ، وكانت النتيجة الحتمية للنزاع العسكري الفارسي العثماني على الامارة ان يصاحبه صراع سياسي فاشتد الخلاف بين الفريقين حول تبعية رعايا المنطقة .

وقد شهد القرنان الثامن عشر والتاسع عشر تردي العلاقات بينهما ، وقد وضعت مشروعات متعددة حول تحديد تلك التبعية ، فقد وضع لايارد البريطاني مشروعا جعل فيه المحمرة وسكانها تابعين للدولة العثمانية ، واعتبر نهر بهمشير المنفذ المائي الوحيد للفرس على الخليج العربي . اما هنري مور ـ وكيل شركة الهند الشرقية في البصرة ـ فقد رأى «ان بني كعب هم رعايا عثمانيون في الاصل . وقد سكنوا لسنين طويلة اراضي واسعة ضمن حدود الامبراطورية العثمانية المحانية للامبراطورية الفارسية ، ودفعوا في بعض السنين مبالغ كبيرة من المال الى خزينة باشا بغداد لقاء سكناهم الاراضي العثمانية ، وبعد سنين من وفاة نادر شاه اخذ بنو كعب في امتلاك اراضي جديدة ضمن الامبراطورية الفارسية ، ولهذا اصبحوا رعايا لكلا الدولتين العثمانية والفارسية» ويؤكد الكولونيل رولنسون ـ الذي شغل منصب قنصل بريطانيا في بغداد ـ في مذكرة حول النزاع بين الدولة العثمانية وفارس ، ما ذهب اليه مور ، من ان بني كعب كانوا رعايا عثمانيين في الاصل .

وهكذا تباينت الآراء ، فكان الادعاء العثماني يستند الى ان بني كعب عند قدومهم من نجد بادر ولاة بغداد والبصرة باسكانهم في المحل المسمى (السابلة) الذي يبعد مسافة ثلاث ساعات الى الجهة الشرقية من المحمرة وهناك سندات في طابو البصرة تؤيد ملكية تلك الاراضي للدولة العثمانية وقد صدرت بها فرمانات سلطانية متعددة ، كما ان الاراضي الواقعة في الجانب الشرقي من المحمرة تابعة لاشخاص تبعيتهم عثمانية كانوا يدفعون الضرائب لخزينة البصرة ، وقد دفعوها لداود باشا . زد على ذلك ان المنطقة سبق ان قدمت ولاءها للسلطان العثماني عند فتحه العراق ـ متمثلة بأمير الحويزة العربي الذي اقره السلطان في منصبه ـ اضافة الى ان معاهدة امير اشرف لسنة ١١٤٠ هجرية ـ ١٧٢٧ م ، المعقودة بين الدولة العثمانية وفارس ، نصت على :

دخول منطقة الحويزة (الاحواز) تحت نفوذ الدولة العثمانية . وقد سوغوا استقلال الامارة الاداري عنهم بأنهم اتبعوا اسلوبا خاصا مع الفئات غير التركية ، فأبقوا من النفوذ لها ـ وبخاصة من يصعب الاتصال بهم ـ ومن هؤلاء رؤساء القبائل في اسفل العراق . اما الادعاء الفارسي فيأتي من ان توسع العرب في المنطقة قد شمل اماكن كان الفرس يدعون حق السيادة عليها ، اضافة الى ان شيوخ الاحواز لم يعلنوا استقلالهم تماما عن فارس ، ويستدلون على ذلك بأن بعضا من اولئك الشيوخ اعلنوا ولاءهم في عدة مناسبات للحكومة الفارسية ، وكانوا يدفعون لها في احايين كثيرة ضريبة سنوية ، اما الاواصر المذهبية فلا تقل اهمية عن الروابط السياسية من وجهة النظر الفارسية . ولما كانت حكومة طهران تدعي المذهب الشيعي ، فلا يمكن ان تترك الاحواز الشيعية تحت نفوذ الدولة العثمانية السنية في فترة كان التعصب المذهبي على اشده وقد لعب دوراً رئيسيا في السياسة ،

لذا وصف النزاع العثماني بأنه نزاع مذهبي اكثر من كونه نزاعا سياسيا .

وهكذا تحملت الاحواز عبء الادعاء العثماني والفارسي ، وعد ابناؤها رعايا لكلتا الدولتين في آن واحد فنادى الفرس وباشوات العراق بحق السيادة عليها ، وطالب كل فريق منهما بدفع ضريبة سنوية كاعتراف بالتبعية . ولكن شيوخ الاحواز استغلوا هذه الخلافات فضربوا فريقاً بآخر ، وحافظوا على استقلالهم . كما فسحت لهم هذه الفرصة من الخلافات المجال للتوسع في المنطقة ، وسيطروا سيطرة كاملة على ربوع منطقتهم ووطدوا نفوذهم في شط العرب ، واحتلوا الكثير من القرى وبساتين النخيل والجزر هناك ، حتى وصلوا الى البصرة واخضعوا الملاحة في شط العرب لهم . وقد تعرضوا لهجمات الفرس المتواصلة وتهديداتهم المستمرة ، الا ان فارس لم تستطع ان تمارس سيادتها الكاملة على الاحواز ، لانها لم تكن تملك القوة التي يمكن ان تفرض بها تلك السيادة . فحين تعرض الشيخ غيث بن غضبان (١٨١٢ ــ ١٨٢٩) ــ احد شيوخ بني كعب ــ الى ضغط فارسي نلاحظ انه طلب الى سلطان مسقط وعمان ــ سعيد بن سلطان ــ ارسال قوات عسكرية وبحرية لغرض وقف الضغط الفارسي على استقلاله ، فكفت فارس مرغمة عن ذلك اما سلطات البصرة فقد اظهرت عجزاً تاما في مواجهة قوتهم النامية ، فاستعان متسلمها ــ عزيز اغا ــ بالشيخ جابر الصباح ــ شيخ الكويت ــ لوقف غاراتهم المستمرة عليه فكان الهجوم على المحمرة وعبادان سنة ١٨٢٧ الذي استطاع الكويتيون فيه الاستيلاء على قرية البريم (عبادان) واخذ جميع التمور التي كانت هناك .

وقد انتهت الحرب بالصلح بعد مفاوضات بين الشيخ غيث والوالي داود باشا .

وقد انتهت الحرب بالصلح بعد مفاوضات بين الشيخ غيث والوالي

داود باشا . فان السلطات العثمانية في البصرة اخذت ــ مضطرة ــ تشتري رضاهم بالسكوت والتغاضي والمال .

وقد ازدادت اهمية الاحواز شأناً بعد تشييد مدينة المحمرة عام ١٨١٢ ، فصارت ميناء تجارياً مهماً ، ترسو به السفن القادمة الى ايران والكويت وغيرهما . وأخذت تنافس البصرة ــ الميناء الوحيد للعراق على شط العرب .

ان منافسة المحمرة للبصرة والعمل على فض النزاع على تبعيتها وتأكيد السيادة العثمانية عليها ، وتعرض البصرة باستمرار لغارات بني كعب ــ كان اخرها تلك التي حدثت اثر عزل داود باشا آخر ولاة المماليك في العراق ــ وعدم اطمئنان الدولة العثمانية لولاء الكعبيين ، دفع بالدولة العثمانية الى احتلال المحمرة احتلالا عسكريا ، لا سيما ان الشاه الفارسي في ذلك الوقت كان مشغولا بمحاصرة مدينة هراة بايران ، فاستغل علي رضا باشا اللاز الفرصة مدفوعا بتحريضات فونتانييه قنصل فرنسا المتجول الذي دفعه الى الاستيلاء على المحمرة قبل ان يسبقه اليها الانكليز ، اذ كانت المحمرة احد الميادين التي التهبت فيها هذه المنافسات البريطانية ــ الفرنسية .

وقد وجد علي رضا في فونتانييه مستشاراً سياسياً وعسكريا خلال عمليات الحملة ، اذ امده بالخرائط اللازمة ، وكتب له اسماء المواقع باللغة التركية ليكون من السهل عليه ان يدير المعركة . فتوجه الى البصرة بحملة قادها بنفسه سنة ١٨٣٧ ، يشاركه فيها بعض العشائر العربية ، كما التحق به في البصرة الشيخ جابر الصباح ــ شيخ الكويت ــ مع قواته وتوجهوا الى المحمرة حيث هاجموها بقواتهم البرية والنهرية . وبعد قتال استمر ثلاثة ايام ، تم لعلي رضا باشا الاستيلاء على المدينة بعد ان انسحبت قوات الحاج جابر بن مرداو ــ شيخ المحمرة آنذاك ــ منها ، فدك حصونها وهدم دورها وقتل من اهلها خلقا كثيراً .

ولم تسلم من يده الفلاحية ـ حاضرة بني كعب ـ فتعرض لها ، مما اضطر شيخها ثامر بن غضبان (١٨٣٢ ـ ١٨٣٧) الى تركها الى هنديان ، ونصب على امارة كعب بدله عبدالرضا بن بركات .

اما المحمرة فالملاحظ انه تركها دون ان يعين عليها حاكما عثمانيا ، كما انه لم ينظم ادارتها او يربطها بالبصرة ، وهذا ما حدا بالبعض ان يوجه اللوم له ويفسر حملته على انها غزو ونهب وعودة . وعكف بعدئذ راجعا الى الكويت برفقة الشيخ جابر الصباح الذي ساعدة على توطيد نفوذه في الاحواز وتخليص البصرة من بني كعب .

ولم تقدر لاجراءات علي رضا باشا ان تدوم طويلا في الاحواز ، فسرعان ما رجع الحاج جابر الى المحمرة ، ومنها عقد العزم لمقاتلة علي رضا في الكويت ، فتمت المقابلة وتفاهما على تولي الحاج جابر شئون المحمرة ، دون ان تتعرض له الدولة العثمانية في المستقبل وقبل منه ولاء رمزيا .

من دراستنا السابقة يتضح لنا ان شيوخ الاحواز رفضوا على الدوام النزول عن سيادتهم لكل من فارس والدولة العثمانية ، كما يتبين لنا ان علاقة الاقليم كانت اوثق مع العراق ـ لا سيما البصرة ـ منها مع فارس . والعوامل الجغرافية والتاريخية والبشرية تكون قوة دافعة للتمازج الوثيق بينهما ، فجهات شط العرب الشرقية يصعب اجتيازه . اما الصلات العشائرية بين بني كعب العراق وبني كعب الاحواز ، فلا يمكن التغاضي عنها والتقليل من قيمتها ، فهي رابطة دم وعرق ونسب ولغة ومصير وكيان ، فلا غرابة ان يحصل هناك تداخل اجتماعي واقتصادي بين البصرة الاحواز ، كان من مظاهره التصاهر بين اهل المنطقتين ، فارتبطوا بوشائج القرابة المتينة ، وصار من المستحيل فصلهم بعضهم عن بعض ، كما امتلك كثيرون من اهالي البصرة الاقطاعيات الواسعة في اراضي الاحواز وكانوا يؤدون خراجها الى الدولة العليا العثمانية ، وهذا يفسر لنا كيف اعتبرت منطقة الاحواز من سواد العراق ودخلت ضمن حدود البصرة .

معاهدة ارضروم الثانية ١٨٤٧ :

بعد الاحتلال العثماني للامارة ، تدخلت فارس في الامر خوفا من تطويقها بالقوات العثمانية من الجنوب والغرب ، بالاحتجاج وارسلت منوجهر خان (معتمد الدولة حاكم فارس) الى الاحواز متذرعا بحجج شتى ، منها عدم ارسال الشيخ ثامر مواد غذائية لجيشه ، ومنها ان الشيخ ثامر امتنع عن تسليم محمد تقي خان رئيس قبائل البختيارية الذي اعلن العصيان على الدولة القاجارية عندما التجأ اليه . فما كان من معتمد الدولة الا احتلال الاحواز (١٨٤٠ ـ ١٨٤٢) ، فهرب الشيخ ثامر الى الكويت . وقد اقر منوجهر خان ، عبدالرضا بن بركات اميراً على كعب باديء الامر الا انه عاد فاصدر امرا بتوليه المولى فرج الله المشعشعي الفلاحية . ولما رفضت السلطات العثمانية تسليم الشيخ هبطت عشائر الفيلية الفارسية من جبالها منقضة على مضارب بني لام اضافة الى ذلك طالبت فارس يؤيدها الحاج جابر شيخ المحمرة ـ بالتعويض عن الخسائر التي الحقها الجيش العثماني بالامارة . فبات من الضروري ان تقرر الدولتان اجراء مباحثات جديدة ، وكانتا قد اعياهما النزاع الطويل لا سيما ان انكلترا ـ الطامعة بأملاك الدولة العثمانية ـ وروسيا ـ التي تقف بجانب الفرس ـ قد تدخلتا في الامر ، وضغطتا على الدولتين المتنازعتين لقبول وساطتيهما لحسم ما بينهما من خلاف بلغ حدا خطيراً سنة ١٨٤٢ على اثر توليه نجيب باشا (١٨٤٢ ـ ١٨٤٧) ولاية بغداد وكان يصر على ان يكافح من اجل





فرض السيادة العثمانية على كل جزء من الاجزاء المشكوك في ولائها للسلطان ، وقد اخذ يهدد فارس بالشيخ ثامر الذي التجأ للعثمانيين فكان رد الفعل الفارسي المطالبة بالاحواز حتى القرنة وكادت معركة عنيفة تقع بين الطرفين لولا تدخل روسيا وانكلترا في امر تشكيل لجنة رباعية لحسم الخلاف فوضعت بريطانيا مشاريع الحدود بين الدولتين ـ كما راينا ـ كان نصيبها الرفض من الجانب الروسي ، فكان موقف بريطانيا من ذلك بعدئذ ان امتنع ابردين من ضم الاحواز الى فارس ذلك لان بريطانيا اصبحت تسعى الى فتح منطقة كارون للمشروعات التجارية والملاحية . وبعد عدة اجتماعات مطولة ـ استمرت اكثر من ثلاث سنوات ـ لاطراف النزاع ، تعرضت خلالها اعمال المؤتمر الى التوقف بسبب هجوم قوات نجيب باشا على كربلاء سنة ١٨٤٣ ، فاستغل الفرس ذلك سياسيا على مائدة المفاوضات ، ومما طالبوا به دفع تعويضات الخسائر التي لحقت بالاحواز خلال احتلال علي رضا المحمرة ، فكان رد السلطان على ذلك المطالبة بانسحاب الفرس من المحمرة . وهكذا اشتدت الازمة وارسلت الدولة العثمانية سفينة حربية سنة ١٨٤٦ الى كارون لغرض تحويل تجارة المحمرة الى البصرة بعد ان كادت تجارة البصرة ان تتلاشى . واخذت هذه السفينة ترغم القوارب المتجهة الى المحمرة بالمرور على البصرة لدفع الرسوم الكمركية ثم السماح لها بالرسو في المحمرة ، فاعترضت فارس على هذا الاجراء وايدتها بريطانيا ، فاضطرت الدولة العثمانية اخيرا الى سحبها . واخيرا لما وجدت اطراف النزاع ان مشكلات الحدود ستحتاج الى وقت طويل ، فضلت عقد معاهدة تنص على حل بعض المشكلات القائمة وان يترك البعض الآخر للدراسة ، فكانت معاهدة ارضروم الثانية في ٣١ ايار سنة ١٨٤٧ ايام السلطان العثماني عبدالمجيد والشاه الفارسي محمد . وتحتوي المعاهدة على تسع مواد ، وقد غيرت كثيرا في حدود المنطقة ، وقررت فيها مصير شعب

برغم ارادته وبدون مساهمته في تقرير مصيره اذ تفاوضت اطراف غير معنية على منطقة لم تخضع لكلا الطرفين في اي وقت مضى ، فقد عجز العثمانيون في تثبيت نفوذهم فيها .

كما انها كانت مستقلة تماما عن الحكومة الفارسية فمنحت كلتا الدولتين ما لا تملك للاخرى . ولم تؤيد الوثائق ان الاحواز خضعت حتى بعد المعاهدة للدولة الفارسية ، وانما اكتفت منها بولاء رمزي فقط .

نص مواد معاهدة ارضروم الثانية والمذكرات الايضاحية

معاهدة ارضروم ١٢٦٤ هجرية ـ ١٨٤٧ م : استمرت ايران في مداخلاتها بشؤون العراق طويلا وكانت كثيرا ما توشك ان تحصل معركة جديدة بين الدولتين واخيرا قررت الدولتان اجراء مباحثات جديدة وعقد مصالحه ثابتة يرعاها الطرفان مع العلم ان الدولتين الانكليزية والروسية قد تدخلتا في الموضوع ، وتم ذلك فعلا سنة ١٣٦٤ هجرية ٣١ آيار سنة ١٨٤٧م : وهذا نصها :

المادة الاولى :

تتنازل الدولتان الاسلاميتان عن كل ما للواحدة على الاخرى من ادعاءات مالية في الوقت الحاضر على شرط الا يكون في هذا الترتيب ما له مساس بالاحكام الموضوعية لتسوية الادعاءات التي تبحث فيها المادة الرابعة .

المادة الثانية :

تتعهد الحكومة الايرانية بأن تترك للحكومة العثمانية جميع الاراضي المنخفضة ـ اي الاراضي الكائنة في القسم الغربي من منطقة زهاب ـ وتتعهد الحكومة العثمانية بأن تترك للحكومة الايرانية القسم الشرقي ـ اي جميع الاراضي الجبلية ـ من المنطقة بما في ذلك وادي كرند . وتتنازل الحكومة الايرانية عن كل ما لها من ادعاءات في مدينة

السليمانية ومنطقتها وتتعهد تعهداً رسميا بالا تتدخل في سيادة الحكومة العثمانية على تلك المنطقة او تتجاوز عليها . وتعترف الحكومة العثمانية بصورة رسمية بسيادة الحكومة الايرانية التامة على مدينة المحمرة وميناثها وجزيرة خضر والمرسى والاراضي الواقعة على الضفة الشرقية ـ اي الضفة اليسرى ـ من شط العرب التي تحت تصرف عشائر معترف بأنها تابعة لايران وفضلا عن ذلك فللمراكب الايرانية حق الملاحة في شط العرب بملء الحرية وذلك من محل مصب شط العرب في البحر الى نقطة اتصال حدود الفريقين .

المادة الثالثة :

لما كان الفريقان المتعاقدان قد تنازلا بهذه المعاهدة عن ادعاءاتهما الاخرى المختصة بالاراضي فانهما يتعهدان بأن يعينا حالا قوميسرين ومهندسين ممثلين عنهما من اجل تقرير الحدود بين الدولتين بصورة تنطبق على احكام المادة المتقدمة .

المادة الرابعة :

يوافق الفريقان على ان يعينا في الحال قوميسرين من الجانبين للحكم في كل قضية سببت ضرراً لاحد الفريقين وتسويتها تسوية عادلة ، من القضايا التي وقعت منذ قبول الاقتراحات الودية التي وضعتها وقدمتها الدولتان الكبيرتان الوسيطتان في شهر جمادي الاولى سنة ١٢٦١ ، وكذلك للحكم في جميع المسائل المتعلقة برسوم الرعي منذ تلك السنة التي وقعت فيها بقايا في تلك الرسوم وتسويتها تسوية عادلة .

المادة الخامسة :

تتعهد الحكومة العثمانية بأن يقيم الامراء الايرانيون الفارون في

بروسة وبالا يسمح لهم بمغادرة ذلك المحل ولا بأن تكون لهم علاقات سرية بايران وكذلك تتعهد الدولتان الساميتان بتسليم جميع المهاجرين للاخرى ، عملا بأحكام معاهدة ارض روم الاولى .

المادة السادسة :

على التجار الايرانيين ان يدفعوا الرسوم الكمركية على بضائعهم ـ عينا او نقدا ـ حسب قيمة تلك البضائع الجارية الحالية وعلى المنوال المشروح في المادة المتعلقة بالمتاجرة في معاهدة ارض روم المنعقدة في سنة ١٢٣٨ هجرية (١٨٢٣)م ولا يستوفي شيء اضافي ما علاوة على المقادير المعينة في تلك المعاهدة .

المادة السابعة :

تتعهد الحكومة العثمانية بمنح الامتيازات المقتضية لتمكين الزوار الايرانيين وفق المعاهدات السابقة من زيارة الاماكن المقدسة في الاراضي العثمانية بسلامة تامة ومن غير التعرض لمعاملات مزعجة مهما كانت ، وكذلك لما كانت الحكومة العثمانية راغبة في تقوية وتوثيق عرى الصداقة والتفاهم الواجب بقاؤهما بين الدولتين الاسلاميتين وبين رعاياهما فانها تتعهد باتخاذ انسب الوسائل التي من شأنها ان تؤمن امر التمتع بالامتيازات المذكورة في الاراضي العثمانية ليس للزوار فحسب بل لجميع الرعايا وذلك بصورة تحميهم من كل ظلم او خشونة سواء اكان ذلك فيما يتعلق باعمالهم التجارية ام بأي امر آخر .

وفضلا عن ذلك تتعهد الحكومة العثمانية بالاعتراف بالقناصل الذين قد تعينهم الحكومة الايرانية في اماكن واقعة في اراضي عثمانية تتطلب وجودهم بداعي المصالح التجارية او لحماية التجار وسائر الرعايا الايرانيين ، انما تستثني من ذلك مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وتتعهد

فيما يخص القناصل الموما اليهم بأن تحترم جميع الامتيازات التي لهم حق التمتع بها بناء على صفتهم الرسمية والممنوحة لقناصل الدول المتحابة الاخرى .

وتتعهد الحكومة الايرانية فيما يخصها بتطبيق اصول المعاملة المتبادلة من جميع الوجوه بحق القناصل الذين تعينهم الحكومة العثمانية في اماكن واقعة في ايران ترى تلك الحكومة لزوما لتعيين قناصل فيها . وكذلك تتعهد بتطبيق اصول المعاملة المذكورة على التجار العثمانيين وعلى سائر الرعايا العثمانيين الذين يزورون ايران .

المادة الثامنة :

تتعهد الدولتان الاسلاميتان الساميتان المتعاقدتان باتخاذ وتنفيذ الوسائل اللازمة لمنع ومعاقبة السرقات والسلب من جانب العشائر والاقوام المستقرة على الحدود . وتقومان لذلك الغرض بوضع الجنود في مراكز ملائمة وتتعهدان فضلا عن ذلك بالقيام بالواجب المفروض عليهما ازاء مختلف اعمال التعدي كلها كالنهب واللصوصية والقتل مما قد يقع في اراضيهما .

على الدولتين المتعاقدتين الساميتين فيما يخص العشائر المتنازع فيها والتي لا تعرف لمن السيطرة عليها ان تتركها حرة في اختيار وتقرير الاماكن التي سيقطنوها دائما من الان فصاعداً . اما العشائر التي تعرف لمن السيطرة عليها فترغم على المجيء الى داخل الاراضي التابعة للدولة المسيطرة عليها .

المادة التاسعة :

تؤيد بهذا من جديد جميع النقاط والمواد المدرجة في معاهدات سابقة ولا سيما المعاهدة المنعقدة في ارض روم في سنة (١٢٣٨ هجرية ـ ١٨٢٣ م) والتي لا تعدلها او تلغيها هذه المعاهدة بصورة خاصة ،

ويسري هذا التأييد الى نصوصها كلها كما لو كانت قد نشرت بحذافيرها في هذه المعاهدة .

وتوافق الدولتان الساميتان المتعاقدتان على ان تقبلا وتوقعا هذه المعاهدة عند تبادل نسخها وعلى ان يتم تبادل وثائق ابرامها في ظرف مدة شهرين او قبل ذلك .

مذكرة ايضاحية حول بعض الشروط الواردة في معاهدة ارضروم

«قدمها السفيران البريطاني والروسي في الاستانة الى الحكومة العثمانية في السادس والعشرين من شهر نيسان سنة ١٨٤٧ م» .

يتشرف الموقعان ادناه ممثلا بريطانيا العظمى وروسيا الوسيطين بتسلم المذكرة المطابقة ـ مع الملحق ـ المتعلقة بالمفاوضات التركية الايرانية والتي تفضل معالي علي افندي وزير الخارجية بارسالها اليهما في الحادي عشر من الشهر الحالي .

لقد ارتاح الموقعان اشد الارتياح من تصريح معاليه في المذكرة المذكورة بالنيابة عن الباب العالي بانه قد قر القرار على اصدار التعليمات على الفور الى المندوب العثماني المفوض في ارض روم للتوقيع على مواد المعاهدة المنعقدة مع بلاط ايران غير المعدلة : اي وفق النص الذي وضعه مندوبا البلاطين الوسيطين وكما قدمت لموافقة الحكومات المختصة من قبل وزرائها المفوضين في ارض روم على شرط ان يقدم ممثلا البلاطين المذكورين الى الباب العالي الايضاحات عن بعض النقاط التي ترى الحكومة العثمانية انها غير واضحة كل الوضوح .

اما النقاط التي يريد الباب العالي تقديم ايضاحات عنها فهي كالاتي :

١ ـ يظن الباب العالي بأن الفقرة الواردة بالمادة الثانية من مسودة المعاهدة والتي تنص على ترك مدينة المحمرة وميناثها ومرساها وجزيرة خضر لايران لا يمكن ان تشمل اراضي الباب العالي المتضمنة خارج المدينة ولا صوانيه الاخرى الواقعة في هذه الاقاليم .

ويهم الباب العالي كذلك فيما يتعلق بالنص الوارد في فقرة اخرى من هذه المادة حول امكان تقسيم العشائر التابعة فعلا لايران اي اسكان نصفها الواحد في اراضي عثمانية ونصفها الاخر في اراض ايرانية ، ان يعلم هل ان ذلك معناه ان تصبح ايضا اقسام العشائر الموجودة في تركيا خاضعة لايران وبالتالي ان تترك كذلك لايران الاراضي التي تحت تصرف تلك الاقسام وهل سيكون لايران الحق يوما من الايام في المستقبل في ان تنازع الباب العالي حق التصرف في الاراضي المذكورة ؟

٢ ـ يهم الباب العالي فيما يخص احكام المادتين الاولى والرابعة الحالية ان يعلم هل ان للحكومة الايرانية الحق في ان تدخل التعويضات المالية فيما بين الحكومتين التي تنازلت عنها برمتها ضمن الادعاءات الشخصية ؟ والمفهوم لدى الباب العالي ان هذه الادعاءات لا تسري الا الى بعض رسوم الرعي والخسائر التي تكبدها رعايا الحكومتين من جراء الاعمال التي ارتكبها قطاع الطرق وما شاكل ذلك .

ثم ان الباب العالي يستفهم ما اذا كان سيتم الحصول على موافقة الحكومة الايرانية على مسالة الاستحكامات والحصون المضافة الى المادة الثانية وكذلك على الفقرات المختصة بالمعاملة المتبادلة التي سها عن درجها في المادة السابعة من مسودة المندوبين ؟ ولما كان الممثلان الموقعان ادناه راغبين وملزمين في ازالة الغموض العالق بذهن الباب العالي حول جميع المسائل المذكورة اعلاه فانهما يصرحان بهذا كالاتي :

خصوص :

١ ـ ان مرسى المحمرة هو القسم الواقع مقابل مدينة المحمرة في قناة الحفار . وهذا التعريف لا يحتمل ان يؤدي اي تفسير آخر في معناه .

وفضلا عن ذلك فان الممثلين الموقعين ادناه يشاطران الحكومة العثمانية الرأي القائل بان قيام الحكومة العثمانية بتركها لايران مدينة المحمرة وميناثها ومرساها وجزيرة خضر في المنطقة المذكورة لا يعني تركها ، اية اراضي او موان اخرى موجودة في تلك المنطقة . ويصرح كذلك الممثلان الموقعان ادناه بأنه سوف لا يكون لايران الحق بأية حجة كانت في ان تقدم ادعاءات حول المناطق الكائنة على الضفة اليمنى من شط العرب ولا حول الاراضي العائدة لتركية على الضفة اليسرى حيث تقطن تلك الضفة او من تلك الاراضي عشائر ايرانية او اقسام منها .

بخصوص :

٢ ـ اما بشأن تخوف الباب العالي من احتمال تفسير المادتين الاولى والرابعة من مسودة المعاهدة تفسيرا غير قانوني بحيث يؤدي بالحكومة الايرانية الى اثارة مسألة الادعاءات المالية التي بين الحكومتين من جديد فان الممثلين الموقعين ادناه يصرحان بهذا بانه كما ان المادتين المذكورتين من مسودة المعاهدة قد صرحتا بالتنازل الان وفيما بعد عن جميع الادعاءات التي من هذا القبيل مهما كان منشؤها فانه ليس في الاستطاعة استئناف البحث في هذه المسالة بشأن اية قضية كانت وانه على الفريقين ترضية اصحاب الادعاءات الشخصية فقط دون غيرها ، وفضلا عن ذلك فان تدقيق تلك الادعاءات الشخصية والبت في مشروعيتها سيناط بلجنة خاصة تؤلف لهذا الغرض ، كما ان البت في اي من الادعاءات التي ستعتبر بمنزلة ادعاءات شخصية سيحال كذلك الى هذه اللجنة .

وللجواب على السؤالين الفرعيين اللذين وردا في ختام مذكرة معالي علي افندي ، فان الموقعين ادناه يعتقدان بأن هناك ما يسوغ لهما القول بأن الحكومة الايرانية ستوافق على ان تدرج في المادة السابعة الفقرات المتعلقة بأصول المعاملة المتبادلة التي على كل من الحكومتين مراعاتها حبا لصالح رعاياها وزوارها وموظفيها القنصليين . اما بشأن مسألة الاستحكامات والحصون فلا يستطيعان سوى بيان رأيهما الشخصي وهو ان تعهد الدولتان الاسلاميتان تعهدا متبادلا بعدم تحصين ضفتي شط العرب معناه ضمان آخر لدوام العلاقات السلمية بين المملكتين كما انه من شأنه توثيق عرى الاخلاص وحسن النية وهذا ما ترمي اليه المعاهدة المذكورة .

بناء على ما تقدم فانه في وسع الممثلين الموقعين ادناه ان يعضد تلبية لرغبات الباب العالي حول هذه النقطة بوساطة توسط زملائهم في طهران ولها وطيد الامل بأن عملهما هذا سيسفر عن نتيجة مرضية .

وفي عين الوقت يعتقد الممثلان الموقعان ادناه بأنه في الامكان توقيع المعاهدة قبل ظهور نتيجة المفاوضات حول النقطة الخاصة الاتفة الذكر لانه في الاستطاعة فيما بعد اضافة مادة جديدة الى المعاهدة .

بيرة في ١٤ نيسان ١٨٤٧

الموقعان الخ ..
اوستينوف
اج . وليسلي

جواب الحكومة العثمانية على مذكرة السفيرين البريطاني والروسي في مدينة الاستانة

تلقيت مذكرة معاليكم الرسمية المشتركة والمؤرخة ١٤ (٦) شهر نيسان الماضي جوابا على مذكرتي الرسمية الى معاليكم التي طلبت فيها بعض الايضاحات حول موضوع المعاهدة الايرانية .

لقد قيل في مذكرة معاليكم فيما يتعلق بالاراضي والعشائر التي تبحث فيها المادة الثانية انه وان كان الباب العالي يوافق على ما جاء في هذه المادة بشأن احتفاظ ايران بمدينة المحمرة وميناءها وبالمرسى الواقع مقابل المدينة في قناة الحفار وبجزيرة خضر لكنه لا يتنازل بذلك عن اي ميناء اخر او ارض اخرى في تلك المنطقة وانه سوف لا يكون للحكومة الايرانية الحق في تقديم اي ادعاء كان بحقوق الملكية لا فيما يخص الاماكن الكائنة على الضفة اليمنى من شط العرب ولا فيما يخص الاماكن العائدة للحكومة العثمانية على الضفة اليسرى منه حتى حين تقطن عشيرة ايرانية او قسم منها وانه سوف لا تدخل الادعاءات الموجودة بين الحكومتين والتي تنازلتا عنها بأجمعها بمقتضى المادة الاولى ضمن الادعاءات الشخصية التي تبحث فيها المادة الرابعة وان هنالك ما يبعث فيكما الامل بموافقة بلاط ايران بلا تردد عن درج الفقرة التي سها عن درجها في المادة السابعة حول اصول المعاملة المتبادلة .

ان الباب العالي مرتاح الى الايضاحات والتاكيدات الرسمية المار ذكرها اعلاه ولما كان لصاحب الجلالة السلطان ملء الثقة بالبلاطين

الوسيطين وبممثليهما فقد اصدر ارادته الملكية بارسال التعليمات لمعالي انور افندي مندوب الباب العالي في مدينة ارضروم كي يوقع على مسودة المعاهدة التي قدمها مندوبا البلاطين الوسيطين والتي مآلها ان ايران سوف لاتقدم ادعاءات وهذه التاكيدات تتعارض وكذلك على انه اذا قدمت ادعاءات من هذا القبيل فان المعاهدة ستعتبر لاغية وباطلة المفعول .

ان الغرض من كتابة هذه المذكرة الرسمية وارسالها اليكما هو الفات نظر معاليكم الى جميع الاعتبارات المذكورة في اعلاه .
في ٢٩ جمادي الاولى سنة ١٢٦٣ .

الامضاء

السيد محمد امين عالي

مذكرة مؤرخة في ٣١ كانون الثاني سنة ١٨٤٨ من مرزا محمد علي خان الى السفيرين الروسي والبريطاني

اصرح بهذا لمعاليكم بأنني على المهمة التي عهدت بها الى حكومتي لتبادل وثائق ابرام معاهدة ارضروم موافق كل الموافقة على الايضاحات التي قدمها ممثلا الدولتين الوسيطتين الى الباب العالي حول النقاط الثلاث الاولى من رسالة معاليكم . وفضلا عن ذلك اصرح فيما يختص بالنقطة الرابعة من الرسالة المذكورة بألامانع لدى ان تدرج في المادة السابعة الفقرات المتعلقة بأصول المعاملة المتبادلة على كل حكومة من الحكومتين مراعاتها فيما يتعلق برعايا الحكومة الاخرى وزوارها وموظفيها القنصليين وكذلك صرح فيما يخص الاستحكامات والحصون بأن جلالة الشاه يوافق على ان تمتنع ايران عن اقامة الاستحكامات والحصون على الضفة اليسرى التي امن تصرفها بموجب احكام المعاهدة ما دامت تركية تمتنع عن اقامة الاستحكامات والحصون على الضفة اليمنى من شط العرب مقابل الاراضي الايرانية .

وتأييداً لذلك فقد وقعت على هذه المعاهدة وختمتها بختمي .
بيرة ٢٣ صفر سنة ١٢٦٤ الموافق ٣١ كانون الثاني سنة ١٨٤٨

الامضاء

محمد علي

عروبة المنطقة

ان العرب في منطقة حوض نهـر كارون يرجـع مـركزهم الى زمـن سحيق .

وهم الى يومنا هذا يكونون الاغلبية الساحقة في المنطقـة . فـالحقيقة الكبرى : هي ان الاحواز وطن عربي ، وعروبتهـا لم تكن وليدة ظـرف تاريخي معين ، بل هي امر يرجع في اصـوله الى جـذور الماضي والى طبيعة الاقليم .

لقد تعرض جنوب غربي آسـيا ـ بمـا فيه الاحـواز ـ للسـيطرة العثمانية منذ القرن السـادس عشر ، وقـد نازعتهـا السـيادة الدولة الفارسية ، كما ان الزحف الاوربي بدأ يسـتهدف المنطقـة فـأثر ذلك تأثيراً عاماً عليها ، الامر الذي عرضها للتدهور الاجتماعي والسـياسي فترة ليست بالقصيرة ، الا ان القرن التاسع عشر شهد بوادر نهضة في المنطقة ادت الى ظهور فكرة القومية العربية ـ ذات النهج الواضـح ـ التي سرعان ما اصطدمت بفكرتين اخريين ، الاولى : فـكرة الجـامعة الاسلامية ـ التي عدت الاحواز جزءاً من الامبراطـورية العثمـانية ـ والثانية : فكرة القـومية الايرانية الحـديثة ـ التي تغلبت على الاولى فقضت على الحكم العربي في الاحواز ـ ان النزاع العثماني ـ الفارسي على المنطقة ، يمثل في الواقع : التصـادم بين الفـكرتين ، وكان التيار الثاني اقوى من الاول ، اذ كان موقف العثمانيين رخواً في المباحثات ، في حين كان موقف الفـرس صـلباً . وبالرغم مـن تصـديق التنازل في معاهدة ارضروم الثانية ، فان الامارة بقيت عربية لا تقـر بشيء ممـا وقع . كما ان فارس نفسها ابقت الاسـتقلال الذاتي لهـا ، واعترفـت بامارة الحاج جابر بن مرداو واولاده من بعده وسنحاول في بحثنا هذا التدليل على اصالة عروبتها ونقائها .

١ ـ الحقائق الجغرافية

لقد اثبتت التحريات الجيولوجية ان التاريخ الجيولوجي لاراضي كل من الاحواز والسهل الرسوبي من العراق متماثل ، فقد تكونا في وقت واحد ، من طمي وترسبات نهري دجلة والفرات ونهر كارون وتفرعاته ، فأدى ذلك الى ظهور الاراضي الحديثة على جانبي شط العرب ، لذا فان سهول الاحواز وهي تسمية حديثة لما كان يعرف قديما باسم (سهول سوسيانا) ـ تكونت مكملة للسهل الرسوبي في جنوب العراق ، وهي وثيقة الاتصال معه ، فهناك مسالك برية واخرى نهرية ، بينهما كانت متوافرة في الازمنة القديمة ، كما هي متوافرة في الوقت الحاضر ، سهلت هذا الانتقال . اما العلاقات المكانية الطبيعية ، التي تربط بين الاحواز وايران ، فتكاد تكون معدومة اذ ليست هناك اي علاقة في التكوين الطبيعي بين سهل الاحواز وهضبة ايران الجبلية . فقد ذكر السير ارنولد ولسن في مذكراته ان : «الاحواز تختلف عن ايران اختلاف المانيا عن اسبانيا» اذ ان ايران عبارة عن هضبة تحيط بها حافات من السلاسل الجبلية الضخمة تفصلها عن جميع جهاتها تقريبا ، ولا سيما القسم المحاذي للأحواز فيتكون من عدد من السلاسل المتعاقبة الشاهقة الارتفاع التي لا تتضمن ممرات سهلة يمكن اجتيازها وكل ما تتضمنه وديان ضيقة لاخوار تنحدر على سفوحها ، يستخدمها الرعاة في تنقلهم بين اعالي هذه السفوح واسافلها ، فالاعتبارات الجغرافية اذا اخذناها بنظر الاعتبار في تحديد المنطقة ـ وهي كثيرا ما تكون فواصل طبيعية كالجبال والبحار ـ نلاحظ ان الاحواز متصلة اتصالا طبيعيا بالعراق ، وتفصلها حواجز طبيعية عن ايران لا يمكن اغفالها كعامل مهم في تحديد تبعية الاقليم للدولة . وقد عرف منذ القديم ان مدن الاحواز جزء لا يتجزأ عن ولاية البصرة ولم ترد تبعيتها لفارس عند اي رحالة جغرافي جاب المنطقة وكتب عنها ،

فهي عندهم عراقية الطبيعة تماما ، فانها تكون مع القسم الاسفل من بلاد ما بين النهرين وحدة جغرافية اقتصادية شاركت سابقا في الازدهار السومري والكلداني ، وخضعت بعدئذ للعرب الذين امتد نفوذهم عبر فارس .

والى جانب ذلك هناك بعض الخواص الجغرافية التي تربط اراضي الاحواز بأراضي العراق ، من اهم مظاهرها : الخواص المناخية التي تتشابه فيها مع جنوب العراق وتتغاير كليا مع ايران . وتشترك منطقة الاحواز مع المنطقة الجنوبية من العراق بظاهرة المد والجزر التي اثرت تأثيرا عاما في نواحي الصرف واساليب الري ، وبالتالي في الحاصلات الزراعية التي تشابهت ـ اضافة الى ذلك ـ بفعل التماثل في نوعية وتكوين التربة بينهما .

والتكوين الطبيعي يؤثر ـ بصورة عامة ـ تأثيرا كبيراً في التكوين الاجتماعي للبلاد ، فتشابهت الاحواز والسهل الرسوبي في العراق في انهما كانا موضع اغراء وجذب بالنسبة لسكان المناطق الجبلية والفقيرة التي تكتنفها .

٢ ـ الحقائق التاريخية

ان الاحواز في منطق التاريخ وحكم اللغة ـ وحتى في رأي الباحثين الاجانب فيما كتبوه عن هذه المنطقة ـ عربية ، وتكون مع بلاد ما بين النهرين وحدة تاريخية قائمة بذاتها ، فقد ذكر الرحالة البرتغالي بيدرو تاسكيرا الذي زار المنطقة سنة ١٦٠٤ ـ ان جميع المنطقة الواقعة الى شرق شط العرب كانت تؤلف امارة عربية يحكمها مبارك بن عبدالمطلب ـ الذي كان مستقلا عن الفرس والاتراك ـ وقد دخل في تحالف عسكري مع الدولة البرتغالية ، التي كانت قد وسعت نفوذها في الخليج العربي يومئذ .

اما الرحالة الايطالي بترودیلا فالي الذي زار حوض نهر كارون الى مصبه في شط العرب ـ فقد ذكر ان الشيخ منصور بن مطلب كان يقاوم بقوة محاولة الشاه عباس الاول التدخل في شؤون امارته الداخلية وكان على اتصال دائم مع حاكم البصرة . ويذكر لونكريك ان عربستان مهما اختلفت عن العراق فهي لا يمكن ان تختلف عنه في الوجهة التاريخية . فقد كان قسم منها جزءاً من العراق باستمرار وعلى اتصال بسكانه ، وقد خضعت لجميع التأثيرات الخارجية التي خضع لها العراق نفسه .

اما نيبور ـ الذي زار المنطقة سنة ١٧٧٢ ـ فقد اكد «ان العرب هم الذين يمتلكون جميع السواحل البحرية للقسم الشرقي من الخليج ... ويستحيل تحديد الوقت الذي انشأ فيه العرب هذه المستعمرات على الساحل ، وقد جاء في السير القديمة انهم انشأوها منذ عصور سلفت ، واذا استعنا بالملحمات القليلة التي وردت في التاريخ القديم ، امكن التخمين بأن هذه المستعمرات العربية نشأت في عهد اول ملوك الفرس في القرن السادس قبل الميلاد تقريبا ...

وان ملوك الفرس لم يتمكنوا قط من ان يكونوا اسياد ساحل البحر ، وقد تحملوا صابرين على مضض ان يبقى هذا الساحل ملكا للعرب .

لقد مرت الاحواز بنفس الادوار التاريخية التي مر بها العراق ، فكان فتحها سنة ٦٤٠م في خلافة عمر بن الخطاب ، واصبحت ولاية عربية تتبع في ادارتها البحرين ، واستمرت خاضعة للحكم العربي الاسلامي تتبع البصرة حينا وتستقل حينا اخر ، وكانت خلاله قد تعرضت لهزات سياسية متعددة ، فتذبذبت ـ وولاية البصرة معها ـ بين حركات الخوارج والقرامطة والزنج ، حتى سيطر المغول على الشرق الاسلامي سنة ١٢٥٨م فتفككت السلطة فيها ويظهر من الوثائق ان امارات عربية نشأت في الاحواز وسقى كارون طورا لبني اسد ، وطورا للسادة ـ امراء دولة المشعشعين وقاعدتها الحويزة ـ وتارة لبني كعب ـ وقاعدتها القبان والفلاحية والمحمرة .

وتعرضت الاحواز ايضا لموجات من المد والجزر بين كل من الفرس والعثمانيين ورفضت السماح لممثليهم بالتدخل في شؤون العرب الداخلية مستغلين وجودهم في مناطق الحدود ، وقد دانوا بالولاء احيانا لفارس ، ولكنه كان ولاء رمزيا حتمته الاعتبارات السياسية فتأرجحوا في ولائهم بين الشاه والسلطان العثماني .

كما يتضح لنا ان تاريخها تاريخ متميز يرتبط بوشائج متصلة بتاريخ البصرة ، ويغاير بوضوح تاريخ فارس . اما خضوعها ـ في فترات متفرقة متباعدة ـ لفارس ، فلا يمكن اعتباره دليلا على تبعية الاقليم ، فالمعروف ان البصرة هي الاخرى خضعت في اوقات مختلفة للسيطرة الفارسية ، فهل يعطي ذلك فارس الحق في المطالبة بها ؟ وهل خضوع منطقة لسيطرة اجنبية ـ مهما طالت فترة الغزو والسيطرة ـ يدلل على تبعيتها للدولة الغازية ؟ انه يجب التمييز بين دولة مالكة شرعية ، ودولة غازية تمارس سلطتها بالقوة ، والذي يحدد هذا التمييز رغبة السكان من ناحية ، والدوافع التي حدت بالدولة المسيطرة للغزو ، ومدى المصالح من ناحية اخرى .

لقد حكم العرب فارس قرونا عديدة ، فهل يشكل هذا حقا للعرب في مطالبتهم بفارس ؟ يصور لنا هذا الاستعراض التاريخي ان الاحواز خلال تاريخها المتقلب ، استطاعت ان تحتفظ بمقدار كبير من الاستقلال الداخلي ، حتى عند وقوعها تحت السيطرة الاجنبية .

ان الاحواز كانت في عهد الحكم الفارسي ـ وباعتراف الفرس انفسهم ـ ارضا عربية يسكنها العرب ، فسموها عربستان . ان اصل التسمية مهما اختلفت الاراء فيها ، فهي تشير الى اصل السكان العرب في المنطقة والذين يؤلفون الغالبية الساحقة ـ ٩٥٪ من السكان ـ واذا استندنا الى التسمية في الاستدلال على تبعية الاقليم

للدولة . فان فارس هي التي اطلقت على تلك المنطقة اسم عربستان ، ويعترف الفرس انفسهم بعروبتها ، ويخطئون الشاه اسماعيل الصفوي لانه اعترف بالحكم العربي فيها ، برغم عدم ادانتها بالولاء له واستقلالها عنه ، وفسح المجال للعرب ولم يقض عليهم فكانوا سببا للاضطرابات مع فارس في جميع الادوار ، بعد ان ذاقوا طعم الاستقلال والحكم .

ان الاحواز عربية بتاريخها القديم ووجودها الحديث والادعاءات الفارسية لا تستند الى منطق ولا الى قانون ولا الى واقع ، والفرس برغم المركزية التي استعملوها للحيلولة دون اظهار الروابط المشتركة بين سكان ضفتي شط العرب ، فان خطتهم اخفقت ويضاعف من اخفاقها تلك الوحدة التاريخية والجغرافية لمنطقة الشط ، ووحدة اللغة وطريقة التفكير عند سكانها ، فالحقائق التاريخية تؤيد انها مقاطعة عربية ، وتسندها في ذلك الحقائق الجغرافية ، وهي بهذا عربية تاريخيا وجغرافيا .

والجغرافية لمنطقة الشط ، ووحدة اللغة وطريقة التفكير عند سكانها ، فالحقائق التاريخية تؤيد انها مقاطعة عربية ، وتسندها في ذلك الحقائق الجغرافية ، وهي بهذا عربية تاريخيا وجغرافيا .

٣ ـ الحقائق السياسية :

لو عقدنا مقارنة سياسية عامة في نظام الحكم بين فارس وعربستان ، لاتضح لنا عدم وجود تشابه ـ مهما كان نوعه ـ بين النظامين ، فأسلوب الحكم في فارس قائم على الدولة التي راسها امبراطور او شاه ، اما في عربستان فالحكم كان قبليا ، وعلى راس القبيلة شيخ يستمد قوته من العصبية القبلية ، لذا فان القبلية تتخذ كل الوسائل التي تضمن التماسك الاجتماعي بين افرادها ـ وهو النظام الذي كان

عليه حكام جزيرة العرب ـ ولعل النظام القبلي هذا في عربستان ، هو الذي جعل فارس لا تعترف بها كنظام سياسي قائم بذاته . اما الادعاء السياسي لفارس من ان شيوخ عربستان دفعوا ضريبة لها ، فأراه ضعيفا في استدلاله ، لانهم دفعوها للدولة العثمانية ايضا ، اما قبول شيوخ عربستان اعلان الولاء الرمزي لفارس بعد معاهدة ارضروم الثانية ، فكان لحمايتهم بعد ان تخلت الدولة العثمانية عنهم ، ولأن قبول الولاء هذا كان يمثل اهون الشرين . والواقع ان فارس لم تمارس سيادتها الكاملة على عربستان حتى احتلالها العسكري سنة ١٩٢٥ ، وتحويلها الى ولاية عاشرة لايران . ولاسكات العرب عن مطالبتهم بها ـ لاسيما العراق ـ ، حاولت ان تسبق الحوادث ، فاعلنت ضمها جزر البحرين الى ممتلكاتها . فهذه المنطقة يتكلم سكانها اللغة العربية ، وهناك شط العرب ـ ذلك اللسان المائي ـ الذي يفسر نفسه ، فهو عنوان عربي ، وقد اقرت تسميته فارس نفسها ، ولم تغير اسمه حتى على خرائطها السياسية ـ بالرغم من اصرارها على تسمية الخليج العربي بالفارسي ـ وكل البقاع التي على ضفافه كانت ولا تزال مساكن للعرب ، فهي عربية باللغة والعادات والتقاليد والملامح واسلوب الحياة ، فهذه المنطقة وحدة سياسية وجغرافية وتاريخية .

٤ ـ الحقائق الاقتصادية

في ظل الحقائق العلمية المتعلقة بالصفات الطوبوغرافية ، وبالنسبة لأثر العامل الهيدرولوجي ، والعامل المناخي ـ التي انعكست آثارها جميعا في التوزيع الاقليمي بين عربستان وايران ـ نجد ان هناك تباينا واضحا بين الغطاء النباتي الطبيعي بصورة عامة ، والانتاج الزراعي بصفة خاصة بينهما . وكان لنظام المد والجزر تأثير كبير على التكوين تربة الاقليم ونباته ، وبالتالي على الزراعة فيه . اذ ان انغمار الاراضي

المجاورة لشط العرب بمياه المد ادى الى تكوين السهول الطينية التي اصبحت تغطي مساحات واسعة من هذا النطاق السهلي . كما ان لحركات المد والجزر اهمية خاصة في الاقليم ، لانها تروي زروعه في اوقات المد ، وتصرف مياهه الزائدة في اوقات الجزر ، فأثر تأثيراً خاصا في نواحي الري والصرف المتعلقة بالزراعة ، وهذا ما ليس له وجود في هضبة ايران الجبلية ، ولكنه من المعالم الطبيعية الواضحة في البصرة . لذا فان عربستان اصبحت ترتبط ارتباطاً اقتصاديا كاملا مع العراق ـ لاسيما السهل الرسوبي منه ـ فأراضيهما السهلية الوافرة الخصوبة الغنية بالمياه ، كونت منهما وحدة اقتصادية زراعية ونباتية وحيوانية ، من اهم مظاهر ذلك النطاق الكثيف من غابات النخيل الذي يمتد على ضفتي شط العرب ، والذي تنفرد به عربستان عن باقي اقسام ايران ، بيد انه امتداد طبيعي لاشجار النخيل في العراق . والانتقال بين سهول عربستان وسهل العراق ميسور جدا يجري عن طريق شط العرب وهور الحويزة ببعض انواع من القوارب ، والى جانب ذلك ، هناك مسالك برية كثيرة مفتوحة بينهما ، الا انه يكاد يكون مغلقا مع ايران . فأثر ذلك تأثيرا بيناً على تبادل السلع التجارية بين عربستان والعراق ، فكانت ـ قبل بناء المحمرة سنة ١٨١٢ ـ تعتمد اعتمادا تاما في تصدير منتجاتها على ميناء البصرة ، اذ تجمع البضائع من المدن الداخلية فيها ، وتخزن في مخازن كبيرة في الاهواز ثم تنتقل الى البصرة حيث تتم عملية التصدير . اما واردات عبادانْ فقد كانت تكون موردا ثابتا لخزينة البصرة ، فعندما زارها ابن بطوطة كان ما تدفعه لها قرابة اربعمائة وواحد واربعين الف دينار . كما ان عربستان قد ساهمت مساهمة فعالة في اسباب المهارة في الملاحة العربية واتساع الميادين التجارية ، ومارست اساليب اقتصادية تكون مع العراق والساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب ـ والتي هي امتداد طبيعي له ـ وحدة اقتصادية متشابهة في الحاصلات الزراعية والملاحة النهرية

والحروب البحرية وفي الغوص لاستخراج اللؤلؤ . وهذه مظاهر عربية تتباين كليا مع ما في فارس من اساليب وكيانات اقتصادية . فالفرس منذ البداية أثبتو بانهم بحارة مخفقون ، تعوزهم الخبرة في شئون البحر وتنقصهم الرغبة في ركوبه . ولعل خير تعليل لعجزهم عن ادارة شئون الاساطيل البحرية ما جاء به السير برسي سايكس ـ احد المهتمين بدراسة تاريخ فارس ـ فقد ذكر ان «ليس هناك شيء يوضح تاثير العوامل الطبيعية على ميول الناس وسلوكهم احسن من النفور والكره اللذين يظهرهما الفرس دائما للبحر الذي تفصلهم عنه حواجز جبلية شاهقة» ، فاستخدموا العرب بحارة لاسطولهم واسندوا لهم قيادته ـ برغم معرفتهم بعدم شعور العرب لهم بالولاء والاخلاص .

ولما جاء العهد البترولي اكد بصورة لا تقبل الشك الوحدة الاقتصادية بين ضفتي شط العرب ، فقد كشف ان الضفتين مثقلتان بكنوز الذهب الاسود ، في حين تفتقر اراضي ايران كلها له . وهذا ما دفع بالراسماليين الاوربيين ان يخصوا عربستان ـ اضافة الى العراق ـ باهتمامهم باعتبارها منطقة خصبة للاستقلال التجاري والصناعي .

٥ ـ الحقائق الحضارية :

ويقصد بها تلك الظواهر الاجتماعية ، كاللغة والعادات والتقاليد والدين والعلم والفن والأداب ، اضافة الى بعض النواحي المادية الأخرى كالزي والمأكل . واللغة من اهم المقاييس العامة لمعرفة اي شعب من الشعوب ، فهي وساطة التفاهم العقلي ، واداة للتعبير عن الافكار والشعور ، ووسيلة لاظهار ثقافة الامة وحضارتها وابراز شخصيتها التي عن غيرها . فسكان عربستان يتكلمون اللغة العربية ، وهي تربطهم بالتراث والمصير المشترك الواحد ، في حين يتحدث الفرس

بلغة خاصة بهم وهي اللغة الفارسية – من عائلة اللغات الآرية – . اما ادعاء فارس بان شعب عربستان يتكلمون الفارسية ايضاً ، فهذه ضرورة اقتضتها الظروف في اقليم تكون الجالية الايرانية اكبر جالية اجنبية فيه . وحينما تسعى الدول التي لها ميول توسعية الى فرض حضارتها وبسط نفوذها على مناطق آخرى فأنها تسعي لتحقيق ذلك كله عن طريق اللغة . وهكذا فعلت فارس في عربستان ، وتركيا في الاسكندرونة وفرنسا في الجزائر . والجنس عامل آخر لايقل أهمية عن اللغة للدلالة على اختلاف حضارة عربستان عن حضارة فارس ، فالفرس يرتد أصلهم الى الاقوام الهندية الاوربية والى الجنس الآري ، هاجروا من وراء جبال الاورال واستوطنوا اقليم فارس . اما اصل شعب عربستان فعرب مهاجرين وهم جزء من عرب العراق وشبه الجزيرة العربية في اصولهم وانسابهم ، يرتد اصلهم الى الجنس السامي النقي ، لمجاورتهم جزيرة العرب . واهم مظهر ترتب على ذلك هو الاختلافات اللغوية بين الاقليمين ، كما ذكرنا آنفا .

ويسجل لنا الرحالة الدانمراكي كارستين نيبور ملاحظات قيمة عن الفروق الحضارية بين عربستان وفارس . فيذكر ان عربستان «مستقلة عن بلاد فارس ، وان لأهلها لسان العرب وعاداتهم .. وهم يتعشقون الحرية الى درجة قصوى ، شأن اخوانهم في البادية .. اما مساكنهم فمتواضعة الى درجة ان العدو لا يكترث لهدمها ... وكانوا على يقين من ان الفرس لا يمكن ان يفكروا في الاستقرار على الساحل المجدب ، والتعرض لغزوات العرب ... الذين يقضون حياتهم في البحار ، على العكس من الفرس الذين يقيمون في اجزائها النائية ، والذين يتعاطون الفلاحة والزراعة» .

ان العلاقة المكانية الطبيعية بين العراق و الاحواز لها اثر كبير في تشابه القبائل الموجودة في كليهما ، فقد سكنت عربستان نفس القبائل العربية الموجودة في العراق ، ويتحلى سكانها بنفس صفات وعادات

وتقاليد امة العرب . وآثار الجنس العربي وحضارته تبدو على أتمها في عربستان . اما القول بان الفرس كثرة في عربستان ، فهو قول منقوص . فلا أدل على الرد عليه من ان الفرس أنفسهم اطلقوا على الاقليم اسم عربستان . واذا كانت الآثار الحضارية لامة تؤلف حقوقا ، فان عربستان اقليم عربي . فالبناء الاجتماعي فيها بناء عربي مكين الدعائم ، وجميع ما فيها من مقومات ينطق بعروبتها ، وتضرب الاصالة العربية بجذورها في المنطقة الى ابعد اعماق التاريخ ، اذ ظهرت اقدم الاطوار الحضارية في ربوعها ، وذلك بتأثير حضارة وادي الرافدين .

ان نسبة كبيرة من سكان عربستان تعتنق المذهب الشيعي . اما ادعاء فارس بان شيعة عربستان فرس ، فهو ادعاء خاطىء . فالشيعة اتباع مذهب اسلامي عربي لم يكونوا يوما ما رعايا فرسا ، فهم يوجدون في جميع ارجاء الوطن العربي والاسلامي ، اضافة الى ان حاضرة العالم الشيعي الرئيسة هي النجف الاشرف – وهي ارض عربية – . وشتان بين المذهب الديني والاصل الجنسي . فالمذهب الديني لم يكن – يوما ما – وحده كافيا لخلق جنسية واحدة ، او ليولد شعورا مشتركا بقومية واحدة ، والا لحق لدولة البابا – الفاتيكان – المطالبة بالدول الكاثوليكية في العالم كله .

ان التداخل الحضاري والاجتماعي بين الاحواز والعراق له صلة وثيقة بالتداخل الاقتصادي بينهما ، فكان من نتائجه ان امتلك شيوخ المحمرة قسما من نخيل البصرة واملاكها ، كما امتلك قسم من اهالي البصرة جملة من المقاطعات الزراعية وبساتين النخيل في عربستان في الوقت كان فيه التمازج السياسي والاقتصادي والتفاعل الاجتماعي لا حدود له ، مما ولد في المنطقة وحدة في اللغة والذوق والقيم وطرائق التفكير وطريقة بناء المساكن واسلوب العمل واعداد الطعام وتقاليد

الزواج ورقصة الحرب في الاعياد وتقديم القهوة العربية والمثل الاخلاقية والمظاهر السلوكية .

٦ ـ الحقائق القانونية :

ان مشكلة الاحواز يمكن اعتبارها فصلا اساسا من المسالة الشرقية التي اقلقت القرن التاسع عشر ـ وما قبله ـ وسببت بضع حروب ، بين فارس والدولة العثمانية ، وبالتالي مع الانكليز . ومن الوجهة القانونية يجب ان تعطي اهمية كبرى لعامل لعب دورا كبيرا في قضايا الحدود ، وهو رغبات سكان الاراضي المتنازعة في الاحواز ، والعرف الدولي ينص على ان يكون هناك حد ادنى من العدالة والانسانية يفرض على جميع الدول ، فاذا ظلمت الاقليات جاز لها طلب الحماية الدولية ، واذا صار الظلم لا يطاق ـ وقد يؤدي الى انقراض الجماعات المظلومة ـ يجوز اللجوء الى حق الانفصال . فالضمير الحديث يطلب المزيد من الشعور بالكرامة الانسانية في الاحواز ، ومساواة سكانها امام القانون في حرياتهم المعنوية والمادية لتقرير مصيرهم . وهذه الفكرة معترف بها في القانون المحلي وفي القانون الدولي .

- لقد ذاعت في العالم ـ خلال القرن التاسع عشر وما تلاه ـ التسوية السياسية للمشاكل الدولية ، وفقا لمبادىء القومية وتقرير المصير . الا ان هذا الحق القانوني لم يستعمل في حل مشكلة عربستان ، فهو يمثل سابقة خطيرة في تاريخ العلاقات الحديثة . وخضوعها لفارس يمثل الاحتلال والاقتطاع والضم على اساس اعتبارات غير قانونية ، لان وجهة النظر الدولية كانت تعتبر الاحواز دائما عربية ، وهي جزء لا يتجزأ من الامبراطورية العثمانية ، والتنازل العثماني عنها لفارس كان بمعاهدة لم تبت نهائيا في مصير المنطقة . فكان نزاعا مملا

وطويلا ، قطعه نشوب الحرب العالمية الاولى ، فأجهضت المحادثات وبقي الامر معلقا الى ان انهاه رضا بهلوي باحتلال عسكري شامل للمنطقة ، فالاحتلال العسكري لا يقره القانون الدولي التقليدي ولا القواعد الاخلاقية في العلاقات الدولية ولا الاعتبارات الانسانية . كما ان التنازل العثماني عن المنطقة هو الاخر تعرض للطعن القانوني لانه اهمل حق تقرير مصير الامارة ، ولم ترسل لجنة تحقيق دولية ـ على الاقل لاستطلاع رأي السكان فيها ، على غرار ما كان متبعا انذاك في مثل هذه الحالات . والواقع ان مزاولة السيادة الفارسية على عربستان ، من وجهة النظر الفارسية ، ظلت ضعيفة . لان هذه المنطقة ظلت سيادتها عربية مستقلة عن حكومة طهران ، وظلت تمارس علاقات خارجية مع دول اجنبية ذات سيادة ، وكانت متروكة في اغلب الاحيان لحاكم عربي من الحكام المحليين ، لاتتدخل ايران في توليته او عزله ، وانما تكتفي منه بالجزية ـ في بعض الاحيان ـ وبالهدايا .. وهذا المظهر اتخذته ايران ذريعة قانونية بعدئذ ، عند احتلالها الامارة .

لقد غزا العرب فارس منذ النصف الاول للقرن السابع الميلادي ، وقضوا على الامبراطورية الساسانية ، ودخلت فارس في المجتمع الاسلامي العربي ، ولم يكن لها وجود سياسي مستقل الى القرن السادس عشر الميلادي ، اذ لم تكن سوى اقليم جغرافي ، فهل يحق للعرب ان يتخذوا ذلك حجة قانونية بتبعية فارس لهم ؟ ..

اما الاحتجاج الفارسي ـ في الاحواز ـ باعتراف شيوخ المحمرة بالسيادة الفارسية ورفع العلم الفارسي ، فان هذا الاجراء كان نتيجة ظروف وقتية سياسية قهرية ، ولم يحدث هذا الابعد معاهدة ارضروم الثانية سنة ١٨٤٧ لا قبلها ، فهل يمكن تناسي تاريخ قديم وعام ، والتاكيد على فترة قلقة سطحية لا تتصف بالاستقرار ؟ شهدت الامارة فيها مقاومة عربية عنيفة لمحاولات الفرس السيطرة عليها ، ودفعت قسما من شيوخ الامارة الى التحالف مع الانكليز ، لصد هذا التدخل

الايراني . الامر الذي اجبر الفرس انفسهم على الاعتراف باستقلال الامارة الذاتي عنهم . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ان بريطانية عندما ارادت انشاء معمل لتكرير النفط في عبادان ، انتدبت السير برسي كركس ليتفاوض عنها مع شيخ المحمرة ـ باعتباره الحاكم العربي الاعلى في المنطقة ـ لعقد اتفاقية بشأن جزيرة عبادان ، وصار يتسلم إيجارا سنويا قدره ٦٥٠ جنيها للسماح بمرور خط الانابيب في بلاده الى معمل التكرير في عبادان . وهذا اعتراف من بريطانيا ـ لايمكن الطعن به من الوجهة القانونية ـ بالسيادة العربية على عربستان ، وكانت بريطانيا في وضع يمكنها من معرفة الحقائق ، فهل بعد هذا حجة قانونية اقوى للرد على الادعاء الفارسي بعربستان ؟ ، وما الذي منع الانكليز من التفاوض مع الحكومة الفارسية ان كانت هي صاحبة النفوذ الفعلي في المنطقة ؟

٧ ـ الحقائق القومية :

لقد خضعت اجزاء الوطن العربي للسيطرة الاجنبية ، وقد تفاوتت درجات هذه السيطرة بين ربوعه ، فكانت مباشرة حينا وغير مباشرة حينا آخر . وعربستان من الاقاليم العربية التي تعرضت الى احتلال اجنبي مباشر ـ وهي كثيرة الشبه بما وقع للاسكندرونة بعدئذ ـ . وقد بذل الفرس منذ زمن بعيد محاولات يائسة لضرب الكيان العربي وازالة سلطانه في عربستان ، بسبب كرههم الشديد للعرب . وميلهم للعداء مع كل القوميات غير الفارسية ، وهذه حركة شاملة لا تخص عربستان وحدها ، بل ولدت كرد فعل عند الفرس للزعامة العربية في الاسلام ، فكانت حركة الشعوبية : التي اتهمت العرب «بالبدوة والانحطاط وطعنت في انسابهم وشككت بها ، وراحت تتهم الامة العربية في ذاتها فادعت انها ليست امة واحدة بل مجموعة قبائل متباينة لا ترتبط

برابطة عامة ، وهاجمت الاخلاق والسجايا والقيم العربية ووجهت سهامها الى الثقافة العربية والى اللغة العربية ، تطعن بها وتقلل من شانها ، في حين راحت تمجد الثقافات الاعجمية وبخاصة الفارسية ، وتحاول احياء تراثها الفكري هادفة الى احلال الثقافات والقيم الاعجمية محل العربية ... ودعت الشعوب الاعجمية الى التظافر لضرب العرب معلنة انتهاء دورهم ، فليس لهم الا ان يعودوا لرعي الابل في الحجاز والجزيرة» . وقد برزت هذه الحركة على اشدها في عربستان واصبحت لها ذيول في بلاد اخرى . ومن الغريب ان يؤدي ظهور مثل هذه الحركات الى تسـؤل البعض وشككهم في عروبة عربستان ، بدل ان يحالوا فهم معناها وجذورها وسبب ظهورها . هذا في حين ان عنفها في عربستان ما هو الا مظهر لقوة العروبةفيها .

من المعروف ان عربستان تكون ساحة صراع سياسي ثقافي اجتماعي بين العروبة والاعجمية بعد ظهور العرب على المسرح . وهذه حالة طبيعية في البلاد الحديثة التي تجاور قوى اجنبية عنيفة ، فلا غرابة ان يتخذ هذا الصراع طابعا عنيفا ، افقد العرب الكثير من سيادتهم السياسية ، من ابرز مظاهره ان رسم نادر شاه خطة في اواخر ايامه «تقضي بالقاء القبض على هؤلاء العرب ونقلهم الى سواحل بحر قزوين واحلال فرس محلهم ولكن مصرعه الفاجع حال دون تنفيذ هذه الخطة ، وحالت الاضطرابات المستمرة في بلاد فارس منذئذ دون اعتدائهم على حرية هؤلاء العرب ، «ولما رأت ايران عاصفة العروبة تجتاح اقطار العرب» ، حاولت ان تسبق الحوادث التي كشفتها الحرب العالمية الاولى وظهور الدول العربية القومية للوجود ، فضمتها باحتلال عسكري لها خوفا من ان يطالب العرب ـ لاسيما العراق ـ بها ، وقد كتبت لسياسة نادر شاه النجاح آنئذ «فتم نقل بعض العشائر العربية الى شمال ايران ، في سياسة لا تختلف عن سياسة التتريك في تركيا في

اخريات ايامها» ، ففرضت محاولات من التفريس القسري على شعب عربستان في نواحي متعددة : ثقافية وسياسية واجتماعية .

ويهمنا هنا ان نفهم كيف قابل العرب في الاحواز هذا التحدى للسيادة والفكرة العربية ؟ لقد ظل شعب الاحواز عربيا تحكمه في الداخل اعرافه وتقاليده العربية الخالصة ، ويبدو لي ، خلال اتصالاتي المباشرة وزياراتي المتكررة للمنطقة ، ان هناك نقاء قوميا وشعورا عربيا خالصا يمثل تيارا معاكسا لسياسة التفريس فيها ، والاقليم — بالرغم من الحكم الفارسي — لم يفقد سجاياه العربية ، فجميع ما فيه من مقومات تنطق بعروبتها ، وانظار ابنائه مع العرب .

الاستقلال الذاتي لامارة المحمرة :

يعتبر مرداو عميد الاسرة الكاسبية التي انتقلت إلى ضفاف نهر كارون ، فكان بداية انقسام خطير في صفوف الكعبيين ، من ابرز نتائجه ان تلاشت بعدئذ قوة كعب التي لعبت دوراً إيجابيا في منطقة الخليج العربي ليحل محلها فخذ آخر منها هو قبيلة البوكاسب ، التي أسست بعد حين إمارة المحمرة العربية .

وكان قيامها ضرورة اقتضتها السيطرة على مداخل كارون — الشريان الرئيس لحياة الامارة الاقتصادية — الذي بدأ الغرب حينئذ يوجه أنظاره إليه ، لاستغلاله والنفاذ منه إلى مشارف عربستان وما جاورها طمعا في خيراتها وثروتها الطبيعية .

والحاج يوسف هو الابن الأكبر لمرداو ، والذي خلف آباه في رئاسة القبيلة ، وعلى يده تم تشييد مدينة المحمرة سنة ١٨١٢ ، الذي سبب ازدهارها — بعدئذ — ظهور أهميتها الدولية ، ففكرت بريطانيا — متمثلة بشركة الهند الشرقية — بإدخالها في مناطق نفوذها ، كما قام حول تبعيتها نزاع عثماني فارسي عقيم . ويذكر لونكريك : ان تبعية الحاج يوسف كان مشكوكا في أمرها ، للفرس هي أم للعثمانيين ؟ والواقع أن تبعيته كانت لبني كعب فقط ، ويمكن الحكم عليه من دراسة التاريخ السياسي لبني كعب . وبالنسبة للمحمرة فإن أول ذكر لاسمها عثرنا عليه في (تاريخ كعب) ، إذ أن مؤلفه ذكرها في حوادث عهد الشيخ غيث إبن غضبان أحد أمراء بني كعب (١٨١٢ — ١٨٢٩) فأطلق عليها اسم (كوت المحمرة) ، ومنه يظهر انها كانت قلعة يسكنها جماعة من آل كعب ، هم البوكاسب الذين عاشوا تحت حماية ابناء عمومتهم ، شيوخ البوناصر في الفلاحية فكانت تابعية المحمرة لهم ، فوسعوها وجعلها الشيخ ثامر بن غضبان (١٨٣٢ — ١٨٣٧) ميناء مزدهرا وفتح أبوابها للسفن التجارية .

إمارة الحاج جابر بن مرداو (١٨٢٩ ـ ١٨٨١) :

يمثل الحاج ـ جابر ـ الذي تولى الرياسة بعد أخيه الحاج يوسف سنة (١٨٢٩) عهداً جديداً في تاريخ الاحواز ، فهو يعد بحق المؤسس الحقيقي الأول لامارة المحمرة ، وواضع حجر الأساس لكيانها السياسي ، ويظهر من سيرة حياته ، أنه كان ذا موهبة فريدة وهمة عالية وفكر بعيد النظر ، جعله يتبوأ المكانة اللائقة به كرئيس لرعيته ، وامتاز بجرأته السياسية . فكانت له مواقف سياسية استطاع بوساطتها أن يوطد دعائم إمارته ويوسع منطقة نفوذه ويكسب ثقة رعيته ويخضعهم له ، ويحصل على تأييد من الدول التي حوله .

بدأ الحاج جابر حياته السياسية تابعا كأبيه وأخيه لبني كعب ـ قسم الفلاحية ـ يأتمر بأمرهم ويخضع لارادتهم ، ولكن طموحه ورغبته في الحكم لم تكن خافية على شيوخها ، فأضمروا له العداء ، وعندما أراد الشيخ رحمة الله بن عيسى التنكيل به استطاع أن يرضيه فعفا عنه ، وهكذا غدت المحمرة منذ سنة ١٨٣٠ خصما لبني كعب بدل أن تكون عونا لهم .

وقد عرف الحاج جابر كيف يستميل الشاه الفارسي والوالي العثماني بالعراق في وقت واحد ، ويكسب ثقتهما وتأييدهما له . فكان مقره في المحمرة ، ومحل سكناه في كوت الزين بالبصرة .

ومن ابرز ما حدث في المحمرة ايامه : تعرضها للهجوم العثماني بقيادة علي رضا باشا اللاز سنة ١٨٣٧ ، إلا انه ، كما رأينا ، كان هجوما خاطفا لم يغير شيئا في الكيان السياسي للمنطقة ، تألق فيه نجم الحاج جابر ، بعد أن خرج العثمانيون منها ، فأعاد بناءها ووسعها ، إلا أن نزاعا حاداً بين الفرس والعثمانيين أعقب الاحتلال حول تبعيتها ، تحمل عبأه الحاج جابر بصبر وثبات .

ثم عقد مؤتمر في أرضروم في ايار سنة ١٨٤٣ من اجل التسوية ، وأخذ المؤتمرون يجمعون الوثائق وقاموا باستدعاء الشيخ ثامر ـ وكان لاجئا في البصرة ـ لمناقشته في تطورات الأحداث في المحمرة . واخيراً توصل اطراف النزاع ـ بإشراف الوسيط الروسي العقيد اورس ـ إلى عقد معاهدة ارضروم الثانية سنة ١٨٤٧ ، قرر فيه تبعية المحمرة للدولة الفارسية ، وقد عرف الحاج جابر ـ الذي امتاز بالذكاء والشجاعة ـ كيف يستغل الظروف لمصلحته ، فمال ـ في أثناء النزاع الفارسي العثماني على منطقته ـ إلى الدولة الفارسية ، بالرغم من ان تابعيتها كانت اقرب للدولة العثمانية ، وترجع في إدارتها إلى ولاية البصرة إدارة غير رسمية ، ووقف موقفاً صلباً مع درويش باشا ـ عضو لجنة تخطيط الحدود العثمانية ـ ومانع بشدة اعتبار المحمرة جزءاً من الامبراطورية العثمانية ، وكان يدفعه لهذا الموقف طمعه في الاستقلال الذي كان أقرب له في ظل الدولة الفارسية المفككة منه في الدولة العثمانية ، وتفكيره في الخروج من تبعية بني كعب الساكنين في الفلاحية ، التي كانت أملاكهم جزءا من أملاك الدولة العثمانية العلية ، إضافة إلى أن أبناء منطقته كانوا يحملون الجنسية العثمانية لا الفارسية فالخروج عن العثمانيين معناه التخلص من التجنيد العسكري العثماني الذي يشمل المنطقة في وقت لاتستطيع فارس سوقهم لعدم امتلاكها هذا الحق .

وقد وقفت الدولة العثمانية مناوئة للحاج جابر ـ الذي تؤيده فارس طمعا بمنطقته ـ وأبرز درويش باشا مستندات كثيرة ووثائق رسمية تثبت ملكية دولته أراضي المحمرة . فزادت هذه الحوادث مكانة المحمرة السياسية والتجارية ، وزاد الحاج جابر حرصاً على تقدم منطقته وعلو شأنها .

والحقيقة أن الحاج جابر ـ وأبناءه من بعده ـ لم يخضعوا للسيادة الفارسية ، ولم يعترفوا بمعاهدة أرضروم الثانية ، وظل يحكم منطقته ،

لاتقلقه فارس قدر قلقه من العصبية القبلية . التي أخذت تتأجج نيرانها على أثر ضعف بني كعب في الفلاحية ، وتحول تبعية المنطقة الى فارس ، فانشقت قبائل الاحواز سنة ١٨٤٩ على نفسها : «إذ أعلن الشيخ حداد بن فارس رئيس قبيلة آل كثير استقلاله ، وكذلك فعل الشيخ مهاوي رئيس قبيلة بني طرف . ولم يشذ الشيخ طلال رئيس قبيلة ربيعة عن ذلك ولم يكن شأن البوناصر ـ رؤساء بني كعب في الفلاحية ـ أحسن حالا من غيرهم ، فقد ثار بينهم النزاع على الامارة ودارت حروب طاحنة بين جميع القبائل» ، اغتنمتها فارس للتنكيل بهم . وتدفقت جيوشها على المنطقة ـ باعتبارها من مناطق نفوذها ـ فأسرت بعض رؤساء القبائل ، إلا أنها عجزت عن إخضاع ربيعة ، فأصدرت مرسوما ملكيا فوضت أمرهم بموجبه إلى الحاج جابر ـ الشخصية القوية التي حافظت على مكانتها برغم الفوضى التي عمت الاحواز ـ فتصرف بحكمة معها ، إذ تزوج ابنة شيخها (طلال) ، فأولدها الشيخ خزعل ـ آخر أمراء الاحواز ـ ، وهكذا اجتمعت الرئاسة له ، إلا أن بني كعب لم يشأوا الخضوع (لتابعهم بالأمس) ، فثاروا لسيادتهم على المنطقة ، وجرت بينه وبينهم حروب كثيرة تغلب في معظمها عليهم ، أشهرها وقعة البوحميد ووقعة كوت الشيخ الحاسمة . وقد تعرضت المحمرة في ٢٦ آذار سنة ١٨٥٧ إلى هجوم بريطاني كاسح للمنطقة وقف فيه الحاج جابر واتباعه صامدين بوجه الانكليز ، إلا أنه وجد بعدئذ أن من مصلحته عدم الوقوف بوجههم ، ولا سيما أن إنكلترا اصبحت ، بموجب معاهدة باريس سنة ١٨٥٧ ، الدولة التي لا منازع لها في الخليج العربي . وقد ظلت القوات البريطانية مرابطة في المحمرة قرابة ثلاثة أشهر ، انسحبت بعدها على إثر إبرام معاهدة باريس . أما موقف فارس من المشاكل الداخلية التي واجهتها ، عند انتقال تبعية الاحواز لها ، فكان موقفا فيه شيء من الحرج والتراجع ، فقد وجدت نفسها عاجزة عن إدارة شؤون المنطقة

التي لاتمت لها بصلة واقعية سوى ارتباطها بها من الناحية السياسية الشكلية . ولما كانت فارس آنذاك في وضع لا تحسد عليه من التفكك والانهيار ، والنزاع العثماني ما انفك مستمرا عليها ، فقد وجد ناصر الدين شاه (١٨٤٨) ـ أن من الحكمة ومصلحة بلاده إعلان استقلال الاحواز تحت إمارة الحاج جابر ، ليتخلص من عبء إدارتها ، وليجعلها منطقة حاجزة عن تعديات الاتراك المستمرة لحدود بلاده ، فأصدر في أواخر سنة ١٨٥٧ مرسوما ملكيا يتضمن ما يلي :

ـ تكون المحمرة إلى الحاج جابر بن مرداو ولأبنائه من بعده .

٢ ـ تبقى الكمارك تحت إدارة الدولة الفارسية ويديرها أمير المحمرة نيابة عنه .

٣ ـ يقيم في المحمرة مأمور من قبل الدولة الفارسية ليمثلها لدى أمير المحمرة ، ومهمته تنحصر في الأمور التجارية فقط .

٤ ـ يكون علم الامارة نفس العلم الفارسي .

٥ ـ تكون النقود المتداولة في إمارة المحمرة نفس النقود الفارسية .

٦ ـ شؤون إمارة المحمرة الخارجية منوطة بوزارة الخارجية الفارسية .

٧ ـ يتعهد أمير المحمرة بنجدة الدولة الفارسية بجيوشه ، في حالة اشتباكها بالحرب مع دولة أخرى .

وهكذا صدر هذا الاعتراف باستقلال المحمرة الذاتي وبأمارة الحاج جابر عليها بعد مرور عشر سنوات فقط على عقد معاهدة ارضروم الثانية سنة ١٨٤٧ ، وهذا ما توقعه الحاج جابر نفسه خلال أزمة الصراع ، والمرسوم هذا ، برغم عدم إعطائه الامارة شخصية دولية ، تضمن صراحة استقلال الاحواز في شؤونها الداخلية ، إمارة وراثية لها قواتها المستقلة : «وصار أميرها يدفع إلى حكومة طهران إتاوة سنوية معينة إضافة إلى واردات الكمارك ، وما عدا ذلك فان أمير المحمرة أصبح الحاكم المطلق في إمارته ، يفرض من الضرائب ما

يشاء، وله جميع واردات الامارة، وعليه جميع مصروفاتها، وهو المسؤول عن أمنها وإدارة شؤونها الداخلية، وله الحق في أن يعين من قبله حكاما على المناطق والمدن التي تقع ضمن إمارته.

وبعد أن حصل الحاج جابر على اعتراف الشاه باستقلاله الذاتي، اتجه للنهوض بإمارته، ففكر في نقل مقره من المحمرة إلى موضع يبعد عنها كيلو مترا واحدا كان يسمى (أبو جذيع)، فتحول سنة ١٨٦٥ إليه، واطلق عليه اسم (الفيلية)، وكان ذلك نتيجة التفكك القبلي الذي ساد المحمرة، وعمل الحاج جابر على إخماد جذوته بما أوتي من حول وقوة، وكلفه في بعض الأحيان خوض حروب عنيفة مع بعض القبائل، أشهرها حربه مع قبيلة انصار سنة ١٨٦٨، وتطلب منه الأمر طلب المعونة من ناصر بن راشد السعدون (شيخ المنتفك) وعبدالله الثاني الصباح (شيخ الكويت)، واستطاع بقوته وذكائه أن يؤلف بين قبائل عربستان، ويكسبها لجانبه، فوطد بوحدتهم استقلاله، إلا أن بني كعب في الفلاحية – برغم حروبهم معه – ظلوا منافسين أقوياء له في الاحواز، وصاروا يبذلون للشاه بسخاء من أجل اعترافه بكيانهم السياسي – الذي فقدوه بقيام إمارة المحمرة – فتدارك الأمر الحاج جابر واغتنم فرصة زيارة ناصر الدين شاه للعراق سنة ١٨٧١ فقصد بغداد طالبا إلى واليها مدحت باشا (١٨٦٩ – ١٨٧٣) التوسط له عند الشاه بتسليم الواردات المترتبة عليه بوساطة معتمد للشاه في المحمرة لا طهران، ليأمن منافسة بني كعب له خارج حدود إمارته فتم له ما أراد وسلمه الشاه فرمانا ورتبة (نصرة الملك)، ولقبه (أمير تومان)، وصار معتمد الشاه يأتيه سنويا بخلعة ثمينة من طهران اعترافا به فاستقر له الحكم وأمن شر مناوئيه.

وقد استقر له الأمر في إمارته بعدئذ، وعاش بقية حكمه في هدوء نسبي، وطد خلاله علاقاته بجيرانه عرب العراق – لاسيما شيخ المنتفك ناصر بن راشد السعدون – ولكن ذلك لم يمنعه من التجاوز أحيانا على

المناطق المجاورة لحدود إمارته، الأمر الذي عكر صفو الأمن عليها. أما علاقاته مع عبدالله الثاني ابن صباح الثاني شيخ الكويت فكانت متينة، إذ كان يرسل له شيخ الكويت النجدات المستمرة ليوطد بها دعائم إمارته في حربه مع القبائل المنشقة، فكافأه على صنيعه هذا بسبعين كارة من التمر راتبا سنويا. أما علاقاته مع فارس فكانت إسمية لا تتعدى النواحي الشكلية السياسية التي فرضتها عليه معاهدة ارضروم الثانية، كما أن المعروف عنه أنه لا يعطى فارس إلا شيئا قليلا لا يتعدى واردات الكمارك بعد أن يخصم له ولرجال حاشيته بعضها. ومن ناحية أخرى نلاحظ أنه أبى تغيير زيه العربي عندما أمره ناصر الدين شاه بذلك على إثر عقد معاهدة أرضروم.

وفي سبيل بناء كيان إمارته الاقتصادي وضع «الحجر الأساسي لأجل وضع مشاريع لتشجيع الملاحة في شط العرب، وكان غرضه في ذلك توسيع نهر كارون وجعله صالحا للملاحة من مصبه في شط العرب إلى ميناء تستر الى القسم الشمالي الشرقي من الاحواز. وقد رفض الحاج جابر قبول العروض الاقتصادية البريطانية المتعلقة بفتح نهر كارون للملاحة البريطانية، وكان يرمي من تلك المعارضة إلى الاحتفاظ باستقلاله الذاتي عن الحكومة الفارسية وعدم فسح المجال للشركات الأجنبية لاستغلال نهر كارون».

وإمارة الحاج جابر على المحمرة دامت أكثر من نصف قرن، قضاها في تدعيم استقلاله، وبناء كيانه السياسي والمحافظة عليه. توفي سنة ١٨٨١ بعد أن تجاوز التسعين من عمره، فانتقلت الامارة إلى ابنه مزعل.

٢ – *إمارة الشيخ مزعل (١٨٨١ – ١٨٩٧)*:

تمثل حقبة الشيخ مزعل على فترة انتقالية في تاريخ الامارة – من

الاستقلال الذاتي ، الذي حصله أبوه الحاج جابر ، إلى الاستقلال شبه التام الذي حققه أخوه الشيخ خزعل بعدئذ ـ ، فقد تولى إمارة المحمرة إثر وفاة ابيه ، بعد أن نازعه عليها أخوه الشيخ محمد ، إلا أن شعب الاحواز رجحة على أخيه الاكبر ، الذي التجأ إلى طهران للحصول على اعتراف الشاه به ، فلم يفلح ، فاضطر إلى السكنى في البصرة ، إذ قضى بقية حياته في السبيليات (إحدى مناطقها) .

واعترفا بالأمر الواقع أرسل الشاه ـ باعتبار أن الاحواز من مناطق نفوذه ، كما نصت معاهدة ارضروم الثانية ـ للشيخ مزعل مندوبا خاصا لتقديم التهنئة ، ومعه خلعة الأمارة ومنحه القاب ابيه . واضاف إليها اللقب العالي «معز السلطنة» . وصدر باسمه فرمان الحكومة ومنشور الولاية .

وقد عانى في بدء إمارته من انشقاق القبائل عليه ، تلك التي شغلت اباه من قبله ، طمعا بالرياسة والجاه ، فكثرت حروبه معهم . والملاحظ أن التفكك القبلي في المنطقة وعمق العصبية القبلية بين قبائل الامارة عمل على إضعاف الصمود العربي ـ الذي تبلور ايام الكعبيين ـ بوجة التيارات الأجنبية ، فارسية كانت أم اوربية . وقد استغله الانكليز بوجة خاص فنفذوا للمنطقة من خلال ثغراته واستطاعوا أن يحققوا اغراضهم مستغلين تهديد معاهدة ارضروم الثانية للكيان العربي في المنطقة .

إن أولى المشكلات الداخلية التي واجهت الشيخ مزعل إثر توليه ، هي :

انقسام أهل الفلاحية إلى فرقتين ، الاولى مع الشيخ رحمة الله ـ شيخ بني كعب ـ ، والأخرى مؤيدة له ، فاستطاع ان يخضع الفرقة المناوئة ويرتب عاملا من قبله عليها ، بعد أن عزل مشايخها ، والتفت بعد ذلك إلى الحويزة ـ التي تمرد فيها المولى مطلب بن نصر الله آخر ولاة المشعشعين ـ فارسل لهم الشيخ خزعل على رأس حملة كبيرة ،

فتمكن منهم بعد أن خاض معهم عدة وقائع أشهرها وقعة العتابية فانطوت بذلك آخر صفحة من تاريخ المشعشعين ، وذلك سنة ١٨٨٢ .

وبالرغم من فترة القلق والفوضى النسبية التي مر بها الشيخ مزعل ، فانه استطاع توسيع إمارته والسيطرة على قبائلها مستعملا اللين حينا والشدة حينا آخر . وقد عرف عن الشيخ مزعل ولعه بالصيد وعطفه على الفقراء ورجال الدين وتشجيعه الشعراء . وقد أحاط نفسه بكل مظاهر البذخ والاحترام .

اما علاقاته الخارجية فكانت متينة مع عرب المنتفك من آل السعدون في العراق ، فنلاحظ انهم التجأوا إليه عندما طاردتهم السلطات العثمانية ، وأحسوا بخطر محمد الرشيد ـ أمير حائل ـ عليهم . وقد ظلوا في رعايته في الاحواز مدة تزيد على السنتين . وعلاقاته بشيوخ الكويت استمرارا للعلاقة الوطيدة بينهم وبين أبيه ، فكانوا يكسبون رضاه ، وكثيرا ما ترددوا عليه في مقره بالمحمرة ، و عاونوه في المحافظة على آل السعدون من خطر أمير حائل ، وإرجاعهم إلى ديارهم في المنتفك . كما أن الشيخ مزعل حاول التدخل في أزمة الصراع على الحكم بين الشيخ مبارك الصباح (١٨٩٦ ـ ١٩١٥) ـ الذي قتل أخاه الشيخ محمد الصباح (١٨٩١ ـ ١٨٩٦) ـ وبين يوسف الابراهيم أحد المتنفذين في الكويت والمطالب بدم الشيخ محمد ، إلا أن قتل الشيخ مزعل حال دون حل المعضلة .

أما علاقته مع فارس ، فكانت رمزية إسمية لم يطرأ عليها اي تغيير عما كانت عليه زمن ابيه ، إلا أن عصر الشيخ مزعل امتاز بتغلغل النفوذ البريطاني في المنطقة وتقويته ، فقد اتجهت بريطانيا إلى «إمارة المحمرة العربية لكي تتخذ منها قاعدة لمواجهة التقدم الروسي في فارس» . فبذلت جهودها لاقناع الشيخ مزعل بأنها ليست لها أية أهداف عسكرية ، وأن مصالحها تعتمد على التطور السلمي للتجارة في المناطق الواقعة على شواطىء شط العرب . ومشاريعها تهدف إلى

تحسين طرق المواصلات في المنطقة ، ولكن المتتبع لجريات الحوادث يلاحظ ان هدف التغلغل البريطاني كان من أجل تحقيق استثمارات المناطق الغنية الواقعة على جانبي حوض كارون في مقاطعة الاحواز .

وقد عملت بريطانيا جهدها لأن تبقى صاحبة النفوذ الأول في الاحواز ، فوقفت بحذر من تحصينات الأتراك ، أو فسرته بكونه عملا موجها ضد المصالح البريطانية ، مستندة إلى أن معاهدة أرضروم الثانية منعت إقامة الاستحكامات على شط العرب . وقد أبدت حكومة الهند تخوفها من نوايا الأتراك التي اعتقدت أنها تهدف إلى السيطرة على الاحتكارات التجارية البريطانية في المحمرة . كما أن بريطانيا أصيبت بالقلق خلال أزمة التدخل الفرنسي في المحمرة سنة ١٨٨٢ ، وصارت تفكر بالخطر التجاري والسياسي على نفوذها الذي تحدثه المشاريع الفرنسية في المحمرة بوجه خاص ، وفي الخليج العربي بوجه عام ، لا سيما أن الشيخ مزعل ـ شيخ المحمرة ـ يتمتع باستقلال ذاتي في إمارته ، ومن السهل جدا على فرنسا و الدول الأوربية الأخرى تكوين علاقات تجارية وسياسية معه بصورة مباشرة . فقد زارت المحمرة جماعة من التجار الفرنسيين سنة ١٨٨٣ ونالوا مساعدات قيمة من القنصل الفرنسي في البصرة ، كما زار حوض كارون المهندس الفرنسي ديولافوى وذلك لاعداد تقرير عن الملاحة والري فيه ، ولوضع دراسات لبناء خزان عند الأحواز .

لكن بريطانيا ـ برغم كل هذا ـ بذلت جهودا مضنية للحصول على امتيازات خاصة بها ، وقد دفعها ذلك الوضع لاقناع الحكومة الفارسية ـ صاحبة النفوذ الأسمى في المنطقة ـ لتفتح نهر كارون للملاحة والتجارة ، لكن فارس عارضت بادىء الأمر مثل هذه الامتيازات التي تتبعها عادة سيطرة سياسية وعسكرية . ومما زاد في مخاوفها وقوع إمارة المحمرة العربية على مداخل النهر ، فيصبح من الميسور على شيخها الحصول على تأييد من بريطانيا للاستقلال التام .

على أن الشيخ مزعل هو الآخر عارض مشروع الملاحة النهرية في نهر كارون ، إلا أنه «اخفق في إقناع بريطانيا بترك المشروع ، ولعله وجد في تطور المنطقة اقتصاديا وربط المحمرة بتستر وطهران بسكك حديد تهديدا لنفوذه في المنطقة ، ولكنه كان على أتم استعداد لمقاومة أية محاولة تأتي من طهران لاحتلال إمارته» . وأخيرا استقر الرأي سنة ١٨٨٨ على افتتاح نهر كارون الواقع جنوب الأحواز للملاحة التجارية الدولية ، وهكذا ابحرت بواخر لنتش ـ صاحبة الملاحة في الرافدين ـ في نهر كارون ، وبذلك دخلت إمارة المحمرة عهدا جديدا في تاريخ العلاقات الدولية ووقعت تحت تأثيرات خارجية عجزت عن صدها ـ كما سنرى ـ ويروي أن مرافق المحمرة أصبحت في عهد الشيخ مزعل تحت إشراف بريطاني مباشر ، ووقعت مواردها تحت السيطرة البريطانية . وفي عام ١٨٩٠ اسست لهذا الغرض قنصلية بريطانية في المحمرة .

وقد دامت إمارة الشيخ مزعل ستة عشر عاما ، نافسه في أواخرها اخوه الأصغر الشيخ خزعل ، ويبدو أن حزمه وشدته كانا قد ضايقا اخاه ، لاسيما أنه كان يسيء العشرة معه ويقتر عليه في معاشه ، لمحاولة سابقة جرت لاغتياله كان قد دبرها له الشيخ خزعل . ولكن ذلك لم يثن الشيخ خزعل عن عزمه ، وظل يتحين الفرص إلى أن واتته ذات يوم ، فارداه قتيلا وهو ينزل إلى قصره في الفيلة ، من قارب صغير بجانب القصر ، وقتل معه سبعة عشر رجلا من حاشيته ، ـ وكان ذلك في سنة ١٨٩٧ ـ ليتبوأ الشيخ خزعل بدله إمارة المحمرة ، ففوض إليه مظفر الدين شاه ـ كما جرت التقاليد ـ الامارة ومنحه جميع مناصب اخيه والقابه .

الشيخ خزعل اميرا للاحواز

شخصية الشيخ خزعل وتوليه الامارة :

يعد الشيخ خزعل من الشخصيات العربية البارزة في تاريخ العرب الحديث . إذ انه لعب دورا رئيسيا في احداث الخليج العربي في الربع الاول من القرن العشرين ، وساهم مساهمة فعالة في احداثه ، واحتل مكانة مرموقة بين امراء الجزيرة العربية . وحرص الريحاني على ان يؤكد لنا : «انه اكبرهم ـ بعد الملك حسين ـ سنا وأسبقهم إلى الشهرة وقرين أعظمهم إلى الكرم» .

وهو لا يقل مكانة عن شخصية الشيخ سلمان بن سلطان الكعبي (١٧٣٧ ـ ١٧٦٧) ـ الشخصية البارزة التي حكمت الامارة إبان القرن الثامن عشر .

وتأتي اهمية الشيخ خزعل من أن إمارته شهدت أيامه احداثا غاية في الأهمية ، فقد شهد تفجر النفط وتبلور المصالح الأجنبية في منطقته ، وشهد قيام الحرب العالمية الأولى ، وعد موقع إمارته الاستراتيجي خطيرا إبانها ، كما شهد انهيار الحكم القاجاري في إيران وقيام الحكم البهلوي بدله ، ذلك الحكم الذي أطاح بحكمه .

ولد الشيخ خزعل سنة ١٨٦٢ ، وهو كعبي عامري تجري الدماء العربية في عروقه ، امه نورة بنت طلال شيخ قبيلة الباوية ـ التي تنحدر من ربيعة ـ ، وكان قد تزوجها أبوه الحاج جابر بن مرداو زواجا سياسيا ليكسب بها قبيلة أبيها المنشقة عليه . نشأ الشيخ خزعل في المحمرة وتعلم على أيدي بعض من شيوخ النجف ، وتدرب على الفروسية ، فكان عونا لابيه واخيه ـ من بعده ـ في حروبهم المستمرة مع عشائر المنطقة .

تولى الامارة على إثر مقتل الشيخ مزعل سنة ١٨٩٧ ، ولهذا الاغتيال دلائله ، فبالاضافة إلى الدوافع الذاتية التي حدت بالشيخ خزعل إلى الاقدام على ذلك ، كانت هناك دوافع سياسية خفية تعد رئيسة في تلك الأحداث . فالمعروف عن الشيخ مزعل أنه كان حذرا من المصالح البريطانية في الاحواز ـ لاسيما الملاحة في نهر كارون ـ وقد عارض المشروع إلا انه اخفق في إقناع بريطانيا بتركه ، فظلت بريطانيا تنظر إليه بعين القلق والريبة ، وجاءت الفرصة عندما عرض الشيخ خزعل على بريطانيا ما ينوي الاقدام عليه ، واكد لها التزامه لصالحها فشجعته على ذلك . ويذكر تقرير بريطاني بهذا الشأن :

«عندما نال الرئاسة ، حافظ على وعده بكل دقة وأمانة ، وقد أصبح من اوفى الأوفياء .... ومنذ ان تولى المشيخة لم تبد منه مخالفة لنا ، وإنما امن بكل استشاراتنا ، وقبل جميع نصائحنا ، ونفذ جميع مطالبنا ، دون ان يسبب لنا إزعاجا او نكالا ، وقد نال اللقب السامي (وسام نجمة الهند)» .

وعلى إثر توليه الامارة ، منحه مظفر الدين شاه (١٨٩٦ ـ ١٩٠٦) القاب اخيه ، واضاف إليه لقب «سردار ارفع وسردار اقدس» ، كما نال وسام «امير تومان وامير نويان» وارسل له من طهران هدايا البلاط ، من بينها «وسام تمثال همايون» ، كما جرت التقاليد على ذلك منذ حكم ابيه الحاج جابر .

لقد اطنب الذين كتبوا عن شخصية الشيخ خزعل ، فكانت نظراتهم إليه وإلى اعماله متباينة متضاربة ، فأصحاب الحركة الادبية ـ ممن استفادوا منه ـ يضفون عليه من النعوت والألقاب ما سما به فوق مراتب العباقرة من الحكام ، فهو عند عبدالمسيح انطاكي : «بشوش الثغر ، طلق المحيا ، ذو نظر جذاب ، فيصبح اللهجة ، وديع يؤانس ضيوفه ، شريف العواطف ذو سماحة وطلاقة ، حليم عند القدرة ، شفوق على اللائذين ، تقي ورع ، مسلم صادق بدينه يصلي الأوقات

الخمسة ، بطل باسل عند اشتباك الحروب» . ويصفه أخر : «عالم وهو النصير الأكبر للعلماء والشعراء ، شاعر كبير له قصائد ومقطوعات من الشعر» . وقد وجده سليمان فيضي ـ معتمد الامارة ـ :

«طيبا كريما ميالا إلى المرح والمزح ، ينظر إلى الحياة نظرة متفائل ، وكان يعيش في قصره الفخم محاطا بكل مظاهر العز والسلطان ، غارقا في جو من الترف والبذخ . ومن الكتاب من حمله مسؤولية ابتزاز الأموال دون وجه حق ، وارهق شعبه وقسا عليه وابتذل اللهو وافرط فيه أضاع سلطان العرب في الاحواز ويقف الريحاني ـ المؤرخ المعاصر ـ بين الطرفين ، فهو يقرر فضل الشيخ خزعل ، ثم ينحو عليه باللائمة في الوقت نفسه . فيذكر : «انه غني حكيم كريم يساعد في بناء كنيسة في بلاده لمنكوبي الكلدان ، ويساعد في تأسيس محفل للماسون ، ، ويفتح خزانته لراقصة او مغنية كما يفتحها لأولي البر والاحسان من الطوائف كلها جمعاء ... إذا ناواه أحد مشايخ القبائل وهم بالخروج عليه ، وكانت له بنت صالحة للنكاح يزوره السردار اقدس ويشرفه بالمصاهرة فتخمد في الحال جذوة التمرد والعصيان ، وهو لا يزال على سنه التي تجاوزت الستين اهلا لمثل هذه المهمات . أما محسن الأمين فيذكر أنه «قد بلغت حال هذا الأمير زيادة عما كان عليه أبوه واخوه ... فجمع الأموال وبنى القصور وأكثر من الحشم والخدم» . أما المؤرخون الانجليز فينظرون إليه على أنه صديق حميم لهم ، فيذكر السير أرنولد ولسن ـ وكان ملازما لفترة حكمه ـ : «في أي مكان اقصد في جنوب إيران اقابل كلمة الشيخ خزعل كنموذج رائع للرياسة القبلية التي ساهمت في معاونة المشروع البريطاني وتسلم ثمار عمله» . ويبدو لنا من توافرنا على دراسة هذا الأمير أنه كان متمتعا بقدر كبير من المزايا والصفات التي جعلت منه شخصية متنفذة وقد «تبوأ مكانة ممتازة طوال سنوات عديدة» طغت على الكثير من رجالات ساحل الخليج العربي ، فكان واحدا من أشهر الذين عرفهم الخليج في تاريخه

الحديث ، «وقد عرف بالقوة والصلابة ، كما عرف باطلاعه الواسع على شؤون الخليج العربي وإيران والعراق ونجد» . وقد استطاع بقوة شخصيته أن يقضي على المقاومة التي تعرض لها إثر توليه الحكم من افراد اسرته ومؤيديهم ، وكادوا يطيحون بحكمه أخذا بالثأر وانتقاما لاغتيال شيخهم السابق ـ مزعل ـ ، فاتفق سنة ١٩٠٠ كل من الشيخ عبود بن الشيخ عيسى ـ ابن اخيه وحاكم الأحواز في عهد الشيخ مزعل ـ ، وغضبان بن الشيخ سلمان ابن أخيه الآخر ، مع الشيخ وادي ـ رئيس قبيلة الدريس ـ ، والشيخ سلطان ، والشيخ داود ـ رئيس قبيلة مقدم من كعب ـ على مقتل الشيخ خزعل وانتزاع الحكم من يده ، وإسناده إلى الشيخ عبود ، ولكن الشيخ خزعل كشف مؤامراتهم والقى القبض عليهم فمثل بهم . ثم التفت إلى قبائل الاحواز فمد سلطانه على رقعة الامارة كلها ، فاضطرت قبيلة النصار الساكنة في القصبة إلى الجلاء عن اراضيها سنة ١٩٠٣ ، بعد تمردها عليه وامتناعها عن أداء الرسوم إليه ـ وكانت قد تمردت على ابيه واخيه من قبل ـ والنزوح إلى الكويت ـ بشفاعة من صديقه الشيخ مبارك الصباح ـ فأناب عنه لادارة شؤون منطقتهم الحاج سلطان الحبشي ـ أحد اتباعه ـ ثم اتجه إلى الحويزة فأخمد تمرد بني طرف ـ التي استغلت مقتل الشيخ مزعل ـ وقضى على نفوذهم ، واستطاع أن يحقق نصرا حاسما عليهم سنة ١٩٠٨ ، بعد أن اعتقل زعماءهم ، كما انهى حكم المشايخ من بني كعب في الفلاحية ـ كما سنرى ـ ، وهكذا «اعترفت جميع القبائل العربية الساكنة على ضفتي الكارون من تستر إلى مصبه قرب المحمرة ، بسيادته ـ بما في ذلك المناطق الواقعة إلى الشرق من دجلة وشط العرب كما انه التفت إلى حدود إمارته من الشمال حيث قبائل البختارية ـ وكانوا نافذي الكلمة في فارس بعد إعلان الدستور ـ ، وقد تعرضوا ـ في أواخر سنة ١٩١٠ ـ لتستر ـ

إحدى مدن الامارة ـ ، فاستطاع ان يصدهم عنها واضطرهم إلى الانسحاب .

وقد عرف عن الشيخ خزعل علاقته الوطيدة مع شيوخ العرب والمتنفذين من الشخصيات المجاورين لامارته . كما أنه حسن صلاته مع بلاد فارس «فكسب احترام وحب اكابر رجالها ونال بذلك أعظم أوسمتها والقابها» .

وقد عرف كيف يحقق للاحواز استقلالها الداخلي والخارجي ، إذ يذكر رضا شاه أنه : «كان اميرا مستقلا داخل حدوده ... ليس لحكومة طهران أي سلطان عليه ... وقد مضت عليه أعوام دون ان يدفع اية ضريبة للدولة .. غير أنه كان احيانا يرسل بعض الهدايا إلى شاه إيران شخصيا» ، باعتباره «يتبع طهران شكلا» . وهو من ناحية أخرى كان يرى «أن الوقت قد حان لزوال إمبراطورية آل قاجار ، ولذلك حزم أمره على إعلان استقلاله للعالم الخارجي متى ما شعر بالخطر يحدق بايران» ، ومن أجل هذا فكر في تقوية علاقاته مع الانجليز ليضمنوا له الاستقلال المنشود ، ولذا فإن فترة حكمه تمثل تغييرا جذريا في سياسة المحمرة مع الموظفين الانجليز في الخليج العربي ، فقد زالت تلك المعارضة التي صرح بها أبوه وأخوه منذ فتح نهر كارون للملاحة النهرية ، ولقيت الشركة البريطانية مساعدات قيمة من حكومته . وقد أخذت السفن البريطانية المارة في شط العرب أمام قصره تطلق له مدافع التحية اعترافا بالصلات الوطيدة معه .

أما علاقاته مع الأتراك ، فقد اختلفت باختلاف الولاة في العراق ، إلا أن الطابع الغالب عليها كان الشدة ، حتى تهيبه الولاة فمالأوه .

وهكذا حقق الشيخ خزعل ـ الذي امتدت إمارته اكثر من ربع قرن ـ لنفسه مكانة دولية مرموقة ، وقد حصل على أوسمة كثيرة من ملك بريطانيا ، وسلطان تركيا ، وشاه فارس ، والبابا في روما وغيرهم ، كان يحملها على صدره إذا لبس ثوبه الرسمي .

السياسة الداخلية للامارة

طبيعة الحكم :

يسير نظام الحكم في الاحواز على أساس وراثي – لاعلاقة له بالانتخاب – ، وهو يستمد أصوله من العرف والتقاليد القبلية التي ترجع في أصولها إلى أيام الكعبيين ، والتي تبلورت على يد الحاج جابر وابنه الشيخ مزعل . ويمثل شيخ المحمرة في إمارته أعلى سلطة تنفيذية ، فهو الحاكم المطلق فيها – ولم يكن لأحد الحقّ في معارضته أو الاشراف على شؤون حكمه – ويطلق لقب «الشيخ» على «الأمير» ، باعتبار ان سلطته مزدوجة ، فيجب أن يكون شيخا لقبائل الامارة قبل ان يكون اميرا او حاكما عليها ، لانه يستمد قوته من تلك العصبية القبلية لعشائر إمارته ، وقد ازدهرت صفة الحكم في الاحواز أيام الشيخ خزعل ، وحاول منذ تسلمه مقاليد الحكم سنة ١٨٩٧ أن يضفي عليه نوعا من الاستقرار والاستقلال ، فكان المسؤول عن امن الامارة وادارة شؤونها الداخلية ، له جميع وارداتها وعليه جميع مصروفاتها ، وحاول التخلص من تلك التبعية الفارسية – التي فرضتها على إمارته معاهدة أرضروم الثانية سنة ١٨٤٧ – بالرغم من كونها إسمية ، التي كانت تهدد استقلال إمارته الخارجي .

وكان يساعد الشيخ خزعل في شؤون إمارته الحاج رئيس التجار محمد على البهبهاني ، وهو شيخ التجار والشخصية القوية في الامارة ، هو بمثابة وزير الشيخ خزعل الخاص الذي يستشيره في جميع أموره الخاصة والعامة ، والى جانبه كان هناك الكثير من الشخصيات المتنفذة في الامارة ، تساعد في تسيير دفة الحكم ، منهم : الميرزا حمزة جواد الشريفي – مسؤولا عن شؤون عشائر الشيخ خزعل في العراق (لاسيما في البصرة) – ، وسليمان فيضي – معتمدا لمراسلات الشيوخ والملوك العرب – ، وأبو الحسن مشير تجار الأحواز (وهو

النجل الاكبر للحاج رئيس التجار) ـ للشؤون الفارسية ـ، وعبد الصمد حمزة ـ للشؤون العشائرية في المحمرة ـ وغيرهم .

واتجاه الحكم في الاحواز كانت تغلب عليه المركزية، التي كان على راسها الشيخ خزعل، ويمثله في جميع مقاطعات ومدن الامارة ممثلون من قبله، يمارسون الحكم باسمه لحفظ الأمن، وإدارة شؤون الاحكام وفصل القضايا والخصومات . وكان جل اعتماده على انجاله الكثيرين، فعهد إليهم في إدارة شؤون الاقاليم، واختار ابنه الأكبر الشيخ حاسب وليا للعهد سنة ١٩٠٤، وعينه حاكما للمحمرة سنة ١٩٠٦ وبقي فيها حتى سنة ١٩٢١ إذ نحاه عن ولاية العهد لخلاف وقع بينهما، وعهد بها إلى ابنه الآخر الشيخ عبدالحميد ـ حاكم الاحواز ـ، وقد بقى فيها حتى أسر أبوه، وعين ابنه الشيخ عبدالمجيد حاكما على الفلاحية، فالمحمرة، ثم ابدله بابنه الآخر الشيخ عبدالله ـ حاكم الهديجان ـ وبقي فيها حتى نهاية حكم ابيه، إذ خلفه في الامارة بعد أسره سنة ١٩٢٥ . اما ولده الشيخ عبدالكريم فقد كان مرافقا لأبيه .

اما الاحكام في الاحواز، فكانت تجرى وفقا للعرف والتقاليد، وكان يمارسها الشيخ خزعل وممثلوه طبقا للطريقة القبلية، والقضايا الكبرى كان الشيخ وحده هو الذي يقضي بها . اما القضايا الصغيرة فكان ينظر فيها حكام الاقاليم وكان الفصل في القضايا الشرعية يعهد بها الى الشيوخ من علماء النجف وكربلاد الذين قدموا الى الامارة لهذه الغاية .

والمعروف عن الشيخ خزعل انه كان صلبا في الاحكام الجنائية، صارما في اتخاذ التدابير الرادعة «شديد المراس لا يجرؤ .. احد ان يخالف إوامره، وكان لاسلوبه هذا اثر كبير «في إبعاد اي نوع من الفوضى والسرقة عن جنوب إيران والتي انتشرت في كل مكان من البلاد» .

الشؤون الداخلية

تمثل المحمرة «قاعدة الامارة»، وكانت مقسمة الى ثلاثة اقسام هي : المحمرة والفيلية والخزعلية ـ وقد خصها الشيخ خزعل باهتمامه، باعتبارها مقر حكمه ـ فأما المحمرة فهي مركز دار الحكومة، وسراي حاكم المدينة، ودائرة الكمارك، ودار المعتمد الفارسي ـ ووجوده في الاحواز بصفة قومسير فوق العادة للشؤون التجارية، ولا عمل له، يقيم في المحمرة، والغرض من وجوده رمزي لاعلان السيادة الفارسية (كما قضى بذلك مرسوم سنة ١٨٥٧ الملكي) ـ، وقد جدد الشيخ خزعل بناء المحمرة، وشيد فيها اسواقا ـ كان يتقاظى اجورا خاصة عنها ـ وشق فيها الشارع الخزعلي، وكان فيها مجلس بلدي يتولى أمر العناية بنظافة المدينة وتنوريها ليلا وبعد الحرب العالمية الاولى، تألفت دائرة للشرطة في كل من المحمرة والاحواز يشرف عليها احد الضباط الاتراك المتقاعدين، ولهم بزة خاصة .

اما الفيلية، فهي أصغر من المحمرة، وهي مقر سكنى الشيخ خزعل وحاشيته، حيث القصر الخزعلي (الكمالية)، الذي شيد على ضفاف شط العرب الشرقية، والذي شهد ندوات الأدب، وفيها دار الضيافة التي شيدها الشيخ خزعل لضيوفه، وقد كان الشيخ «معجبا بالمدنية الغربية وبرجالها، فحاول أن يدخل بعض مظاهرها، فادخل القوة الكهربائية سنة ١٩١١ في قصره ـ وكان قد ابتاع مولدة من الشيخ سالم المبارك

، وهناك ثكنات الحرس الخزعلي ـ وهم ثلة من العبيد كبيرهم عبود العبدالله ـ والغلمان ـ مهمتهم حراسة الشيخ خزعل والمحافظة على ممتلكاته، والى جانب ذلك هناك فرقة موسيقية لعزف النشيد الخزعلي كل مساء وفي المناسبات .

أما الخزعليه ، فقد شيدها الشيخ خزعل سنة ١٩٠٨ بين المحمرة والفيلية على ترعة تصل نهر كارون بشط العرب ، وقد بنى الشيخ خزعل قصرا له فيها ، كما شيد أعيان المدينة بيوتهم فيها .

اما عن نظام الجيش في عربستان ، فالذي نستطيع أن نؤكده انه لم يكن في عربستان جيش نظامي مدرب ، وإنما كانت عدته تتكون من افراد العشائر القادرين على حمل السلاح (بين مشاة وفرسان) — والذين كانوا يستنفرون في حالات الحروب جريا على عادة العرب — وكان رؤساء العشائر بمثابة القواد لهذا الجيش ، ويمثل الشيخ خزعل القائد العام لجيش الامارة ، واشهر من برز في حروب الشيخ خزعل ، ابن أخيه الشيخ حنظل — حاكم الاحواز — ، وكانت إلى جانب أفراد العشائر فرقة المدفعية (الطوبجية) التي تشترك في حروب الامارة ، ويبلغ عدد العرب المسلمين في الامارة ٤٠ الفا ، كان جل اعتماد الشيخ خزعل عليهم في بسط نفوذه وعلاقاته وقضائه . على حركات التمرد بين الحين والآخر ، فعندما تتعرض الامارة لإضطراب داخلي أو خطر خارجي ، كان الشيخ خزعل يطلب إلى شيوخ القبائل إمداده بما يلزم من القوات لصد تلك الخطر ، فيجتمع افرادها بالسلاح الذي تدربوا عليه ، وقد اثبتت المعارك بأن قوات الشيخ خزعل كانت قادرة على أن تقوم بمهمتها خير قيام .

اما الواردات العامة للامارة — وكانت بجملتها تحت تصرف الشيخ خزعل — فكانت مصادرها مختلفة ، وتشكل الموارد الزراعية موردا ماليا رئيسا ، فالمعروف عن الاحواز انها بلد زراعي ، وتعد الزراعة فيها الحرفة الرئيسية الاولى لسكانها — وصار دخلهم يعتمد عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة — نظرا لطبيعة تكوين أرضها الرسوبية الغنية بمواردها المائية ، إذ يمر فيها كل من نهري كارون والكرخة ، وعديد من روافدهما ، ومع هذا فان مستوى إنتاج الغلة يعتبر واطئا من حيث الكمية والنوعية ، ويرجع هذا الهبوط في الانتاج إلى تاخر

أسلوب الزراعة . ولما كان الاقليم امتدادا طبيعيا لسهول وادي الرافدين ، فان غلاته تشابهت معه ، واشهرها النخيل — تتركز زراعته في القسم الجنوبي من الاحواز وبخاصة بين المحمرة وعبادان والفلاحية — ، والحبوب كالحنطة والشعير — تتركز زراعتهما على ضفاف نهر كارون — ، والرز — الذي اشتهرت الاحواز به منذ القديم ، وتنتشر زارعته في اهوار الاقليم لا سيما جهاته الغربية في الحويزة — والقطن وقد اهتم الشيخ خزعل بإدخال زراعته ، وأجريت تجارب على القطن المصري ، فجاءت التجربة بنتيجة حسنة ، وغير ذلك من المحاصيل الزراعية .

وكانت جباية الضرائب على الزراعة تختلف من منطقة لأخرى ، والرسوم تؤخذ إما نقدا او عينا بطريقة الالتزام من قبل ضامن للأرض او الحاصل ، او من قبل رؤساء العشائر كل في منطقته ، اما ممتلكات الشيخ خزعل الخاصة — ولهُ في البصرة منها الكثير — من النخيل والاراضي التي لا يضاهيه احد فيها ، فكانت موردا غنيا ثابتا له .

وإلى جانب الواردات الزراعية كانت هناك واردات الضرائب المفروضة على جميع المنافع العامة في الامارة ، فكانت هناك ضرائب على الاسواق والجوانيت وضرائب على البضائع والسلع والغلة وغيرها من الضرائب الاخرى الكثيرة — كضريبة الملح والقصابية والحمالية وغيرها — وكانت تعطى جبايتها ، كل على انفراد ، لاشخاص ضامنين بطريقة الالتزام .

وتشكل واردات الكمارك موردا آخر من الواردات العامة للامارة ، فالمعروف ان المحمرة ميناء تجاري مهم ، مكنها موقعها من السيطرة على منافذ شط العرب والخليج ، فكانت سببا في ازدهار التجارة في الاحواز ، والثابت عن الشيخ خزعل أنه ورث ثروة طائلة من عائلة هيات له المساهمة في مشاريع تجارية مربحة ، وقد كان يمتلك أكثر من ثلاث سفن تجارية كبيرة إلى جانب عدد كبير من الزوارق الصغيرة ،

وكانت معظم السفن التجارية ترسو في المحمرة لتفرغ حمولتها او تشحن الصادرات ، وتفرض عادة عليها ضرائب ورسوم كمركية ، ويختلف تقدير هذه الضرائب والرسوم ، فتقدر بعض الرسوم على البالة وبعضها على الوزن أو الأطوال ، ولم تكن الضرائب ثابتة في جميع الأصناف ، فهي تختلف من بضاعة لأخرى . وقد كانت عائلة الشيخ خزعل مسؤولة عن جمع الكمارك والضرائب من سكان المنطقة منذ سنة ١٨٣٠ . وبلغ مجموع هذه الضرائب اكثر من ٤٠ الف باون استرليني سنويا في اثناء حكم الشيخ خزعل ، وكانت إدارة الجمارك تحت إشراف بلجيكي روسي منذ سنة ١٩٠٢ . وقد قضى المرسوم الملكي لسنة ١٨٥٧ ـ الذي أصدره ناصر الدين شاه معترفا بامارة الحاج جابر ـ «أن تبقى الكمارك تحت إدارة الدولة الفارسية ويديرها أمير المحمرة نيابة عنها» . لهذا فان الشيخ خزعل كان هو الملتزم ـ كما جاء في المرسوم ـ للكمارك (ويمثله فيها وزيره الحاج رئيس التجار) ، وكانت الواردات تجبى له ، إلا انه قلما كان يؤدي إلى حكومة طهران حسابا .

وإضافة إلى جميع هذه الواردات كانت هناك الواردات التي تجبى على المواصلات النهرية ـ ضريبة المرور ـ لاسيما على السفن التجارية في نهر كارون .

وكان هناك ما يتقاضاه الشيخ خزعل من شركة النفط التي تدفع له سنويا ٦٥٠ جنيها عن مرور انابيب النفط في اراضيه ، ومعمل التكرير في عبادان .

أما بشأن الحياة الثقافية في الامارة ، فالمعروف عن الشيخ خزعل رعايته للشعراء والأدباء الذين كانت تؤمه افواجهم من كل حدب ، فكانت تعقد في ديوانه ندواتهم ، يتغنون بكرمه ويبالغون في مدحه فينالون هباته ، وقد خصص للكثيرين منهم رواتب خاصة ، ومن ابرز شعراء عصره الذين مدحوه ونالوا الحظوة عنده الشاعر العراقي

معروف الرصافي ، والسيد جعفر الحلي ، والشيخ محمد رضا الشبيبي . والشيخ عبدالكريم الجزائري ، والأديب عبدالمسيح انطاكي ، والشيخ عبداللطيف الجزائري ، وغيرهم كثيرون .

وقد شجع الشيخ خزعل التعليم في الأحواز ورعاه بنفسه ، فنشر الكتاتيب في مختلف المدن وجاء بعلماء من النجف لهذا الغرض ، ويروى انطاكي : انه كان في المحمرة وحدها عشرة كتاتيب كانت تدرس فيها مباديء العلوم الأولية إلى جانب القران الكريم واللغة العربية ، ثم تطورت فادخل عليها تدريس اللغات والعلوم الاجتماعية ، ومن مظاهر اهتمام الشيخ خزعل بالتعليم انه ارسل اولاده إلى إحدى المدارس الاجنبية في البصرة لتلقى الدروس الحديثة فيها .

القبائل العربية :

لقد كانت سهول الاحواز ـ كسهول وادي الرافدين ـ محط انظار القبائل العربية النازحة من شبه جزيرة العرب ، وتمثل قبيلة بني حنظلة اقدم تلك القبائل التي استقرت في الاحواز قبل الفتح الاسلامي ، ثم توالت عليها الهجرات بعد الفتح ، فاستقروا على ضفاف شط العرب ونهر كارون ، متخذين الزراعة مهنة لهم . ولكن هذا التحول من البداوة إلى الاستقرار لم يشمل القبائل كلها ، فقد بقيت بعضها محافظة على بداوتها التي كانت تحياها في موطنها الاول ، لاسيما تلك التي استقرت على أطراف الامارة . ولقد تعددت القبائل العربية المهاجرة إلى الاحواز وكثرت افخاذها حتى صار العرب يؤلفون الاكثرية الساحقة في المنطقة ، إذ بلغوا ٩٥٪ من السكان إلى جانب اقلية فارسية ومندائية وغيرهما . والظاهرة الاجتماعية التي تسترعى الانتباه في الاقليم هي : انه ليس ثمة عشيرة فيها إلا ولها اصل في العراق ، واغلبهم على مذهب الشيعة . وتمثل قبائل كعب النازحة من

العراق إلى قبان ـ ثم الفلاحية (الدورق) ـ اهم القبائل العربية في عربستان على الاطلاق ، فقد انتشرت هذه القبيلة الضخمة في الأطراف السفلى من مصب نهر كارون ، واستقرت في القسم الجنوبي الغربي من المنطقة وتمسك بعضهم بطابعهم البدوي ، في حين مال اخرون إلى الاستقرار ، وقد كان لهذه القبيلة ـ كما مر بنا ـ اثر كبير في تطور الحياة السياسية للاقليم لا سيما في القرن الثامن عشر .

واهم تفرعاتها : البوغبيش ، الدريس ، الحنافرة ، النصار ، كعب الدبيس وغيرها . كما اتفقت بعض من اقسامها على ان تحقن الدماء ، وان توحد الرياسة في البوكاسب فأطلق عليها اسم (المحيسن) ، والحقيقة ان دخول هذه القبائل في قيادة موحدة كان من عوامل قوتها ، حتى استطاعت ان تحكم الاحواز ردحا من الزمن ، وقد بلغت اوج ازدهارها السياسي ايام حكم الشيخ خزعل ـ شيخها الاكبر ـ ، واصبحت هذه العشائر المتكتلة تضم : الهلالات ، البوفرحان ، الدوالم ، البغلانية ، بيت غانم ، كنعان ، البومعرف ، العيدان ، الخواجة ، أهل العريض ، البجاجرة ، الزويدات ، بيت حاج فيصل ، العطب .

وبينما كان بنو كعب يسودون سقي كارون ، كانت عشائر بني طرف تسود أقصى الشرق ، إذ استقرت في الخفاجية والحويزة ، على حدود محافظة ميسان ، وهم بطن من طي قدموا عربستان ، وسكنوا إلى جوار بني سالة ـ إحدى قبائل المنطقة ـ ، ثم انتقلوا إلى الخفاجية ، وكانت لهم حروب مع جيرانهم من القبائل الاخرى . وصلاتهم متينة مع عشائر العمارة ، وقد انقسموا إلى بيتين ، وعلاقة الشيخ خزعل بشيوخهما كانت في حدود مصلحته السياسية ، ونشب صراع عنيف بينه وبينهم كانت الغلبة فيه له واستطاع ان يخضعهم ، وأن يكون معهم علاقات حسنة .

ومن القبائل المهمة في الاحواز البادية ، واصلهم من ربيعة ، وهم يسكنون شرق نهر كارون ، وسبق ان عجزت فارس عن إخضاعها

لسيطرتها ، ففرضت أمرها للحاج جابر ، الذي تزوج من ابنة شيخها طلال واولدها الشيخ خزعل ـ كما مر بنا ـ ولهذه القبيلة فروع عديدة في العراق .

وهناك قبائل اخرى كثيرة اهمها : بنو مالك ، المياح ، الكطارنة ، بنو تميم ، الموالى ، وهم المشعشعون .

علاقات الشيخ خزعل العربية

١ ـ صلات الشيخ خزعل بالكويت ونجد :

إن تاريخ العلاقات بين الاحواز والكويت لم يكن وليد عصر الشيخ خزعل والشيخ مبارك ، وإنما تمتد جذوره إلى أبعد من هذا التاريخ ، ويمكننا أن نقسم العلاقات الكويتية ـ الاحوازية إلى قسمين رئيسين متباينين :

الأول : شهدت الأحواز فيه صراعا عنيفا مع الكويت ، بدأت بوادره منذ وقعة الزيارة سنة ١٧٨٢ ـ والتي تكبدت فيها كعب بعض الخسائر ثم تبلور هذا الصراع في موقعة الرقة سنة ١٧٨٣ ـ في وقت طمحت فيه أنظار كعب إلى الكويت ، وودوا امتلاكها قبل أن تبلغ أشدها ، فقصدوها بأسطول ضخم ، إلا أن فلوله ردت على أعقابها إلى الفلاحية مندحرة .

وبقيت العلاقة متوترة بينهما ، وقد مر بنا كيف أن الشيخ جابر الصباح (١٨١٤ ـ ١٨٥٩) قد ساهم مساهمة فعالة في مساعدة متسلم البصرة عزيز اغا في حربه مع كعب سنة ١٨٢٧ ، وشن هجوما عنيفا بأسطوله البحري على البريم «عبادان» ، فاستطاع أن يوقع الهزيمة بهم ، ويخرج الجيش الكعبي منها مضطرا للالتحاق بأتباعه في المحمرة ، واستولى الكويتيون على جميع تمور المنطقة ، ولم تخرج جيوشهم منها إلا بعد أن عقد صلح بين بني كعب وداود باشا ـ والي بغداد ـ ، فرجع الشيخ جابر بسفنه إلى الكويت .

ولكنها كانت هدنة لم يطل امدها ، فقد عاد الشيخ جابر سنة ١٨٣٧ بسفنه ورجاله واسلحته ، منتصرا لعلي رضا باشا اللاز ، واستطاع معه ان يدكا حصن المحمرة ويدمر الفلاحية وينسحبا إلى الكويت .

وإلى هنا يسدل الستار على العلاقات المتأزمة بين الطرفين ، ليحل بدلها فصل جديد اكثر صفاء وتفاهما ، وذلك على أثر ازدهار إمارة المحمرة ، وظهور كيانها السياسي ، وتمكن رئيسها الحاج جابر المرداو من بسط نفوذه على ربوعها . فنلاحظ أن الشيخ عبدالله الثاني الصباح (١٨٦٦ ـ ١٨٩٢) يقدم مساعداته الكاملة إلى الحاج جابر في حروبه مع قبيلة النصار ـ من بني كعب ـ سنة ١٨٦٨ ، إذ جهزه بعشرين سفينة شراعية مملوءة بالذخيرة والرجال ، فكافأه الحاج جابر على صنيعة هذا بسبعين كارة من التمر راتبا سنويا . ولما عادت قبيلة النصار إلى التمرد على الحاج جابر في السنة التالية (سنة ١٨٦٩) ، انزل بهم الشيخ عبدالله هزيمة نكراء ، واحتل حصونهم في القصبة ـ المقابلة للفاو ـ بعد ان نكثوا وعدا للشيخ عبدالله كان قد قطعه على نفسه امام الحاج جابر بتعهده له بدفع قبيلة النصار الرسوم ، وأداء الطاعة .

وقد نمت هذه العلاقة في عهد الشيخ مزعل ، الذي جعل من نفسه وسيطا لحسم النزاع بين الشيخ مبارك الصباح ـ الذي اغتال أخويه (محمدا وجراحا) ـ ، ويوسف الابراهيم ـ المطالب بثأرهما ـ وقد بذل الشيخ مزعل جهودا كبيرة لتقريب وجهات النظر ووضع شروط الصلح على ان يتم اجتماع المتنازعين في قصره بالفيلية ـ ولكن اغتياله حال دون ذلك .

والحقيقة أن الاقليمين لم يشهدا صلات أكثر متانة وعلاقات أوثق عرى ، مثل التي شهداها أيام حكم الشيخ خزعل والشيخ مبارك . ويرجع هذا التفاهم الكامل بينهما إلى أصول عديدة منه : الرابطة القومية والتفاعلات القبلية ـ من عرف وتقاليد وعادات ـ التي تربط

سكان الاقليمين العربيين ، ومنها : التشابه المصيري بينهما ، فكلا الاقليمين يعملان على الابتعاد عن التدخل العثماني في شؤونهما طمعا بالاستقلال ، ويلحان في طلب الحماية البريطانية درءا للتعديات الخارجية لاسيما أن الكويت مهددة من الوهابيين ونفوذ ابن الرشيد ـ في اكثر أوقاتها ـ ، والمحمرة مهددة باستمرار من الخطر الفارسي الجاثم على صدرها . ومنها : والتقاء مصالح الكويت والمحمرة في البصرة ـ حيث الممتلكات الواسعة والكثيرة لكلا الجانبين ـ والتي تحتم على الطرفين الاتفاق فيما بينهما لاتخاذ سياسة موحدة إزاء تجاوزات السلطات العثمانية ، والاتصال بالسيد طالب النقيب ـ الشخصية المتنفذة في البصرة ـ لتوليه امر حراستها والحفاظ عليها من عبث الشقاة ، ومصادرات الولاة المستمرة . ومنها : أوامر الصداقة الوثيقة بين الشيخ خزعل والشيخ مبارك ، والتي تمتد جذورها الى الفترة ما بين (١٨٩٢ ـ ١٨٩٥) عندما كانا يلتقيان في الفاو ، والقصبة ـ في الجهة المقابلة ـ مرسلين من اخويهما ، لاستثمار موارد النخيل ، وكانا مضطهدين ، وقد اتفقا على الانتقام ، وزادت الصلة متانة بينهما عند اعتلائها كرسي الحكم ، على اثر اغتيالهما اخويهما في وقت واحد ، لاسيما انهما يتشابهان في المزاج ، فقد عرف عنهما ولعهما بالترف والمتع والعبث ، فكانت الزيارات بينها لا تنقطع ، والمراسلات للتشاور في امورهما مستمرة . وقد بنى كل منهما للآخر قصرا في بلاده . والتزم كل منهما الآخر في بعض ازماتهما . والثابت : ان الشيخ خزعل كان عونا للشيخ مبارك في صراعه مع يوسف الابراهيم المناوىء لحكمه ، كما قدم له النصح والعون المادي في حروبه المستمرة مع اتباع الامير عبدالعزيز الرشيد من قبائل شمر ، ولاسيما بعد موقعة الصريف (الرخيمة) في ١٧ آذار سنة ١٩٠٠ ، وكانت له معه مراسلات عديدة ، كما انه ساعده في محنته بعد موقعة هدية سنة ١٩١٠ ـ التي اخفق

فيها مع سعدون باشا ، شيخ المنتفك ـ وخصص له تمر مقاطعة القصبة ، وبقيت له فترة طويلة .

والواقع أن الكويتيين قد جنوا ثمار هذه الصداقة ، اذ ان الطرق التجارية الى العراق وايران كانت تحت رحمة قطاع الطرق ، فلم تكن هناك سلطة قوية يخشونها ، وكان التجار الكويتيون يئنون من فضائع هؤلاء وعبثهم . ويعد مدخل شط العرب ـ حيث منطقة نفوذ الشيخ خزعل ـ من اشد المناطق خطرا على تجارتهم ، ولكن كل هذه المخاوف قد تبددت وزالت الاخطار عنهم عندما توثقت الصداقة بين الشيخ خزعل والشيخ مبارك . واضافة الى ذلك ان الشيخ خزعل منع مدير كمرك المحمرة ـ البلجيكي ـ من التعرض للبضائع العائدة للتجار الكويتيين ، كما تعهد بالا يأخذ من البضائع القادمة للشيخ مبارك الى ميناء المحمرة ضرائب او كمارك . وقد حاول الشيخ مبارك ان يرد الشيخ خزعل بعض جميله ، فلما قامت قبائل كعب على الشيخ خزعل ـ عند قيام الحرب العالمية الاولى ـ ثائرة مع قبائل المنطقة ، التي رأت في زوال دولة الخلافة العثمانية تقويضا «لاركان الدين الحنيف» ليحل محله نفوذ الاجنبي (الكافر) ، اراد الشيخ مبارك ـ الذي كان في ضيافة الشيخ خزعل ـ ان يمد يد العون لصديقه ، فطلب النجدات من ابنه في الكويت ، ويبدو أن الوازع الديني منعهم تلبية الطلب ، فلم يحظ منهم سوى بست سفن شراعية و ١٨٠ شخصا مسلحا ، بعد تهديد ووعيد .

وفي إبان الحرب العالمية الأولى ، كان هناك عامل مشترك فعال تحكم في العلاقات بين المحمرة والكويت ، وهو موقف الاميرين المتشابه في ممالأتهما للانكليز ، ومناوأتهما للاتراك ، فقد شهدت إمارتاهما طغيان النفوذ الانكليزي ، ومرابطة قواته البحرية على سواحلهما . واشترك الشيخ خزعل معهم في قمع حركات القبائل الثائرة في منطقته . واتخذت حكومة الكويت مخزنا للذخائر والسلاح ، لكن لم يقدر للشيخ مبارك ان يرى حصيلته في هذه الحرب ، إذ توفي في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩١٥

ليحل بدله ابنه الشيخ جابر ، فلم تستمر العلاقات بعدئذ بنفس درجات القوة التي كانت عليها أيام حكم الشيخ مبارك ، وامتازت علاقات الحرب وما بعدها بما كانت تمليه عليهما بريطانيا من وجهات النظر ، ولم يكن بوسعهما تعدى الحدود التي رسمت لهما .

وأميز ما حدث من اتصالات خلال فترة الحرب العالمية الأولى هو اجتماع الشيخ خزعل والشيخ جابر في مؤتمر عقد في الكويت في تشرين الثاني سنة ١٩١٦ حضره معهما ابن سعود أمير نجد ، وكثير من رؤساء العشائر الموالين للانكليز ، وكان هذا المؤتمر بإيعاز من السير برسى كوكس ـ كبير المقيمين السياسيين في الخليج العربي آنذاك ـ والقيت في هذا المؤتمر خطب الثناء على البريطانيين ، والهجوم على الاتراك . وقد وصف بأنه مظاهرة سياسية كبرى كان الغرض من عقده تطمين المجتمعين بحماية بريطانيا لهم ، وتقريب وجهات النظر بينهم ، ولكي يؤمن الانكليز بهم مؤخرة الجيش المقاتل في بلاد الرافدين ، لاسيما أنه قد وصلت تقارير عن محاولات تركية للاتصال بابن سعود والشيخ خزعل ، مما زاد في قلق الانكليز وجعلهم شديدي الحذر ، فأسرعوا في عقد المؤتمر . وبعد انفضاضه قصد الشيخ خزعل والأمير عبدالعزيز السعود البصرة ، بدعوة رسمية من سلطات الاحتلال البريطاني لزيارة مراكز قيادة الجيش البريطاني في الشعيبة . ويبدو للباحث أن الانكليز عمدوا إلى هذه الزيارة لاستئصال كل أثر للشك في نفسية الاميرين ، وإظهار عظمة جيوش بريطانيا امامهما ليكسبا كل ثقة واطمئنان بالقوات الجديدة .

ولدعم المؤتمرين برأي الشريف حسين ـ للمكانة التي كان يحتلها في نفوس المسلمين ـ ابلغه ممثل بريطانيا في القاهرة بوقائع المؤتمر ، فهنأهم على مقرراتهم ، وكان قد كتب له كل من الشيخ خزعل والشيخ جابر ـ بوساطة السير برسي كوكس ـ يوضحان له أن هدفهما من

حضورهما المؤتمر : «تقوية الأمة العربية والأمة الاسلامية ، والارتباط مع سيادته الطاهرة ، والدولة الفخيمة البريطانية» .

ومن هذه الاتصالات ـ حضور الشيخ خـزعل إلى الكويت للتخفيف من حدة الخلاف الناشب بين الشيخ سالم الصـباح (١٩١٧ ـ ١٩٢١) والمستر بيل ـ رئيس الخليج انذاك ـ بسبب الحصار البريطـاني الذي فرضه الانكليز حول الكويت في محاولة لمنع تسرب الغلال إلى الأتراك ، وقد عرف عن الشيخ سالم ـ منذ توليه الحـكم ـ ولاءه للأتراك وعداءه للسعوديين ـ ممـا ادى إلى قيام هؤلاء بحملة ضـخمة على الكويت ـ وكان غير ميال للانكليز واستطاع الشيخ خزعل أن يهـدىء مـن عنف الخلاف ، ويطلب إلى السير برسى كوكس في البصرة ـ في طـريق عودته إلى المحمرة ـ أن يحسن معاملة الشيخ سالم .

اما فترة ما بعد الحرب ، فمـن أبرز الاتصـالات فيهـا بين الشـيخ خزعل والشيخ سالم الصباح حضور الشيخ خزعل إلى الكويت في اذار سنة ١٩١٩ ليشارك في حفل تقليد الشيخ سـالم «وسـام نجمـة الهند» الذي منحته إياه بريطانيا ـ في محاولة لكسب ولائه ، وقلده له المسـتر بيل ـ رئيس الخليج ـ الذي أشـاد ـ في خـطاب ألقـاه بالمناسـبة ـ بصداقة حاكم الكويت وشيخ المحمـرة لحـكومة صـاحب الجـلالة البريطانية ، وبارك علاقة الشيخ خزعل بالشيخ سـالم ـ تلك العـلاقة التي نمت على عهد الشيخ مبارك ـ ، واظهر ارتياحه لحضور الشـيخ خزعل حفل التقليد هذا الذي قال عنه : إن الفرح يغمـره عندمـا يرى سعادة نجل صديقه القـديم مبتدئا هـكذا بنجـاح في نفس الطـريقة الشريفة» .

وكان موقف الشـيخ خـزعل في حـوادث الاخـوان على الكويت في حزيران سنة ١٩٢٠ موقفا مؤيداً للشيخ سالم ، فقد أرسل له خمسمائة بندقية ، مع مقدار كبير من العتاد ـ بوساطة معتمدة بالقصـبة الحـاج سلطان الحبشي ـ للاستعانة بها في محنته ، كما أنه حـاول اسـتعمال

حظوته عند ابن سعود ـ للتخفيف من حدة التوتر مع الشـيخ سـالم ـ وكانت تربطه به صلات طيبة وصداقة وطيدة ، يرجع عهدها إلى الأيام التي كان فيها الشيخ خـزعل يتردد على الكويت التي يقيم فيهـا ابن السعود مع والده ـ ليهيء استعادة حكم عائلته على الرياض .

وعندما تعرضت الكويت لزحف فيصل الدويش ، ألح الشيخ خـزعل على الشيخ سالم تجنب القتال ، وكتب له : «إياك مـن سـماع أقـوال المغرضين ، والوقوع في شراكهم ، فابتعد عن القتال مع فيصل الدويش قبل مراجعة ابن سعود والسعي لمرضاته فإنه خير لك من سـواه ، لانه عربي مثلك ، دمه دمك ولحمه لحمك ...» .

ثم إن الشيخ خزعل دخل في مفاوضات مسـتمرة مـع السـير برسي كوكس لانهاء الخلاف بين الكويت ونجد ـ الطـامعة بالكويت ـ ، ولكن السير برسى كوكس كانت تشـغله قضـايا ثورة العشرين في العـراق ، وتصفية اثارها والتمهيد لقيام النظام الملكي ، فخـول الشـيخ خـزعل ليمثل دور الوسيط بين المتنازعين العـربيين ، فـزار الشـيخ خـزعل الكويت في ٣٠ كانون الأول سنة ١٩٢٠ للتداول في أمر صـلاح الشـيخ سالم مع ابن سعود ، وتم الاتفاق على إرسال وفد مفـاوض يضـم في عضويته أحمد الجابر ، وجاسب الشيخ خـزعل ، وعبداللطيف المنديل ، وعبدالله النفيسي ، وعبدالعزيز السالم البدر . وقد وضع الشيخ خـزعل يخته الخاص تحت تصرف الوفد الذي غادر الكويت محملا بالهدايا في شباط سنة ١٩٢١ إلى البحرين ومنها إلى نجـد . ولكن قبل أن تنتهـى المفاوضات بنتيجة تذكر ، نعت الأنباء وفاة الشـيخ سـالم ، فتحـولت الانظار إلى الشيخ احمد ـ الأمير الجديد ـ الذي توصل مع ابن سعود إلى صلح مباشر بين البلدين ، وهكذا انتهت الأزمة .

أما علاقات الشيخ احمـد الصـباح (١٩٢١ ـ ١٩٥٠) ـ المعـروف بميله للانكليز ـ بالشيخ خزعل فكانت يشوبها بعض الحذر ، لاسيما في السنة الأخيرة من تقويض الحكم العربي في الاحواز ، فلم يلب له طلبا

بالسلاح ليستعين به على مضايقات رضا خان ، فاعتذر متذرعا بوجوب مراجعة الانكليز في الأمر ، وكان الشيخ خزعل انئذ في أمس الحاجة إلى مبارك جديد يلتزمه ويسانده في محنته ، ولكن الشيخ أحمد يختلف عن جده ، ولم يكن يجمعه بالشيخ خزعل سوى إعجابهما بالمدنية الغربية ورجالاتها .

٢ ـ الشيخ خزعل والعراق

لقد خضعت البصرة للسيطرة العثمانية منذ سنة ١٥٤٦ ، وكان غرض العثمانيين من فتحها ، مقاومة البرتغاليين في الخليج ومياه الهند ، وظلت البصرة ولاية عثمانية يحكمها متسلم باسم باشا بغداد حينا ومستقلا عنه احيانا كثيرة . وكان ذلك المتسلم لايستطيع الدفاع عن ولايته وتثبيت حكمه ونشر الأمن دون أن يستمد العون بانتظام من القبائل المحيطة بالبصرة ، وقد استمر هذا الوضع ـ لاسيما مع القبائل العربية في الاحواز ـ حتى بعد عقد معاهدة أرضروم الثانية سنة ١٨٤٧ ، وقد كانت بنودها اضعف من أن تحدد صلات البصرة بالأمارة التي فرضتها عوامل طبيعية وتاريخية اثرت تأثيرا كبيرا على متانة العلاقات بينهما ، فقد خضعتا إلى تأثيرات خارجية متشابهة لفترات تاريخية طويلة يكفي لأن تخلق علاقات اجتماعية وطيدة بين سكانها من الصعب تحديدها أو التخفيف منها . وقد حرص والي البصرة دائما على كسب صداقة شيخ المحمرة ، غير أنه لم يكن دائم التوفيق ، لاسيما في عهد الشيخ خزعل ، الذي كان له نفوذ عظيم في البصرة ، لسكنى قسم غير قليل من افخاذ عشائر المحيسن على طوال شواطيء شط العرب الغربية ، وكانت له صلات طيبة مع أهلها ، إذ ارتبط مع بعض الأسر البصرية بالمصاهرة ، لتقوية هذه الصلة ، إضافة إلى أملاكه الواسعة ـ التي قدرت بنحو نصف مليون ليرة عثمانية ـ وقد كان جميع كبار

الملاكين يعتمدون عليه ، ويحتمون به . وهكذا لعبت عشائر الشيخ خزعل دورا تقليديا في حياة الولاية السياسية ، وبقيت مصدر إزعاج مستمر لحكامها . اما سلطة الوالي فلا تكاد تخرج عن نطاق اسوار المدينة نفسها .

ويمكننا تقسيم العلاقة بين الشيخ خزعل وولاة البصرة ومتسلميها إلى فترتين متميزتين :

الاولى : قبل إعلان الدستور في الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨ ، وقد امتازت العلاقات بنفوذ كبير للشيخ خزعل في البصرة على الولاة وتسلط لا حدود له مستخفيا ـ في كثير من الاحيان ـ بالسيد طالب النقيب ـ الشخصية القوية ـ الذي دخل في صراع مع الأتراك ، وقام ببطولات أعطته اسما أسطوريا في جنوب العراق ، فكان مرهوب الجانب ، صعب القيادة يستمد نفوذه في هذه الفترة من أبي الهدى الصيادي الرفاعي ـ قريبه في النسب ـ (ذو النفوذ الواسع عند الباب العالي) ، وكان يبطش بخصومه دون رحمة ، ويحمي اتباعه . وقد جمع بسخائه وبطشه أعوانا كثيرين استغلهم لمصلحته ومضايقة ولاة البصرة الذين تعاقبوا على متسلميها ، فخشى الولاة بأسه ، ولبوا طلباته ، وقد استفاد الشيخ خزعل من نفوذه كثيرا ، وكانت تغلب على علاقتهما في هذه الفترة المصلحة الشخصية المتمثلة في المنافع المتبادلة ـ التي تكونت بفعل الجوار ـ والمصالح الذاتية . فللشيخ خزعل في البصرة أملاك واسعة واتباع كثيرون ، والادارة العثمانية اضعف من أن تحمي تلك الممتلكات ، فكان لابد له أن يبحث عن شخصية متنفذة قوية ليستعين بها لحماية مصالحه ، فوجد في شخص السيد طالب النقيب ضالته المنشودة ، فكسبه إليه وأغدق عليه وشمله بكرمه ، وخصص له راتبا بلغ خمسين ليرة عثمانية .

اما الفترة الثانية من العلاقات ، فهي التي بدأت بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ، وقد امتازت بتوتر واضح وصراع لم يهدأ بين الشيخ

خزعل ومؤيده السيد طالب النقيب ، وبين ولاة البصرة الذين توالوا على الحكم في هذه الفترة ، وسببه جنوح حزب الاتحاد والترقي الحاكم إلى السيطرة الفعلية على ولايات الامبراطورية في الخليج ، والقضاء على كل نفوذ محلي للعناصر غير التركية من شأنه ان يحدد سلطة الولاة في ولاياتهم . ولما كان نفوذ الشيخ خزعل والسيد طالب النقيب كبيرا في البصرة ، فمن الطبيعي أن تدور رحى صراع لا يمكن أن يخمد أواره مع سلطة الوالي العثماني ، كان من بعض نتائجه تعرض الشيخ خزعل إلى حملات صحفية عنيفة في جريدة طنين الاتحادية ، كتب مقالاتها إسماعيل حقي ـ ناظر المعارف ومبعوث الدولة العثمانية المعروف بشدة عدائه للعرب ـ بعد زيارة له للعراق ، ووقوفه على ذلك الصراع المستمر ، فكان يرى وجوب اتخاذ القوة الصارمة ضد القبائل العربية في الخليج ، وإرغام شيوخها بالقوة على إعلان ولائهم للدولة .

ومما زاد في توتر العلاقات في هذه الفترة ، أن السيد طالب النقيب تقلد زعامة المعارضة للاتحاديين في العراق بعد ثورة ١٠ تموز ١٩٠٨ ـ وكان قد أيدها بادىء الأمر باعتباره عضواً في جمعية الاتحاد والترقي ـ وأخذ على عاتقه مناهضتهم والعمل على طردهم من ولاية البصرة وبالتالي المطالبة باستقلالها ، فقد كان يمني نفسه بامارة عربية تشمل البصرة وما جاورها على غرار إمارة الشيخ خزعل في الأحواز . وقد تبلورت علاقة الشيخ خزعل معه الآن ولم تبق مجرد أطماع شخصية ، بل تعدتها إلى الصلات القومية والأماني العربية التي أخذ يفكر بها أمراء العرب في تلك الربوع ، بعد سياسة التتريك التي ضاقوا بها ذرعا ، وعملوا متحدين للتخلص من كابوسها ، وكان لهم فضل تقدم الحركة العربية في المنطقة . وقد شهدت كل من البصرة والمحمرة والكويت اجتماعات متوالية بين أمير المحمرة الشيخ خزعل ـ وتعد إمارته امتدادا طبيعيا للبصرة ـ وزعيم البصرة السيد طالب النقيب ـ المطالب بحكمها الذاتي ـ ، وغيرهم .

ومن أبرز هذه اللقاءات : الاجتماع الذي تم في أوائل آذار سنة ١٩٠٩ في قصر الشيخ خزعل بالفيلية ، والذي حضره الشيخ مبارك وسعدون باشا ، وجملة من رؤساء عشائر العمارة والقرنة ، كما حضره عبدالوهاب القرطاس ـ عضو مجلس إدارة لواء البصرة آنذاك ـ ، والسيد يوسف النقيب . وكان الغرض من ذلك الاجتماع التعاضد والتآزر فيما بين هؤلاء الزعماء ، وجمع كلمتهم للمطالبة بحقوقهم في ولاية البصرة . وقد اهتمت الدولة العثمانية بالأمر ، وعينت على الأثر في تشرين الثاني سنة ١٩٠٩ سليمان نظيف واليا على البصرة (١٩٠٩ ـ ١٩١٠) ، وامتاز هذا الوالي بالجرأة والشدة ولقب بـ (مدحت باشا الثاني) ، وأراد أن يضع ـ وهو الصلب ـ حداً لنفوذ كل من السيد طالب النقيب والشيخ خزعل في البصرة . ولكن الشيخ خزعل ـ بأساليبه المعروفة ـ عرف كيف يكسبه إلى جانبه ـ أول الأمر ـ ، فاطمأن له الوالي الجديد وأخذ يتردد عليه في قصره بالفيلية ، وانتمى الشيخ خزعل ومعه الشيخ مبارك ـ مرضاة له ـ إلى جمعية الاتحاد والترقي . ولكن لم يقدر لاجراءات الشيخ خزعل أن تدوم طويلا ، فسرعان ما شعر الوالي ان المهمة التي جاء من أجلها كادت تتلاشى ، فعقد العزم على مناهضة نفوذ الشيخ خزعل في البصرة ، واتهم كلا من الميرزا حمزة ـ وكيل الشيخ خزعل بالبصرة ـ ، والشيخ محمد الكنعان ـ صهر الشيخ خزعل وممثله في قرية كوت الزين ـ بالعبث في الأمور وإسنادهما أعمال الشقاة مستغلا انشغال الشيخ خزعل بالحد من تعديات قبيلة البختارية على حدوده الشمالية في أواخر سنة ١٩١٠ ، فاتصل بناظر الداخلية طلعت بك للاستئذان بإزالة كل أثر للقلاقل والاضطرابات في البصرة ، وأرسل تهديداً للشيخ خزعل لتسليمه أشخاصا نسب إليهم الفوضى ، منهم وكيلاه . فرد عليه الشيخ خزعل «إن ما سميتم من الأشقياء ليس عندي منهم سوى أربعة ، وهؤلاء شملهم العفو السلطاني العام ... ومع ذلك فأنا أسلمهم رعاية

للمودة الشخصية التي بيني وبينك . اما الميرزا حمزة فهو وإن يكن عثمانيا إلا انه مقيد بخدمة بيتنا منذ ثلاثين عاما واكثر ، وفوق ذلك فهو وكيلنا في البصرة ... وعلى هذا ارسلوا لنا ما تتهمونه به للنظر في امره . اما الشيخ محمد الكنعان فهو من مشايخ قبائلنا ومحاكمته عندنا ..» . وجرت مراسلات مملة بينهما ، وقد رفض الوالي طلبا للشيخ خزعل للحضور على ظهر سفينته بهمشير للتفاوض بالامر . ثم استغل سفره إلى الاحواز فقامت الباخرة العثمانية (مرمريس) بضرب قرية كوت الزين ، وهدد بضرب الفيلية والمحمرة ، ولكن سليمان نظيف لم تكن له الامكانات التي يستطيع بها إتمام ما بداه ، وسرعان ماوجد نفسه محاطا بثلاث قوى جعلته لا يستطيع ان يحرك ساكنا بعدئذ ، الأولى : تهديدات الشيخ خزعل ، الذي أثار اتباعه في البصرة فاحدثوا تمردا ضد الوالي ، والثانية : مضايقات السيد طالب مبعوث البصرة الذي كان يساند الشيخ خزعل في تهديداته ، والثالثة : تدخلات القنصل البريطاني في المحمرة ، الذي أرسل للوالي العثماني بأنه شريك في املاك الشيخ خزعل في البصرة ، وأن اي اعتداء عليها اعتداء على شخصه . وأمام هذه القوى خارت عزيمة الوالي فترك البصرة إلى العمارة ومنها إلى بغداد لمقابلة واليها ناظم باشا ، بعد ان أسند الولاية وكالة إلى سعاد بك متصرف نجد ، ومن هناك استجاب طلعت بك ناظر الداخلية للأمر الواقع ، ونحى سليمان نظيف عن ولاية البصرة الملتهبة بالفتن في ايلول سنة ١٩١٠ ، والذي لم ينجح في إحراز اي تقدم يذكر لصالح الاتراك بعد ولاية لم تزد على اربعة اشهر .

اما علاقة الشيخ خزعل بالولاة الذين خلفوه ، فلم تكن على ما يرام ، واستمرت اعمال الفوضى ضاربة اطنابها في الولاية ، وقد حاول الولاة مرارا توطيد علاقتهم بالشيخ خزعل فلم يوفقوا التوفيق كله .

ومما يلفت النظر آنئذ أن الحركة العربية في المنطقة كانت تسير بقوة ونشاط ، وكان الاتحاديون أعجز من مقاومة تاججها في النفوس

والقضاء على نفوذ أصحابها ، لا سيما أن السيد طالب النقيب قد أسس في ١٦ آب سنة ١٩١١ فرعا لحزب الحرية والائتلاف لمناوأة الاتحاديين يعضده فيه كل من الشيخ خزعل والشيخ مبارك . وقد انتخب عضوا في مجلس المبعوثين في الاستانة سنة ١٩١١ ، وبعد حل حزب الحرية والائتلاف أسس في ٢٨ شباط سنة ١٩١٣ جمعية البصرة الاصلاحية ، التي طالبت بالحكم الذاتي ، وروجت فكرة الاصلاح اللامركزي ، وذلك بتأليف مجالس محلية للولايات العربية ـ ومنها البصرة ـ ، لتعالج مشاكلها وشؤونها بنفسها . ومن أهم ما تمخضت عنه هذه الحركة في تلك المنطقة العربية هو اجتماع مؤتمر الفيلية الذي عقد في آذار سنة ١٩١٣ بين زعماء فم الخليج العربي الثلاثة ـ خزعل ومبارك وطالب ـ للتخطيط في مستقبل السياسة العربية في المنطقة بعد أن تردت العلاقات العربية ـ التركية وأنذرت بانفجار شديد ، وقرر المؤتمرون الاتفاق على التحالف فيما بينهم ، وتنسيق سياستهم . ويمكننا أن نعتبر تلك الاجتماعات برغم انها لم تكن لها صبغة رسمية ـ ، وهذا الاتفاق العربي ، محاولة اولى من نوعها للتجمع على أساس لا مركزي ـ فكر بها في تاريخ العرب الحديث . فلو قدر لهذا الاتحاد العربي أن يقف على قدميه لولدت إمارة في رأس الخليج العربي من أغنى دول الوطن العربي ـ بلا منازع ـ ولما خسر العرب بعدها الأحواز . وقد أحيط القوميون العرب ـ في بغداد وأستانبول وسورية ومصر ـ علما بقرارات المؤتمر ، وتعرضت الصحافة العثمانية لهذه الاجتماعات ، واتهمت المؤتمرين باضعاف نفوذ الدولة العثمانية في المنطقة ، وقد طلب السيد طالب النقيب من والي بغداد محمد زكي وقف الحملات الصحفية هذه ومنعها من التعرض له وللشيخ خزعل بالسوء . إلا أن الحقيقة التي يجب الا تغرب عن البال أن الحركة بقيت متجهة نحو الانقسام الذي كانت تحدده آفاق المصالح المحلية ، برغم وحدة الأهداف السياسية والآراء القومية والاتصالات المستمرة .

وقد تعرضت المنطقة إلى مضايقات الاتحاديين ، إزاء تلك السياسة القومية التي نهجها زعماء الامارات فيها ، ومناهضتهم لسياسة التتريك . والتزم كل من الشيخ خزعل والشيخ مبارك السيد طالب النقيب في درء الخطر الذي أخذ يهدد المنطقة . وقدما له العون المادي والأدبي ، وكانا من أهم المؤازرين له ، ومده الشيخ خزعل بالسلاح ، فأوعز السيد طالب ـ بما عرف عنه من الجرأة وحب المغامرة ـ إلى رجاله ان يقدموا في ٢٠ حزيران سنة ١٩١٣ على اغتيال فريد بك ـ قائد الجيش النظامي ـ ، وبديع نوري الحصري ـ متصرف المنتفك ـ اللذين ارسلا من قبل الاتحاديين للقضاء على نفوذه ، وكان رد الفعل لذلك الحادث : أن أرسل الفريق سليمان شفيق الكمالي واليا على البصرة للايقاع بالسيد طالب النقيب ، وزود ببعض القوات لهذا الغرض ، ولكن عرف الشيخ خزعل والسيد طالب والشيخ مبارك كيف يستميلونه لجانبهم ، واظهروا له من الكرم والسخاء واللهو ما اذهله وأنساه مهمته ، فكان رهنا لاشاراتهم في اليوم الثاني من وصوله إلى البصرة .

ولما كانت الأحوال في ترد مستمر ، والعلاقات بين العرب والاتحاديين تزداد نفورا يوما بعد آخر ، اقترح ـ في منتصف تشرين الثاني سنة ١٩١٣ ـ عقد مؤتمر آخر في الكويت في بداية عام ١٩١٤ للنظر في مستقبل الانسان العربي ، وحل مشاكله الناجمة عن مضايقات الأتراك ، وفي إمكانية قيام ثورة عربية ضدهم ، وإزاحة النير التركي عنهم . وقد وجهت الدعوات إلى الشريف حسين ، والأمير عبدالعزيز السعود ، والأمير سعود الرشيد ، والشيخ عجمي السعدون ، والشيخ مبارك الصباح ، والشيخ خزعل ، والسيد طالب النقيب . ولكن لم يكتب لهذا المؤتمر النجاح ، فقد وئد في المهد واعتذر إبن سعود عن حضوره بحجة عدم تأهبه للنهوض آنئذ ، وكان يرى أنه سينهض حينما يحين الوقت ، وعلى هذا تأجل انعقاده .

وبالنسبة للعلاقات بين الشيخ خزعل والوالي سليمان شفيق الكمالي ، فقد امتازت بالهدوء النسبي برغم أن الوالي هذا لا يقل جرأة وصلابة عن الوالي سلمان نظيف . ولكنه أخذ بسياسة الأمر الواقع ، وغض الطرف عن النشاط العربي في ولايته ـ الذي وجد تياره أقوى من أن يقف بوجهه . وقد حضر اجتماعا مع الشيخ خزعل والسيد طالب في البصرة ، للتداول في مقررات مؤتمر الصبحية المعقود في الكويت ـ في ايار ١٩١٤ ـ بين ابن سعود أمير نجد ، وبين الوفد التركي برئاسة السيد طالب النقيب حول موقف ابن سعود من الدولة العثمانية بعد احتلاله الاحساء ، والذي حال نشوب الحرب العالمية الأولى دون تنفيذه .

ولكن علاقة الملاينة سرعان ما انقلبت عندما تسلم صبحي بك متسلمية البصرة خلفا للوالي سليمان شفيق ، فاستغلها عجمي باشا السعدون ـ شيخ المنتفك ـ لعداوة قديمة بينه وبين السيد طالب ، فأرسل قواته بقيادة أخيه حمد للقضاء على نفوذ السيد طالب ـ الذي كان يوم ذاك في الكويت ، وما أن سمع النبأ حتى أسرع إلى الشيخ خزعل وهدد من هناك وكيل الوالي صبحي بك بثورة لا تحمد عقباها إذ لم يوعز لقوات حمد بالرحيل عن أطراف البصرة : فاضطر الوالي أن يستجيب لطلبه . وآخر صفحة تذكر للعلاقة بين الشيخ خزعل والسيد طالب النقيب كانت عند نشوب الحرب العالمية الأولى ، وتهيؤ الانكليز لانزال قواتهم في البصرة ، التي غادرها القنصل البريطاني إلى المحمرة ، ومن هناك بعث برسالة سرية للسيد طالب يدعوه فيها لمقابلته والمفاوضة معه في أمور ذات بال تخص العراق ، فسار إليه وقابله برفقة الشيخ خزعل ـ الذي وضع نفسه وسيطا بينهما ـ في المحمرة ـ وكان القنصل قد اتخذ دار الحاج رئيس التجار مقرا له ـ ، وقد أبدى القنصل الانكليزي استعداد حكومته للاعتراف بالسيد طالب النقيب اميرا على ولاية البصرة ـ على أن يكون تحت حمايتهم ـ مقابل قيامه

بثورة ضد الأتراك . وبعد يومين عاد السيد طالب سرا إلى المحمرة مشترطا أن تقتصر مساعدة الانكليز له على مده بالسلاح فقط دون دخول قواتهم إلى البصرة ، فرفض طلبة . ولما كان موقف الاتحاديين منه غير محمود ـ إذ عثر على كتاب سرى بعث به جاويد باشا قائد الجيش التركي في بغداد إلى آمرية حامية البصرة يطلب إلقاء القبض عليه ـ رأى من مصلحته ترك البصرة إلى نجد عن طريق الكويت . وقبيل تحركه وصل إليه معتمد الشيخ خزعل ـ الحاج مصطفى فهمي ـ حاملا اقتراحا من القنصل الانكليزي إليه «ليلتزم الحياد في أثناء الحرب مقابل جعله حاكما عاما مدى الحياة على العراق من الفاو إلى آخر نقطة يصل إليها الاحتلال .

موقف الشيخ خزعل من الاحتلال الانكليزي للعراق :

لما قررت بريطانيا غزو العراق ـ إبان الحرب العالمية الأولى ـ رأت أن تستميل إلى جانبها شيوخ الامارات المحلية القائمة على ضفاف الخليج العربي ، لتؤمن مواصلاتها عبر الخليج إلى الهند . فأصدرت لهم تعهدات في المحافظة على أوضاعهم الراهنة وضمان حريتهم وعقائدهم وإعلانهم شيوخا مستقلين تحت الحماية البريطانية . واستكمالا لذلك كان يرى السير برسى كوكس ـ في مذكرة له «وجوب الاسراع في اتخاذ الاجراءات اللازمة التي تطمئنهم بأننا قادرون على درء الخطر الذي سيجابهونه ـ بصفتهم أصدقاءنا ـ وأننا عازمون على حماية مصالحهم كحمايتنا لمصالحنا ... فرضى أمراء العرب بهذه التعهدات ، وربحنا ـ بنتيجة تلك السياسة الحسنة المتبعة معهم من قبلنا لمدة سنين عديدة ـ .... وكانت صداقتهم ذات قيمة كبيرة لنا طيلة مدة الحرب» .

وتذكر جروترودبيل ـ فيما يخص العلاقات الدبلوماسية بهؤلاء ـ أنه «لم يصدر منهم خلال مدة الحرب كلها ما يدل على وقوفهم موقفا معاديا بالنسبة إلينا ، وأثبتت الصداقة الراسخة بيننا وبين البارزين من الأمراء ـ كشيخ المحمرة وشيخ الكويت ـ أنها شيء لايثمن» .

ولما اندلعت الحرب ـ وأصبحت الدولة العثمانية في الجانب المضاد لبريطانيا ـ صدرت الأوامر بإرسال قوات بريطانية إلى عبادان ، وقد أعطيت في حينه مسوغات لتلك الحملة ، منها : صيانة النفط في الاحواز من أجل الاستهلاك البريطاني .

وقد خشيت بريطانيا ـ بنوع خاص ـ من أن تعمل القوات العثمانية في منطقة الاحواز ، وتحرم بريطانيا موارد النفط ، وبالتالي تقضي على النفوذ البريطاني ، فكان لزاما على الانكليز أن يعملوا كل ما في وسعهم لاستمرار تسيير أعمال شركة النفط الانكليزية ـ الفارسية ، التي كان خط أنابيبها يصل إلى جزيرة عبادان الواقعة في رأس الخليج ، وكانت ابارها تقع إلى الجهة الشرقية الشمالية من الاحواز ، وقد ضوعف ـ في النصف الأول من سنة ١٩١٤ ـ خط الأنابيب وتوسعت معامل التصفية توسعا كبيرا .

ولكن وزارة الهند كانت ترى أن يكون الدفاع عن منشآت النفط هو السبب الرئيس ، فقد كتب وزير الهند إلى نائب الملك ـ بعد أن صدرت الاوامر إلى الحملة : «إن أهم ما نستهدفه من إرسال الحملة هو التأثير المعنوى على الشيوخ العرب ، أما حماية منابع النفط فقد كان شيئا ثانويا من بين الاعتبارات الأخرى» .

وقد أوضح هذا الراي السير آرثر هرتزل (السكرتير السياسي لوزير الهند) في مذكرة مؤرخة في ١٢ ايلول سنة ١٩١٤ جاء فيها : «إن التأثير السياسي على الخليج والهند ـ الذي سيحدثه ترك الخليج مهملا من غير عناية ـ سيكون شيئا خطيرا ، ولذا لا يمكننا أن نقف مكتوفي الايدي في هذا الشأن» . وقد علق الجنرال بارو على هذه المذكرة بأنه : «في حالة إعلان الحرب ستزول المصالح البريطانية في العراق ، وسيتهدد مركز حلفينا : شيخ المحمرة وشيخ الكويت ، وقد يهاجمان او يضربان ، وفي تلك الحالة سيتبدد جميع نفوذنا ، واتعابنا التي بذلت على مر السنين في الهواء ، كما أن مكانتنا في الخليج نفسها ستصبح قلقة ، فهل في وسعنا أن نحول دون ذلك ؟» .

وما إن أعلنت الدولة العثمانية الحرب في الخامس من تشرين الثاني حتى نشر على الاهالي في منطقة الخليج بلاغ ذكر فيه أن بريطانيا لا تضمر أي عداء للعرب ماداموا يظهرون صداقتهم لها ، وأن القوات

البريطانية لم تحضر إلا لتواجه الاعتداء التركي ، وتدافع عن أصدقائها العرب ، وفي الوقت نفسه طلب ممثل بريطانيا العام في الخليج إلى الشيخ خزعل : «أن تحاولوا مع صديقينا السير صباح حاكم الكويت والأمير عبدالعزيز بن سعود أمير نجد الهجوم على البصرة ، وتحريرها من العثمانيين ، فاذا ما كانت هذه المهمة فوق طاقتكم ، فعليكم أن تجروا الترتيبات للحيلولة دون وصول الامدادات التركية إلى البصرة او حتى القرنة ، إلى أن يصل الجند البريطانيون الذين سنرسلهم في أقرب وقت باذن الله . وإني لأرجو كذلك أن تصل سفينتان من سفننا الحربية إلى البصرة قبل وصول جنودكم إليها ، ومع أن هدفكم الأول سيكون تحرير البصرة . إلا اننا نرجو أن تبذلوا كل ما لديكم من جهد لمنع الجنود وغيرهم من سلب بضائع التجار البريطانيين في البصرة وتوابعها . وأن تحموا الأوربيين المقيمين في البصرة وتؤمنوهم ضد أي خسارة أو اضطهاد» .

بعد ئذ تحركت الباخرة البريطانية سبيكل من المحمرة إلى شط العرب ، وقطعت خط البرق التركي بين الفاو والبصرة ، في الوقت الذي نزلت فيه القوات البريطانية ـ القادمة من البحرين ـ إلى الفاو ، وكان رد الفعل العثماني إرسال فرقة ضخمة لاخراجهم منها . ولكن الشيخ خزعل أشعر البريطانيين بها ، فاستعدوا لها وتمكنوا من صدها بعد (معركة السنية) ، وقرر القائد البريطاني الجنرال باريت في ١٦ تشرين الثاني الحركة شمالا وأن يعسكر في مقابل المحمرة على الضفة اليمنى من شط العرب ، نظرا لقلق الشيخ خزعل من قيام الأتراك بهجوم عليه ، فاستطاع القائد أن ينجح في خطته ـ بعد معركة كوت الزين ـ وبذلك توفر الأمان لحماية المحمرة ، والتحقت السفن الموجودة في نهر كارون ـ بالحملة البريطانية وتم تأمين الاتصال بالمحمرة . ولقد علم الانكليز بعد ئذ ـ بوساطة الشيخ خزعل ـ أن الأتراك قرروا الانسحاب

من البصرة إلى القرنة ، فتقدمت القوات البريطانية واحتلت البصرة بعد ستة عشر يوماً من دخولها الفاو .

وكان الشيخ خزعل – في جميع مراحل الاحتلال – عوناً للانكليز في حربهم في المنطقة ، متجاهلاً الراي العام في إمارته ، فوضع جميع ممتلكاته واتباعه بأمرة جيوش الاحتلال ، واشترك في القضاء على كل حركة تمرد – في منطقته – مناوئه لاصدقائه الانكليز ، وقام بذلك لقاء تاكيد بريطاني وجهة له – في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ – ممثل بريطانيا في الخليج جاء فيه : «لقد امرتني حكومة صاحب الجلالة ان اقدم لسعادتكم – مقابل هذه المساعدة القيمة – وعداً باننا إذا ما نجحنا – وسننجح باذن الله – فإننا لن نعيد البصرة إلى الدولة العثمانية ، ولن نسلمها لهم ابداً ، وفوض إلي ان اؤكد لكم بصورة شخصية – وفي هذا الكتاب – بأن حكومة صاحب الجلالة مهما طرأ من التبدل على شكل الحكومة الايرانية ، وسواء أكانت هذه الحكومة ملكية مستبدة أم دستورية ، مستعدة لأن تمدكم بالمساعدات اللازمة للحصول على حل يرضيكم ويرضينا معاً إذا تجاوزت الحكومة الفارسية على حدود اختصاصكم وحقوقكم المعترف بها ، او على اموالكم الموجودة في فارس ، كذلك فستبذل أقصى جهدها في الدفاع عنكم تجاه اي اعتداء او تجاوز يأتي إليكم من دولة أجنبية على دائرة اختصاصكم وحقوقكم المعترف بها او على سلامة اموالكم الموجودة في إيران ، هذه التاكيدات معطاة لكم ولخلفائكم من الذكور من صلبكم ، وتبقى ابداً معمولاً بها مادمتم أنتم وخلفاؤكم قائمين بواجباتكم نحو الحكومة الايرانية ، على الا يرشح أحد من خلفائكم الذكور إلى الحكم إلا بعد اقتراح راي حكومة صاحب الجلالة البريطانية بصورة سرية وموافقتها على ذلك ، وأن تستمروا وخلفاؤكم تابعين إلى مشورة حكومة صاحب الجلالة ، وتتخذوا موقفاً مرضياً إزاءها :

وفضلاً عن ذلك ، فستبقى بساتين النخيل العائدة لكم في الجانب

التركي من شط العرب كلها تحت حيازتكم وحيازة ورثتكم معفاة من الرسوم ...» . ولقد ظهر في الأحواز – والحرب قائمة – اتجاه نحو العطف على دولة الخلافة الاسلامية ، وقد رفعت اصوات في النجف وكربلاء بوجوب الجهاد والوقوف بوجه «الأجنبي الكافر» ، وتأثرت قبائل المنطقة بتلك الدعوة ، واستغل الاتراك – أعداء الأمس – هذا الشعور فيهم فأججوا نيران عواطف العشائر واجتذبوهم نحوهم ، وتمكنوا من التأثير عليهم ، والمعروف أنه كان يصحب القوات العثمانية التي احتلت الحويزة – بقيادة محمد فاضل باشا الداغستاني – كثير من رؤساء العشائر في المنطقة ، منهم الشيخ عناية بن ماجد – رئيس قبيلة ربيعة – ، والشيخ قاسم بن علي – رئيس عشيرة الزركان – ، والشيخان عرق بن مهاوي وعاصي بن شرهان – رئيسا قبيلة بني طرف – والشيخ غضبان البنيان رئيس قبيلة بني لام – .. إضافة إلى نفر من علماء الدين ، من أبرزهم نجل السيد كاظم اليزدي – المرجع الأعلى للطائفة الشيعية يومئذ – وقد انتشر هؤلاء وغيرهم من المجاهدين في أطراف الحويزة ، وعزموا على احتلال الاحواز ، واعلنوا الثورة «ضد الانكليز وحليفهم الشيخ خزعل» .

وفي ٢٦ كانون الثاني سنة ١٩١٥ اخبر الجنرال باريت حكومة الهند بتقدم قوة تركية مع متطوعين من بني لام وبني طرف نحو الاحواز ، وهي تستهدف حقول النفط في عبادان ، وطلب الجنرال باريت نجدات لتلافي هذا الخطر ، وارسل في ٢٩ كانون الثاني ثلة من قواته لحماية الاحواز بالتعاون مع الشيخ خزعل واتباعه ، ولكن المتطوعين – يساندهم الاتراك تمكنوا في ١٨ شباط من إنزال خسائر لم تتوقع بالقوات البريطانية إذ كبدوها خسائر في الارواح تقدر بثلاثمائة قتيل ، إضافة إلى عدد كبير من الأسرى . واستولوا على قسم من المعدات ، واستطاع فريق من الثوار نسف انابيب النفط في مسجد سليمان واشعلوا فيها النيران ، الأمر الذي أوقف ضخ النفط إلى عبادان ،

ولكنهم أخفقوا في الوصول إلى مصافي عبادان ـ حيث كانت الحماية عليها محكمة .

بعد هذه الخسائر لم تحاول القوات المندحرة التصادم بالقوات المناوئة إلا بعد ان ربحت معركة الشعيبية في البصرة . وقد عين الجنرال غورنج لهذا الغرض ، وكانت قبيلتا الباوية وكعب قد أعلنتا العصيان المسلح ، فجرت معركة حاسمة في الخفاجية ، أظهرت فيها العشائر العربية من ضروب الشجاعة والبسالة ما نال الاعجاب من الأتراك والتنكيل والتأديب العنيف من الانكليز والشيخ خزعل طيلة ايام ثلاثة في منتصف اذار سنة ١٩١٥ ، قضى فيها على الأتراك بصورة نهائية بعد أن أرسلت قوة بريطانية كبيرة بوساطة نهر كارون لهذا الغرض ، وبذلك تراجع محمد فاضل الداغستاني مع فلول قواته المنهزمة إلى العمارة وهو في حالة يرثى لها . واتخذت في الحال التدابير اللازمة لصيانة انابيب النفط وإصلاحها ، واستؤنف تدفقه إلى عبادان في ١٣ حزيران سنة ١٩١٥ .

أما الشيخ خزعل فهيأ جيشا ليصد به تلك القوى المعادية من عشائر منطقته التي خرجت عليه وعلى حلفائه الانكليز . ومن المؤكد ان الشيخ خزعل لم يتأثر بفتوى الجهاد ، التي نادى بها علماء الشيعة ـ وقد الحوا عليه أن يستجيب لهم ، كما أن ثورة الحسين في الحجاز لم تحدث لديه أي تأثير يذكر . وإضافة إلى ذلك انه لم يستجب لاتصالات العثمانيين معه لزعزعة ولائه للانكليز ، فقد صم أذنيه عندما اتصل به والي البصرة في العشرين من تشرين الاول سنة ١٩١٤ وطلب اليه السماح لقوات تركية كبيرة وهي في حالة تنكر ـ في الاختفاء على سطوح المنازل المطلة على جانبي نهر كارون ، كما سبق أن رفض طلبا لوالي بغداد وقائد عموم العراق محمد حسين جاويد بالتعاون معه .

وتعلق المسز بيل ـ بعد كل هذا ـ فتقول . «لقد ضمن موقف صديقنا الحميم شيخ المحمرة بالنسبة إلينا ذلك الموقف الذي كان يدعو إلى مالا

يستهان به من القلق» . وتأكيداً لموقفه من الانكليز ضد الأتراك ، أصدر بيانات متلاحقة إلى العشائر العربية في العراق والمحمرة يدعوهم فيها للانضمام إلى «بريطانيا الدولة الوحيدة المحبة لرقي البشر على اختلاف أجناسهم وانسابهم» ، واوعز لقواته بعدئذ أن تسحق المعارضة . فوجه ابن أخيه الشيخ حنظل لقبيلة الباوية ـ شرقي الأحواز ـ فقضى على مقاومتها ، ثم اتجه نحو بني كعب في الفلاحية فسير لهم ابنه الشيخ جاسب بعشرين الفا من عشائر المحيسن فألحق بهم هزيمة نكراء ، بعد معركة ضارية طلب لها شيخ الكويت ـ وكان بضيافة الشيخ خزعل ـ الأمدادات من ابنه الشيخ جابر في الكويت .

وبذلك ازال إمارتهم وجعل (عبود بن ذياب) رئيسا لهم من قبله . وهكذا تم للشيخ خزعل إخماد تلك الثورات وتغلب عليها ، فهدأت الأحوال في إمارته واستتب الأمن ، وقدم إليه رؤساء العشائر المناهضة يطلبون العفو . ويثني تقرير بريطاني على ما قام به الشيخ خزعل من مواقف إبان الحرب ، فيذكر أن : «الشيخ تمكن من القضاء على فتنتهم وأراحنا منهم ، وقد خدمنا آنذاك خدمة كبرى لا تنسى ، كما انه ساعدنا كثيرا في حروبنا مع الأتراك في الشعيبية .. وقد ساعدنا ايضا في الأمور السوقية في الاحواز ، وساعدنا ايضا على اجتياز نهر الكرخة» . أما شأن الادارة البريطانية في الاحواز ـ بعدئذ ـ فقد افصحت عنها برقية من وزير الهند إلى سكرتير الشؤون الخارجية في ٢٩ اذار سنة ١٩١٧ على اثر احتلال بغداد ، جاء فيها : «أن تكون إيران الجنوبية بما فيها الاحواز منطقة نفوذ لحكومة الهند في حين تخضع الاراضي المحتلة الأخرى إلى إدارة حكومة صاحب الجلالة» .

ويبدو أن سلطات الاحتلال البريطاني في العراق ، أرادت إخضاع العراق لنفس الادارة التي خضعت لها الأحواز ، فقد كانت هناك وجهتا نظر بريطانيتان فيما يتعلق بالسياسة الخاصة بالعراق :ـ

إحداها صادرة عن الهند ، والاخرى مستمدة من لندن أو من السلطات البريطانية في مصر .

اما مجمل الخلافات بينهما ، فهو أن المسؤولين البريطانيين في الهند كانوا يريدون استعمار العراق دون إعطاء أهله صلاحيات جوهرية في ميدان السياسة والادارة ، كما انهم كانوا يرغبون في ضمه إداريا إلى الهند ــ كما هي الحالة مع الاحواز ، هذا في حين السلطات البريطانية في مصر ترى فائدة في الاعتراف بحركة القومية العربية وإنشاء حكومة عربية تضطلع بأعباء الادارة . وقد بذلت الادارة البريطانية في العراق ــ بادىء الامر ــ جهودا جبارة في التمهيد لحكم العراق حكما مباشراً ، فأثر ذلك تأثيراً بليغا في تقدم العراق نحو الثورة . فقد ظلت الادارة عسكرية برجالها وسلطتها سواء اكانت تسميتها قبل هذا التاريخ مدنية أم عسكرية . كما أنها لم تعلن عن عزمها على إنهاء الاحتلال العسكري وإقامة نوع من الحكم الوطني ، لخفيف وطأة الخلاف بينها وبين أهل البلاد . وقد كان مطلب الاستقلال متأصلا في العراق ، فلما انتهت الحرب وطال الانتظار ، واستفحلت الشكوك في وعود بريطانيا ونواياها ، اشتدت العزيمة على مقاومة الادارة البريطانية ، والتخلص من قبضتها ، فكانت ثورة العشرين التي تفاقم أمرها ، ومما زاد في عنفها انها اتخذت صبغة دينية ، ولكنها ــ على ما يبدو لم تؤثر في موقف الشيخ خزعل ، فلم يعرف عنه تأييده للثورة او اتصاله بالثوار ، وإنما كان ولاؤه للانكليز يتحتم عليه الوقوف بعيداً عن أحداثها ، برغم الأواصر التي تشده بقادة الثورة . والحقيقة ان الانكليز تفهموا جيداً مسالة تصادم الولاء الذي كان عليه الشيخ خزعل ــ ولائه للانكليز وولائه لعلماء النجف ــ ، فبادر السير برسي كوكس ــ الذي استدعى من طهران ــ إلى الاتصال به ، إذ زاره في ٣٠ أيلول سنة ١٩٢٠ في المحمرة . وضمن موقفه إليه . ولكن برغم هذا لم يستطع الشيخ خزعل إلا ان يعضد من شردتهم الثورة ونكلت بهم ،

فتدخل ــ بما لديه من حظوة عند الانكليز ــ في أمرهم بعد أن أثيرت عواطفه بالعديد من الرسائل من علماء الدين في النجف ــ الذين تربطهم به (رابطة المذهب والوطن واللسان) ــ يحثه فيها مرسلوها للتدخل في الأمر واستعمال مكانته عند «أرباب الدولة المعظمة البريطانية» ، لاصدار العفو العام عن المنفيين والمحتجزين . فتدخل في أمر «الشيخ محمد جواد الجزائري ، والسيد محمد على بحر العلوم ، اللذين تزعما ثورة النجف ضد الانكليز ، فأعفيا واقاما في المحمرة برعايته» .

كما أنه تدخل في أمر السيد صالح الحلي ، وقد قبضت عليه سلطات الاحتلال في بعقوبة يستنهض أهلها ، وأبعدته إلى البصرة في طريقه إلى الهند ــ ، عندما استجار به فأغاثه ومكث عنده اكثر من ثمانية اشهر . ويروى لنا عبدالواحد سكر ــ وهو احد ابطال ثورة العشرين ــ أن الشيخ خزعل كان كثير التردد عليه في معتقله بالبصرة وقد شمله برعايته ودعاه لزيارة المحمرة ، ويذكر : «بينما كنت عنده ، وبدون أن اعلم ، فاوض المندوب السامي ببغداد عن طريق البرق بأن يدفع عني مائة الف ربية هندية كغرامة على ان تطلق الحكومة سراحي» ..

تطورُ النفوذ الاجنبي في الاحواز

المنافسة الدولية في الخليج العربي وأثرها على الاقليم :

شهد القـرن السـادس عشر سـيادة البرتغـاليين على مياه الخليج العربي ، تلك السيادة التي كان من نتائجها ضرب التجارة العـربية في مياهه ، كما شهد تحالفا بينهـم وبين الفـرس ـ الشـاه إسـماعيل ـ للقضاء على النفوذ العربي في المنطقة . ولقد نظـم الفـونسو البوكيرك حملات القرصنة البرتغـالية لمعـاكسة الملاحـة التجـارية التي كان يمارسها العرب ، فكان رد الفعل العربي ـ على تلك الأعمال ـ الاتفاق على القيام بحركة تحرير عامة لمناطق نفوذهم .

وفي هذه الفترة شهدت المنطقة الزحـف العثمـاني ، مبتدئا بالبصرة سنة ١٥٤٦ ـ *التي* كانت تتمتع باستقلال تام في حكم شط العـرب ـ . وقد نفذ العثمانيون من ذلك الثغر إلى الخليج فـأصبحوا وجها لوجـه أمام البرتغاليين . لذا يمكن القـول أن النصـف الثاني مـن القـرن السادس عشر : هو فترة صراع بيت هاتين القوتين في الخليج العربي . وقد رحب العرب بمساعدة العثمانيين لهم لمكافحة التوسع البرتغالي ، وغدت البصرة قاعدة للعمليات البحرية العثمانية ضد البرتغاليين . أما إمارة الاحواز فقد كانت تحت حـكم أمـراء الحـويزة ، بعيدة عن تلك العمليات ، لاسـيما انهـا لم تتعـرض للاحتلال العثمـاني المباشر كالبصرة ـ . والحقيقة أن قوة البرتغاليين ما لبثت أن وهنت في الخليج بعد أن ضمت بلادهم إلى اسبانيا (١٥٨٠ ـ ١٦٤٠) ، ممـا اضـعف المد لوحداتهم في الشرق ، لتدخل ميدان النزاع بدلها قـوتان أوربيتان جديدتان هما : إنكلترا وهولندا .

وترجع علاقة إنكلترا السياسية والتجارية بالخليج منذ أوائل القرن السابع عشر ، عندما أرسلت شركة الهند الشرقية ـ (وكانت قد أسست في ٣١ كانون الأول سنة ١٦٠٠ ، واتخذت مدينة سوارت إحدى موانيء الهند مركزاً لها) ـ سفنها إلى سواحل الخليج في العقد الثاني من ذلك القرن .

ومن الثابت أن بريطانيا اتجهت إلى الخليج لأنه يحتل خطاً دفاعياً أمامياً عن مستعمرة الهند ، ويكون طريقاً من طرق مواصلاتها الامبراطورية ، فكان في نظر «صانعي الامبراطورية» وسيلة لا غاية . وقد وجد الانكليز من الفرس حلفاء طبيعيين لهم في حربهم مع البرتغاليين حلفاء الفرس بالأمس ، إذ جرى أول اصطدام مسلح بينهما قرب ميناء جسك ـ الواقع على خليج عمان ـ حقق فيها الانكليز انتصاراً ملحوظاً ثم أعقبه حرب بحرية عنيفة تعرضت خلالها سواحل فارس لهجمات عديدة كان النصر فيها للانكليز ، الذين جعلوا من بندر عباس مركزاً رئيساً لأعمالهم في منطقة الخليج سنة ١٦٢٢ ، وأخذت السفن البريطانية تتاجر مع البصرة منذ سنة ١٦٣٥ ، برغم منافسة الهولنديين لها .

والواقع أن القرن السابع عشر شهد تغييراً عاماً في منطقة الخليج ، فقد وجد أمير البصرة نفسه مضطراً إلى محالفة البرتغاليين ضد الشاه الذي حارب العثمانيين ، واستولى على بغداد سنة ١٦٢٣ فظهرت خمس سفن برتغالية في شط العرب ، لتساهم في الدفاع عن البصرة . وفي مقابل ذلك حصل البرتغاليون على امتيازات اقتصادية وسياسية في جنوب العراق ، وبقيت سفنهم تتردد على شط العرب حتى سنة ١٦٤٠ .

أما العلاقات العامة بين الشاه والانكليز ، فقد أخذت بالتطور . فقد أصدر الشاه عباس (١٥٨٧ ـ ١٦٢٩) فرماناً أوصى به جميع موظفي الموانيء الفارسية بمساعدة التجار الانكليز ، ذلك لأن الإنكليز سلكوا

سياسة على النقيض من سياسة البرتغاليين ، فقد كانوا يحسنون المعاملة ويتقربون إلى الأمراء ، فاستمالوا أهل البلاد إليهم . ويذكر الجنرال موبرلى «أن العلاقات السياسية البريطانية في الخليج ترجع إلى سنة ١٦٢٢ ، عندما أخذت شركة الهند الشرقية على عاتقها ـ بالاتفاق مع شاه فارس ـ تخصيص سفينتين حربيتين بصورة مستمرة للدفاع عن الخليج» .

والحقيقة أن النفوذ البرتغالي بقي في الخليج بشكل واه حتى سنة ١٦٥٢ ، ثم زال نهائياً ليبدأ الصراع بين الانكليز والهولنديين ، فقد ظهر للانكليز أن الهولنديين استطاعوا الحصول على الأفضلية في منطقة الخليج منذ سنة ١٦٤٠ وقد اذعن الشاه لسيطرتهم على الشطر الشرقي من الخليج ، وصاروا يضايقون السفن الانكليزية ، تتبعوها من ثغر إلى آخر حتى دخلوا شط العرب . ووصلوا إلى البصرة ، وأرسلوا إليها ثمانية من سفنهم سنة ١٦٤٩ انزلت بضائعها في (مناوي الباشا) وكادت تقضي على التجارة الانكليزية فيها .

واشتدت المنافسة فكانت من العوامل في نشوب الحرب بين الدولتين (١٦٥٢ ـ ١٦٦٧) ، وأصبحت شركة الهند الشرقية تفكر بالانسحاب من الميدان لولا أن انزل لويس الرابع عشر ـ ملك فرنسا ـ بهولندا ضربة قاضية (١٦٧٢ ـ ١٦٧٨) ، كان من نتائجها أن فقدت هولندا القدرة على حماية نفسها في الخليج العربي ، فانسحبت من البصرة إلى بوشهر ، وأغلقت وكالتها في بندر عباس ، وكان الشاه يقف من تلك الأحداث إلى جانب إنكلترا حليفاً لهم ، ولكن سوء الأحوال السياسية في فارس وهزائم البحرية البريطانية في عهد حكومة كرومويل بإنكلترا ، دفع شركة الهند الشرقية بعد ئذ إلى نقل مركزها من بندر عباس إلى البصرة سنة ١٧٦٣ ، وكان قد طرأ تغيير جوهري على طبيعة الشركة في الهند ، فقد أصبحت ـ بالرغم من احتفاظها بطابعها التجاري ـ

مؤسسة سياسية ، استطاعت ان تجعل وكيلها في البصرة سنة ١٧٦٤ قنصلا إنكليزيا بالاضافة إلى وظيفته ـ ممثلا للشركة ـ .

ولعل أهم ما يمكن ملاحظته في تلك الفترة ، هو ضعف الأتراك في البصرة وحاجتهم المستمرة للعون الانكليزي ، بعد ان أخذت قوة قبيلة كعب ـ تحت قيادة شيخها سلمان بن سلطان (١٧٣٧ ـ ١٧٦٧) ـ بتهديد البصرة ، والواقع أن الأتراك بين (١٧٦٣ ـ ١٧٧٣) كانوا معتمدين اعتمادا كليا على اسطول شركة الهند الشرقية في الدفاع عن البصرة في وجه الاسطول الكعبي ، فعمل هذا على ازدياد النفوذ البريطاني بشكل ظاهر في المنطقة ، وقد كان الانكليز يسيرون على قاعدة التدرج الطبيعي آنذاك .

لقد اشترك الانكليز مع الاتراك في محاولات القضاء على قوة بني كعب ـ ويعتبر اشتراكهم هذا بمثابة أول محاولة لهم للتدخل في شؤون الاحواز ـ بعد ان اخذ شيخهم يهدد الملاحة في شط العرب . وتحدثنا سجلات شركة الهند الشرقية : «بأن الشيخ سلمان قام بأول تهديد للسفن القادمة إلى البصرة عام ١٧٤٧ ، إذ استطاع أن يوقف الملاحة في النهر بعدئذ . وحين زار علي باشا الوالى العثماني على العراق . ـ مدينة البصرة سنة ١٧٦٣ كانت غارات بني كعب عليها لا تنقطع ، فكان رد الفعل لذلك العمل ان هيأ وكيل شركة الهند الشرقية في البصرة بيتر رينتش حملة خاصة للايقاع بأسطول الكعبيين ، والواقع ان النشاط البريطاني في الخليج قد تطور في خلال هذه الفترة ، فبعد ان كان الانكليز يكتفون بحماية سفنهم من هجمات القوى العشائرية العربية الملاحية ، أصبحوا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ـ ليستخدموا قوتهم البحرية ضد تلك القوى ، وقرر الشيخ سلمان توجيه ضربة مباغتة لهم ، فقد هاجمت قطع أسطوله في صيف سنة ١٧٦٥ سفينة لشركة الهند الشرقية في شط العرب ، وكانت قادمة من الهند إلى البصرة ، واستولى رجال كعب عليها وأسروا بحارتها . وفي اليوم

التالي هاجم أسطول كعب يخت الشركة ، مع الباخرة (فورت وليم وهما في طريقهما من بوشهر إلى البصرة واستولوا عليهما وأما الاجراء الانكليزي لذلك العمل المعادي لهم فكان إرسال ست سفن حربية اخرى سنة ١٧٦٥ من بومباي للمساهمة في القضاء على قوة بني كعب . وقبل البدء في العمليات العسكرية ، فاوضت الشركة الشيخ سلمان في تسليم السفن الانكليزية الثلاث المحتجزة مع حمولتها ، وعدم التعرض لأسطول شركة الهند الشرقية الراسي في شط العرب بالمستقبل . إلا انه رفض مشاركة احد له في السيادة على مياه منطقته ، فكانت الحرب سجالا بين الطرفين استمرت اكثر من ستة اشهر ، اشترك فيها مع الانكليز لمقاومة التحدي العربي كل من الأسطول العثماني والأسطول الفارسي . وقد اخفقت كل المحاولات للقضاء على قوة الكعبيين الذين استطاعوا أن يحرقوا سفينتين من سفن الشركة وتسع سفن عثمانية . وفرض الانكليز بعدئذ حصارا على المنطقة استمر اكثر من سنتين لم يحققوا فيه اي نصر يذكر ، فاضطروا إلى رفعه سنة ١٧٦٨ بعد وفاة الشيخ سلمان ، وقدرت الخسائر الانكليزية في الحرب مع كعب بما يفوق منافعهم التجارية التي جنوها في المنطقة .

وهكذا بدت الاحواز القوى المعادية التي حاولت احتلال اراضيها وتحطيم أسطولها ، واستمرت محافظة على عروبتها ، وظل امراؤها يسيطرون على مناطق نفوذهم ، يفوضون الرسوم ويستوفون الضرائب من السفن التجارية الأوربية والفارسية والعثمانية الماخرة في مياههم الاقليمية ، او الراسية في موانئهم . والواقع أن هذا النزاع أسفر عن توثيق العلاقة بين ولاة العراق من الأتراك من جهة وشركة الهند الشرقية من جهة أخرى . وتراجع كريم خان الزندي ـ ذو الاطماع التوسعية ـ وإقراره بالأمر الواقع لقوة الكعبيين ، فدخل معهم في حلف ، للهجوم على البصرة ، وقد حاولت شركة الهند الشرقية ـ التي وقفت إلى جانب الباشا العثماني ـ منع هذا التحالف ولكن دون

جدوى . فتمكن المتحالفون من إخضاع البصرة (١٧٦٦ ـ ١٧٦٩) ـ كما مر بنا ـ وقد لعب في خلال هذا الهجوم الوكيل الانكليزي هنري مور دوراً كبيراً في منازلة القوى إلا أنه وجد ـ بعدئذ ـ أن من الحكمة تغيير سياسته بعد أن تلقى أوامر مشددة من بومباي بالكف عن التدخل في النزاع ، حفظا للمصالح البريطانية ، وبعد أن تعهد كريم خان الزندي بحماية مصالح شركة الهند الشرقية في البصرة في حالة احتلاله لها .

والحقيقة أن رد الفعل للاحتلال الأجنبي لمناطق الخليج العربي لم تقتصر على سواحله الشمالية ، وإنما شهدت تلك المنطقة كلها مقاومة مسلحة لمناطق النفوذ العربية ، وذلك أن العرب منذ سنة ١٦٩٥ شرعوا بمهاجمة السفن الفارسية والهولندية والانكليزية بلا انقطاع . فقبضوا على عدة منها ، وراحوا ينزلون الخسائر الكبيرة بأرباحهم التجارية .

وقد أعقبت المنافسة الانكليزية ـ الهولندية في الخليج منافسة جديدة ، هي : المنافسة البريطانية ـ الفرنسية . ومما تجدر الاشارة إليه أن هذه الأدوار لم تكن متمايزة بحيث يبتدىء أحدها لينتهي الآخر ، بل إنها كانت متداخلة . والواقع أن المنافسة الفرنسية للتجارة الانكليزية قد بدأت بشكل ملحوظ سنة ١٧٥٥ عندما أسس الفرنسيون وكالة لهم في البصرة ـ تحولت سنة ١٧٦٥ إلى قنصلية ، إلا أن المنافسة الحقيقية بين هاتين الدولتين بلغت أشدها عند ظهور نابليون على مسرح الشرق (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) . فمنذ ذلك الوقت اعتبرت بريطانيا الخليج العربي أحد الخطوط الامامية للدفاع عن الهند .

ومن المؤكد أن الصراع الانكليزي الفرنسي في الفترة (١٧٩٣ ـ ١٨٠٩) يعد فترة هامة في تاريخ الخليج ، ذلك لأن الاجراءات التي اتخذتها بريطانيا فيه كانت شديدة ، بعد أن تشككت في احتمال غزو نابليون للهند ، فأوفدت في الحال بعثتها الأولى إلى الشاه فتح علي سنة ١٧٩٨ ـ على أساس أن بلاده تحتل مكانا مرموقا كحلقة هامة إلى

الهند ـ لتقنعه بأن الفرنسيين يعملون ضد نظام الحكم الملكي ، ويبدو أن ذلك صادف نجاحا كبيراً لدى الشاه ، فأصدر فرمانا شاهنشاهيا بارسال الفي جندي لحراسة سواحل الخليج . كما ارسلت سنة ١٨٠٠ بعثة أخرى إلى فارس بقيادة الكابتن جون مالكولم للتفاوض مع الشاه ، ووضع العراقيل في طريق المحادثات التي أخذ الفرنسيون يمهدون لها ، وقد أسفرت بعثته عن إبرام معاهدة سياسية مع فارس سنة ١٨٠١ . ولكن برغم جهود بريطانيا هذه ، نجحت فرنسا بعقد اتفاق مع فتح علي شاه سنة ١٨٠٧ ، فأصبح الشاه حليفا لنابليون ، الذي أعقب مفاوضاته ببعثة عسكرية برياسة القائد جاردان لتدريب الجيش الفارسي ، ومع ذلك فإن النفوذ الفرنسي ـ وهو يبلغ ذروته عام ١٨٠٨ ـ لم يستطع النفاذ إلى منطقة الخليج العربي ، إذ كانت المنطقة الساحلية من فارس يحكمها رؤساء قبائل عربية مستقلون ـ بالنسبة للسلطة المركزية في طهران ـ وكان هؤلاء المشايخ يستفيدون من حركة التجارة النشيطة بين الهند وفارس ، والتي كان من نتائجها تشييد ميناء المحمرة سنة ١٨١٢ على يد الحاج يوسف بن مرداو ، وقد مر بنا كيف أن المحمرة أصبحت بعد حين نواة لامارة عربية لعبت دورها في تلك الأحداث .

اما موقف بريطانيا أمام التحديات الفرنسية ـ التي هددت مكانتها في المنطقة ـ فكان عقد اتفاق مع الشاه لأن تدفع له مائة وسبعين الف تومان سنويا لقاء بعض الامتيازات السياسية التي استطاعت الحصول عليها ، كما انها نجحت في التأثير على الشاه لاخراج المدربين الفرنسيين وإحلال المدربين الانكليز بدلهم ، ثم إنها استطاعت في منتصف مارس سنة ١٨٠٩ عقد اتفاق آخر ، بعد أن ضاعفت المنحة للشاه إلى مئتي الف تومان ، يكفي أن نشير إلى مادته الأولى التي نصت على : إلغاء جميع المعاهدات المضرة بالمصالح البريطانية ، والمعقودة مع الدول الأوربية الأخرى .

والواضح أن السياسة البريطانية في الخليج لم تتبلور وتتخذ طابعا إيجابيا إلا في الفترة النابليونية ، فقد اتجهت بريطانيا — منذئذ — اتجاها جديدا في الخليج ، إذ شرعت في تغيير تشكيلاتها السابقة تبعا للظروف الجديدة ، فاستبدلت وكالاتها التجارية بوكالات سياسية تحولت فيما بعد إلى قنصليات وسفارات ، واخذت تعد هذه الوكالات بالمحنكين من الساسة ، وقد خدمها — في ذلك — انها في خلال العقدين الثاني والثالث من القرن التاسع عشر (١٨١٠ — ١٨٣٠) لم تجابه اية منافسة تذكر في الخليج . على أن اهم ما قام به الانكليز في هذه الفترة هو عقد معاهدة عامة سنة ١٨٢٠ مع مجموعة الامارات العربية في الخليج ، مستهدفين فيها القضاء على القلاقل المزمنة في مختلف انحاء الخليج ، وتوطيد الأمن فيه لحرية تجارتهم ، وقد الزموا موقعيها على الا يدخلوا بأي اتفاق مع اية حكومة عدا الحكومة البريطانية ، والا يسمحوا بإقامة ممثل دولة اجنبية في بلادهم عدا ممثل بريطانيا ، والا يقوموا بأي توسع إقليمي في بلادهم . والمعاهدة فيما يبدو كانت سجلا مفتوحا لانضمام من اراد منهم أن يصبح في زمرة «العرب الأصدقاء المسالمين» ، وقد بلغ مجموع الموقعين عليها عشرة من اكابر الشيوخ ، وعلى ذلك كله تم تأسيس النفوذ البريطاني في حوض الخليج ، وأخذ بعدئذ بالقوة والاتساع .

إلا أن السيادة البريطانية على مياه الخليج لم تتحقق — بشكلها الكامل — الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ذلك لان بريطانيا كانت في اوائله قد ركزت اهتمامها على قهر نابليون والقضاء على آماله في تكوين علاقات مع إيران ، وبلدان الشرق الاخرى .

اما بالنسبة لبلدان الخليج فإنه في الوقت الذي تبلور فيه النفوذ الانكليزي ، كانت قد تسلمت أمور الحكم والادارة العصبيات المحلية ، وهي على اسوأ ما يكون من التنافر فلم يكتب لها تحقيق شيء من التماسك والتجمع ، لكي تخرج بتحالف عربي شامل ، كما كان متوقعا

لها ، فلم يحدث شيء من هذا . ويرى بعض المؤرخين — يشاركه الرأي الدكتور جمال زكريا قاسم — أن أمر عدم قيامه يرجع إلى انهماك الوحدات العربية فيه بمنازعات البحر ، ومنازعات الصحراء ، وظهور الاستعمار البريطاني — منذ القرن الثامن عشر — الهادف إلى الحيلولة دون تكوين وحدة سياسية كبيرة للبلدان العربية في الخليج ، وأن تحتفظ بحالة التفكك التي وجدتها عند وصولها إلى تلك الانحاء ، ووسيلتها في ذلك سلسلة المعاهدات المشار إليها ، واستخدام القوة البحرية إن احتاج الأمر .

على أن فترة استئثار بريطانيا بمياه الخليج لم تدم طويلا ، فقد حاولت روسيا عرقلة الموقف الممتاز لبريطانيا ، وقد استفحل أمر منافستها لبريطانيا في خلال العقود الستة التالية ، بعد أن يئست من التغلغل في موانيء المضايق التركية في الاناضول . وقد اوجست بريطانيا من منافستها الجديدة خطورة بالغة ، وكان في ذهنها ما اوصى به بطرس الأكبر خلفاءه حين ذكر : «إذا ما سرى الانحلال في فارس ، توغلوا فيها حتى تبلغوا سواحل الخليج ، فتعيدوا الحياة إلى الطرق التجارية القديمة مع الشرق الادنى إن استطعتم ، ثم واصلوا السير إلى الهند فهي محط كنوز العالم» . لذا فإن اهتمام بريطانيا قد تحول من الحفاظ على طريق الهند إلى المحافظة على الهند ذاتها ، ومنع اية دولة من التطلع إليها ، وقد وجدت — عند ذلك — أن حماية الهند من روسيا ، يتطلب منها السيطرة على سواحل فارس ، لتمنع الروس من الوصول إلى البحار الدافئة ، فشرعت — بعدئذ — تنفذ خطتها بكل حزم وقلق .

ومن جراء ذلك التنافس تعرضت المنطقة إلى حملتين عسكريتين بريطانيتين : الاولى : سنة ١٨٣٨ ، عندما قام محمد شاه بتحريض من السفير الروسي في طهران سيمونوفيتش بحملة على هرات — وهي منفذ هام في الطريق إلى الهند — ، فرأت بريطانيا أن ضمها لفارس يعد

امتدادا للنفوذ الروسي نحو مستعمراتها الآسيوية الكبرى . فأرسلت حملة بحرية كبرى – إلى الخليج – في نيسان سنة ١٨٣٨ واحتلت جزيرة خارج في ١٩ حزيران من تلك السنة ، فاضطر الشاه إلى رفع الحصار في أيلول سنة ١٨٣٨ ، واعقبه انسحاب بريطانيا من خارج ، بعد توقيع معاهدة تجارية بين الطرفين في تشرين الأول سنة ١٨٤١ منحت فيها بريطانيا بعض الامتيازات الاقتصادية .

أما الثانية : فكانت سنة ١٨٥٦ في أعقاب طلب حاكم هرات الانضمام إلى فارس ، وقد استعملت بريطانيا وسائل ضغط متعددة للحيلولة دون تنفيذ هذا الانضمام . ولكن فارس ، التي منعتها بريطانيا من الانضمام إلى حرب القرم – كما كانت تود حكومة ناصر الدين شاه – أبت الاستجابة وأرسلت جندها الى هرات ، فردت عليها بريطانيا باعلان الحرب ، بقصد ارجاعها عن تعاونها مع روسيا فيما صممت عليه واخرجت حملة كبيرة تعدادها ستة آلاف جندي من بومباي على ثماني بواخر حربية واتجهت نحو الخليج العربي ، حيث استولت على ميناء بوشهر ، وبالتالي على المحمرة إذ فتحها في آذار ١٨٥٧ بقيادة جيمس أوترام الذي قام باتصالات واسعة مع زعماء الامارة هناك ، من أجل الحصول على امتيازات للملاحة في نهر كارون ، كان نصيبها الرفض من الحاج جابر – أمير المحمرة آنذاك – ، الذي وقف بوجه الحملة الانكليزية بادىء الأمر ، إذ كان يرمي من وراء تلك المعارضة الاحتفاظ باستقلاله الذاتي عن الحكومة الفارسية ، وعدم إفساح المجال للشركات الأجنبية للتدخل في شؤون إمارته ، لم تكن إمارة المحمرة آنذاك قد مضى على إخضاعها لفارس – بموجب معاهدة أرض روم الثانية – سوى عشر سنوات ، وكانت كل من بريطانيا وروسيا قد تدخلتا في مسألة التوسع الفارسي في الأحواز ، فالتزمت بريطانيا وجهة النظر التركية – لما لها من امتيازات في وادي الرافدين – ، أما روسيا فكانت منحازة إلى فارس ، وقد سعت بريطانيا

للقضاء على أسباب الاضطراب في الشرق الاوسط بتثبيتها الحدود بين فارس والدولة العثمانية ، منعاً للتعقيدات السياسية في المنطقة ، مما قد يسبب تدخلات أجنبية تخل من توازن النفوذ البريطاني ، فسعت جاهدة لتأليف لجنة مشتركة تكفلت بنفقاتها مع روسيا . وقد مر بنا كيف أن أوترام قد دخل في محادثات مع السلطات التركية التي قدمت له المساعدة في حملته ، لامكان إعادة المحمرة إلى ولاية بغداد . ولكن قبل أن يتم أي اتفاق سياسي ، كانت معاهدة باريس قد ابرمت في مارس سنة ١٨٥٧ ، ومن شروطها انسحاب الانكليز من المناطق التي احتلوها بعد خروج الفرس من هرات .

وقد شرعت بريطانيا – في الفترة التالية من تلك الأحداث – تثبيت نفوذها في السواحل الشرقية للخليج ، المحاذية لامارة المحمرة وبلاد فارس . وقد كان لها في بوشهر مقيم سياسي يدير شؤونها في المنطقة ، وعلى اتصال تام مع البحرية الهندية لمجابهة المواقف الطارئة . أما في المحمرة فكان هناك مساعد وكيل سياسي برتبة نائب قنصل .

وقد زادت اهمية هذه المنطقة بمناسبة إنشاء خط البرق الذي يصل أوربا بالهند سنة ١٨٦٢ ، وكان هذا الخط يمر بميناء بوشهر .

والثابت أن السلطات البريطانية في الخليج كانت تؤيد معظم الأمراء المستقلين الذين يمتنعون عن الخضوع لحكومة الشاه المركزية ، وبصورة خاصة شيخ المحمرة الذي اتجهت السياسة البريطانية إلى إمارته ، لتتخذها قاعدة لمواجهة التقدم الروسي في الخليج . وقد وجدت من اميرها الشيخ مزعل (١٨٨١ – ١٨٩٧) كل ممانعة ومعارضة ، إلا أن تاثيراتها الخارجية كانت أقوى من أن يردها ، فأصبحت مرافق المحمرة أيامه تحت إشراف بريطاني مباشر ، وفتح نهر كارون سنة ١٨٨٨ للملاحة الدولية .

وقد ركز النفوذ الانكليزي – في النصف الثاني من القرن التاسع عشر – دعائمه قوية في الاحواز ، للآمال التي كان يبنيها في تطوير

المصالح الملاحية في نهر كارون ، والسعي للحصول على امتيازات لمد سكة حديد بين طهران والأحواز ، وتوسيع نطاق التجارة البريطانية مع إيران لمنافسة الاحتكارات الروسية ، وعدم السماح لأية قوة أجنبية لمنافسة الأفضلية البريطانية في المناطق الساحلية للخليج ، لاسيما ان وكلاء الروس أخذوا يترددون على جنوب فارس وموانئها المتاخمة للخليج . وقد عبر عن تلك المخاوف اللورد «كيرزن» . في كتاب مطول أرسله للوزارة البريطانية في ايلول سنة ١٨٩٩ ، أظهر فيه الحاجة إلى سلوك سياسة جديدة في الخليج تكون أكثر حزما وإقداما ، نظراً لوجود أطماع دولية متعددة تهدد النفوذ البريطاني ، وجاء في جواب اللورد هملتون – وزير الهند – في تموز سنة ١٩٠٠ ما يؤيد رأي حكومة الهند ، وقد طلب مضاعفة الجهود في مراقبة مصالح الامبراطورية في هذه الأماكن ، واتخاذ التدابير اللازمة لما سيأتي به المستقبل .

وكان الانكليز يؤمنون بأن الخطر الروسي المباشر على منطقة الخليج العربي سيمتد إلى بوشهر والمحمرة والفاو . وقد توارنت الأخبار في خلال سنة ١٩٠٠ عن وجود وكلاء روس في الكويت ، وبعثة روسية في مقاطعة ستان . والواقع أن اللورد كيرزن قد اهتم بقضية الخليج العربي أكثر من أية شخصية بريطانية أخرى ، ويوضح لنا ما كتبه في كتابه الشهير : فارس والمشكلة الفارسية المنشور عام ١٨٩٢ عن قلقه إزاء سعي روسيا لايجاد منفذ لها على الخليج ، فقد كتب : «إن إنشاء ميناء روسي على الخليج هو حلم الوطنيين المتحمسين من أهل الفولكا ، ولكن مثل هذا الميناء سيكون عنصر اضطراب في الخليج حتى في وقت السلم ، وسيفسد توازن القوى الذي وضعته بريطانيا بعد مجهود شاق» .

وفي رأي مشابه أكد اللورد لاند سداون وزير خارجية بريطانيا في تصريح له أمام مجلس اللوردات في مارس سنة ١٩٠٣ بقوله : «يجب

أن يعتبر تأسيس أية قاعدة بحرية وأي مركز محصن في الخليج من قبل أية دولة من الدول تهديداً خطيرا لمصالحنا» .

وفي حومة من هذا الصراع الحاد بين بريطانيا وروسيا على الخليج ، كانت الأحواز – التي يهمنا أمر الأشارة إليها في تلك المنافسة – قد وقعت تحت تأثير النفوذ الانكليزي الفعال ، إذ استطاعوا أن يحققوا لهم فيها نصراً سياسيا واقتصاديا غير محدود ، وأصبحت أراضيها منطقة مغلقة للمصالح الانكليزية ولم يكن فيها أي أثر للنفوذ الروسي .

الصراع الروسي – البريطاني في فارس وأثره على الاحواز :

اتضحت أهمية موقع إيران الجغرافي ، في السياسة الدولية ، في الصراع الذي دارت رحاه بين كل من بريطانيا وروسيا ، فقد كانت سياسة بريطانيا التقليدية تنحصر في سلامة مستعمراتها في الهند ، ثم سلامة مواصلاتها البرية والبحرية إليها ، لذلك قاومت بريطانيا ظهور كل قوة دولية يمكنها مزاحمتها في هذه المنطقة ، لتضمن لسياستها الاستمرار والبقاء . وكان همها في إيران إبعاد الخطر الروسي عن المقاطعات الجنوبية المتاخمة لسواحل الخليج ، كي تؤمن قواعدها التي تحمي طريق الهند .

اما سياسة روسيا فكانت تنحصر في شعورها بالاختناق لبعدها عن البحار الدافئة المفتوحة التي يمكن عن طريقها الخروج إلى مناطق العالم الأخرى بحثا وراء التوسع والتجارة ، فبذلت محاولات عديدة لايجاد منفذ لها على الخليج وفاوضت الحكومة الفارسية لكي تتناول لها عن أحد موانئها .

ومن تضارب هذه المصالح نشأ الصراع بين إنكلترا وروسيا للتدخل في شؤون فارس ، وكانت أولى بوادر هذا الصراع تدخل كل من الدولتين في قضية الحدود بين فارس وبين الدولة العثمانية ، فقد

تشكلت لجنة مختلطة من الانكليز والروس سنة ١٨٢٣ لحل هذه المعضلة المعقدة ، فأفضت اعمال اللجنة إلى معاهدة أرض روم الثانية سنة ١٨٤٧ التي اشترطت الرجوع إلى تحكيم إنكلترا وروسيا في كل خلاف يقع على الحدود .

كما استغلت الدولتان مشكلة هرات في (١٨٣٧ ـ ١٨٣٨) و (١٨٥٦ ـ ١٨٥٧) للتدخل في أمر فارس ، فكانت روسيا تحمل فارس على الاستيلاء على هرات ، أما بريطانيا فكانت تقنع الفرس أن يرفعوا الحصار عنها ، فتضاربت المصالح الروسية البريطانية واشتد النضال السياسي بينهما واخيرا استطاعت بريطانيا ان تحقق كسبا سياسيا لها في هذه الازمة ، فقد تمخضت الأحداث سنة ١٨٥٧ عن معاهدة باريس التي جاء في مادتها السادسة ، «في حالة حدوث اختلاف بين فارس وهرات تتعهد فارس باحالة القضية إلى بريطانيا لتحلها بالتوسط الودي» ، وهي عبارة صريحة على اطراد النفوذ البريطاني في فارس ، الذي كان من ابرز نتائجه بعدئذ مد خطوط البرق ، الانكليزية في الفترة (١٨٦٨ ـ ١٨٧٠) .

وقد أخذ التنافس الروسي البريطاني يحتدم في فارس بعدئذ للحصول على مكاسب سياسية وامتيازات اقتصادية ، حتى إذا ما حصلت إحدى الدولتين على امتياز سعت الأخرى للحصول على امتياز مماثل ، أو قامت بالضغط على حكومة الشاه لالغاء الامتياز الأول .

والواقع ان سنة ١٨٧٢ تمثل ذروة اعتماد فارس على بريطانيا ، ففي هذه السنة منح الشاه ناصر الدين احد الرعايا البريطانيين البارون رويتر الذي اصبح فيما بعد مؤسس وكالة الانباء البريطانية ـ حق احتكار مد الخطوط الحديدية بين بحر قزوين والخليج العربي وخطوط الترام ، وحق البحث في المناجم عدا مناجم الذهب والفضة والاحجار الكريمة ـ وحق اقامة مشاريع الري وحق جمع العوائد الكمركية ، في امتياز تقع تفصيلاته . في اكثر من عشرين مادة . ولكن امام معارضة

روسيا ـ التي كانت لا تريد الاعتراف لبريطانيا بالافضلية ـ الغي الامتياز لتعقد سنة ١٨٨٩ معاهدة روسية فارسية ، تعهدت فارس بموجبها بعدم السماح لمد خطوط حديد خلال عشر سنوات ـ مدت بعد حين الى سنة ١٩١٠ ـ اما رويتر فقد منحه الشاه كتعويض له ، كما منحه حق انشاء البنك الشاهنشاهي برأسمال بريطاني كتعويض له ، كما منحه حق انشاء شركة للدخان . وارضاء لروسيا فقد سمح لها الشاه بانشاء بنك للقرض والتسليف ، ولكن لم يهدأ لها بال الا حينما اجبرت الشاه على الغاء اتفاقية الدخان ، التي كلفت الخزينة الفارسية تعويضا قدره نصف مليون جنيه تسلمه رويتر صاحب الامتياز . كما استطاعت روسيا ان تحصل ـ اضافة الى ذلك ـ سنة ١٩٨٢ على امتياز للكشف عن المعادن والنفط في المناطق الشمالية . وفي حومة هذه المنافسة اتجهت بريطانيا الى نهر كارون لتعمل على فتحه للملاحة والتجارة ، وقد تحقق لها غرضها فمخرت بواخر لنش في مياهه سنة ١٨٨٨ ، على ان اهم كسب استطاعت بريطانيا الحصول عليه في المنطقة هو منح الشاه احد المواطنين الانكليز المستر دارسي عام ١٩٠١ امتياز التحري عن النفط لقاء مبلغ عشرين الفا من الجنيهات . وبعد جهد سبع سنوات تكللت اعماله باكتشاف منابع النفط .

ولكن برغم المكاسب التي حققتها بريطانيا في الاحواز ، فانها جابهت منافسة قوية ، لا من روسيا ـ عدوتها التقليدية في المنطقة ـ فحسب ، بل من حليفة اخرى لروسيا هي فرنسا التي ـ فيما يبدو ـ كانت تبغي بتثبيت اقدامها في المحمرة لمناوأة النفوذ الانكليزي في تلك الامارة . اما اوجه التعاون الروسي ـ الفرنسي ، فقد يمثل في اشتراكهما بالعمل على انشاء خط للملاحة التجارية في نهر كارون . فقد زار المهندس الفرنسي نيولافوي المنطقة لاعداد تقرير عن الملاحة والري ، ووضع دراسات لبناء خزان عند الاحواز . كما قام المسيو بروي نائب القنصل الفرنسي في بوشهر بزيارة حوض كارون حيث كانت تقوم بعثة علمية فرنسية

برئاسة المسيو دي موركان بأبحاث ودراسات جيولوجية في منطقة الاحواز ، وقد خشيت بريطانيا من ذلك النشاط ان يؤدي الى فتح خط ملاحي ينافس الخط البريطاني ، الامر الذي يؤول الى اضعاف مركزها في المنطقة ، فعملت جاهدة للحيلولة دون تنفيذ ذلك .

وقد اشتدت المنافسة والمزاحمة بين بريطانيا وروسيا في هذه الحقبة واخذت خطورتها تعظم سنة بعد اخرى ، ونشطت كل منهما لترويج منافعها ولكن المتتبع يلاحظ ان النشاط الروسي أنئذ كان يفوق النشاط الانكليزي ، فقد اندفعت روسيا بصورة غير طبيعية للفوز بقاعدة بحرية في الخليج وحاولت ـ رداً على الاتفاقية البريطانية الموقعة مع شيخ الكويت سنة ١٨٩٩ ـ الاستيلاء على ميناء بندر عباس على اساس ان تجعل منه نهاية لسكة حديد كان من المؤمل ان تنشئها عبر فارس الى المحمرة وبوشهر وبندر عباس .

وكانت السلطات البريطانية تعتبر اية سكة حديد تمتد الى الجنوب هي سكة حديد سوقية ذات اهداف خطيرة تهدد القواعد العسكرية والبحرية البريطانية في الخليج العربي . ولكن روسيا استغلت انشغال بريطانيا في حرب البوير جنوب افريقيا للقيام بانشاء عدة قنصليات لها في بندر عباس . والبصرة وبوشهر ، وقامت بتظاهرات بحرية متتابعة ، وارسلت بعثة الطاعون الى بوشهر ـ عند ظهور ذلك الوباء في الهند ـ وانشأت البيوت التجارية في الخليج .

وقد بلغت المصالح الروسية في فارس ذروتها في هذه الفترة لاسيما انه قد اعتلى العرش أنئذ الشاه مظفر الدين الذي كان كثير التبذير ، ضعيف الارادة ووقع تحت تأثير الروس الكامل .

ففي كانون الثاني ١٩٠٠ منحت روسيا الشاه قرضا بمبلغ ٢٢,٥ مليون روبل ـ ما يعادل ٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني ـ بفائدة ٥٪ ، بعد ان امتنعت بريطانيا من تقديم اي قرض له . وكانت ضمانته ان اصبحت الكمارك الفارسي ـ عدا كمارك الخليج ـ تحت الادارة

الروسية ـ وقد صرفت مبالغ طائلة من القرض لتغطية نفقات رحلة الشاه الى اوربا ـ ومن الواضح ان ذلك جعل فارس تحت حماية روسيا المادية والادبية كما قدمت روسيا في اذار سنة ١٩٠٢ قرضا اخر بمبلغ مائة مليون روبل مقابل تعديل المعاهدة الروسية الفارسية ، ووضع اتفاقية كمركية جديدة ، وبعد مفاوضات توصل الطرفان الى اتفاق تجاري عام ١٩٠١ اقر سنة ١٩٠٢ ، وبقي امره سرا حتى شباط سنة ١٩٠٣ ، وكان يتضمن تخفيض الرسوم الكمركية على صادرات روسيا الى فارس .

ونتيجة انهيار فارس الاقتصادي ارتمى الشاه في احضان روسيا كليا ، ويبدو ان الحكومة البريطانية تقدر خطورة نشاط روسيا ، وكانت تربط بين محاولتها الحصول على ميناء في الخليج ورغبتها في التسلط الى الجنوب ، وما يحتمل ان يؤدي اليه ذلك من تعريض التجارة والمصالح البريطانية لخطر داهم . وقد زاد من ارتباك السياسة البريطانية سيطرة روسيا على الاقتصاد الفارسي ، وتدخلها في الشؤون المالية لحكومة الشاه . وكانت بريطانيا قد اعدت العدة ـ في حالة نشوب حرب مع روسيا ـ فتشير وثائق وزارة الحرب البريطانية للفترة (١٨٩٠ ـ ١٩١٤) : «ان الاسطول البريطاني كان على اهبة الاستعداد للتوجه الى بندر عباس وبوشهر ، وعليه ان ينزل قوات عسكرية لاحتلال فارس ـ اذا تطلب الامر ـ عن طريق الاستيلاء على المحمرة وعربستان اولا ، لاهميتها الاقتصادية» وتوضح لنا مذكرة اللورد كيرزن ـ وزير الخارجية البريطانية ـ السرية التي ارسلها الى مورتيمر دوراند السفير البريطاني في طهران ، المؤرخة في ١٢ نيسان سنة ١٨٩٦ حول لوضع في فارس ، هذا المفهوم : فقد اشار الى احتمال قيام روسيا بالسيطرة على شمال ايران ثم الاتجاه نحو الجنوب صوب الخليج العربي . فذكر ان اي هجوم عسكري روسي من هذا النوع يجب ان يتبعه هجوم بريطاني على الاحواز ، وذلك لاغلاق اي طريق يوصل

الروس الى المحيط الهندي او الخليج العربي وقد وضع اللورد سولزبري في حسابه الاستفادة من الشجاعة التي يشتهر بها عرب المحمرة والأحواز وقبائل البختارية . وكذلك الاستفادة من سهول كارون الخصبة للمجهود الحربي – وكانت برطانيا قد اتجهت الى قبائل الختارية لاجل تدريب جيش منهم يكون على اهبة الاستعداد للدخول في الحرب ضد روسيا – وازاء تلك الصدمات التي انتابت النفوذ البريطاني في الخليج وتقهقر لمشاريع البريطاية في فارس امام الزخم الاقتصادي الروسي الذي رسمه الكوت دي ويت ، والذي كان يعتقد ان احسن وسيلة للقضاء على النفوذ البريطاني في فارس هو التغلغل الاقتصادي وبخاصة عن طريق تنفيذ مشاريع ضخمة مثل بناء سكة حديد او طرق او انابيب فقط . حاول الانكليز فك الحصار الذي اعلنه الروس على المشاريع الاقتصادية البريطانية ، وقد قام نقاش محتدم في مجلس العموم البريطاني لاتخاذ موقف حازم لحماية المصالح التجارية والسياسة البريطانية في فارس . والحقيقة ان الموقف الذي اتخذ بعدئذ كان موقفا صارما ، ولكنه كان مقرونا بالندم بعد ان اصبحت روسيا سيدة الموقف في فارس . وكان قد تولى منصب نائب الملك في الهند في اثناء تلك الفترة (١٨٩٩ – ١٩٠٥) اللورد كيرزن ، الذي قام في تشرين الثاني سنة ١٩٠٣ بزيارة الامارات العربية في الخليج لتاكيد النفوذ البريطاني فيها ، وفتح عدد من القنصليات البريطانية هناك . اما اجراءات رد الاعتبار البريطاني في فارس فكان ارسال بعثتين تجاريتين ، الاولى برياسة ماكليان ، والاخرى برياسة نيوكمن فاخذتا على عاتقهما العمل على تنشيط التجارة البريطانية هناك . وجاءت الحرب الروسية اليابانية ونتائجها المؤلمة لروسيا ، نصرا للسياسة البريطانية في فارس . فقد وجدت روسيا نفسها مضطرة الى التفاهم مع بريطانيا وتغيير سياستها في فارس ، كما ان فارس هي الاخرى انحازت الى انكلترا والواقع ان انكلترا كانت تحبذ

الوصول الى تفاهم مع روسيا ، وهي ترى ان سيطرة روسيا في الشمال ينبغي ان توازن بسيطرة بريطانيا في الجنوب . لا سيما بعد ان ظهر في ميدان السياسة الفارسية – الاوربة ، في اوائل القرن العشرين ، الخطر الالماني ، صاحب امتياز خط حديد بغداد – الذي اعتبرت بريطانيا ظهوره تعقيدا للمشكلة الفارسية – والمعروف ان المانيا بدأت – منذ سنة ١٩٠٠ – تعتنق فكرة التوسع نحو الشرق ، فعملت على تغلغل نفوذها السياسي والاقتصادي في فارس ، وفتحت شعبا لتجارتها في كل من البصرة وبوشهر والمحمرة والاحواز . والملاحظ ان التجارة الالمانية في البصرة وفي غيرها من موانىء الخليج التابعة للدولة العثمانية نشطت نشاطا ملحوظا ، وكانت المانيا تسعى للحصول على امتيازات تجارية ، وكان يخشى ان ترتبط النشاطات الالمانية بما لها من مصالح في مد خط سكة حديد بغداد . وقد ابدى اللورد كيرزن تخوفه من انشاء قنصلية المانية في البصرة في تشرين الثاني سنة ١٨٩٧ .

وفي سبيل القضاء على هذه القوة الجديدة الخطرة ، اضطرت بريطانيا وروسيا الى التخلي – مؤقتا – عن صراعها في فارس ، فكان الوفاق الانكليزي الروسي سنة ١٩٠٧ . الذي سوى الخلافات الناشية بين الدولتين وقسم فارس الى منطقتي نفوذ سياسي : شمالية من نصيب روسيا ، وجنوبية من نصيب بريطانيا ، كما اتفق على جعل المنطقة الوسطى منطقة حياد . وقد جعلت منطقة الاحواز ضمن منطقة الحياد هذه . وبالنسبة لبريطانيا فان ما شملها من هذا الاتفاق لم يكن يتعد مثلثا صغيرا لمساحة يقع على الخليج العربي ، الذي كانت سواحله تقع بموجب الاتفاق – في منطقة النفوذ البريطاني ومنطقة الحياد . وعلى الرغم من تعرض الاتفاق لعاصفة شديدة من النقد – لاوسية وانكليزية – فتصدى له اللورد كيرزن بالهجوم الشديد ، فانه ضمن للانكليز مصالحهم في رأس الخليج الذي تشرف عليه امارة المحمرة ، وكان من نتائجه ان اقرت روسيا امتياز دارسي للنفط في

الاحواز ، وكفت عن تطلعاتها المستمرة لانشاء مناطق نفوذ لها في حوض نهر كارون ، فتخلصت الاحواز من محاولات الضغط الروسية التي لم يبق لها اي طريق للوصول اليها . وقد كان الروس سنة ١٩٠٢ يؤكدون انهم لا يعترفون بالافضلية الانكليزية في جنوب فارس والخليج ، ولكنهم ــ بموجب هذا الاتفاق ــ اعترفوا بأفضلية الانكليز في جنوب فارس لم يتطرقوا الى الخليج العربي الذي عدوا موقعه ضمن مناطق النفوذ البريطاني بصورة فعلية . وهم بهذا يعدون اول دولة اوربية تعترف لبريطانيا بهذا الحق .

اما وجهة النظر الفارسية في هذا الاتفاق فقد عدته مخيبا للامال في الاستقلال ومحاولة غير كريمة من روسيا وبريطانيا لتسوية خلافاتهما على حساب فارس والتغلغل في شؤونها والسيطرة عليها .

وبعد عقد الاتفاق الروسي البريطاني ، تكتلت الدولتان لمعارضة المشروع الالماني في سكة حديد بغداد ، ورات الحكومة الالمانية ان تساوم روسيا على انفراد ، فتوصلت معها الى اتفاق سنة ١٩١١ تنازلت بمقتضاه عن الفرع المتجه شرق خانقين الى فارس . اما بالنسبة لبريطانيا فقد تمت تسوية الخلاف معها نتيجة الاتفاق البريطاني العثماني لسنة ١٩١٣ .

اما ما اصاب عربستان في تلك الاحداث ، فمن المؤكد ان الشيخ خزعل قد تقوت معنويته بعد اتفاق سنة ١٩٠٧ ، حول تقسيم فارس . وظل مستقلا عن الادارة الفارسية . والواقع ان بريطانيا قد اتجهت الى امارة المحمرة منذ بدء الصراع الروسي معها ، لتتخذها قاعدة لمواجهة التقدم الروسي في فارس ، ولتستغل موقع الامارة الذي جعلها تتحكم في سير الاتصالات في شط العرب . وقد اسست فيها عام ١٨٩٠ قنصلية بريطانية لادارة مصالحها ، اذ ان موارد المحمرة كانت قد وقعت تحت السيطرة البريطانية ، وعندما تولى الشيخ خزعل الامارة سنة ١٨٩٧ كان قد مهد لتغلغل النفوذ البريطاني وفتح امارته على

مصراعيها للمصالح الانكليزية ، بعد ان كان اخوه الشيخ مزعل حذرا من ذلك التغلغل . ولكن عندما زار السير مورتيمر دوراند السفير البريطاني في طهران حوض نهر كارون ــ في تشرين الثاني سنة ١٨٩٨ لدراسة الاوضاع في المنطقة ــ رفض الشيخ خزعل مقابلته في الاحواز ، وقد ارسل الشيخ خزعل عن طريق العقيد ميد المقيم البريطاني في الخليج اعتذاره للسفير عن عدم مقابلته ووضع اللوم في ذلك على سياسة الشاه . وعندئذ طلب من المقيم البريطاني ان ينقل الى دوراند رغبته في الحصول على ضمان رسمي من الحكومة البريطانية للاعتراف باستقلاله ــ ولم يكن يرتبط ، حتى ذلك الوقت ، بمعاهدة مع الانكليز ــ وقد كان ينوي اعلان الاستقلال ، حتى اذا ادى الامر الى صدام مسلح مع الجيش الفارسي ، فكان رد السفير له ــ بوساطة المقيم ميد ــ عدم موافقة حكومة الهند على طلبه ، واوضح ان الحكومة البريطانية لا تستطيع ان تقدم له ضمانات رسمية للدفاع عنه ضد الشاه ، كما لا يمكنها ان تضمن له استقلاله في حالة انهيار الامبراطورية الفارسية . وكل ما تستطيع ان تفعله هو الاعتراف بنفوذه على اساس انه اقوى شخصية في الامارة . والواقع ان موقف بريطانيا من الشيخ خزعل كان مشابها لموقفها من الشيخ مبارك ، فقد طالب الاميران بالحماية البريطانية مراراً عديدة ، الا ان طلباتهما قد ردت باعتبار ان الشيخ خزعل تحت سيادة الشاه الاسمية ، والشيخ مبارك تحت سيادة السلطات العثمانية الاسمية ، ولكن بريطانيا اعطت الشيخ مبارك الحماية الكاملة عندما ظهر الزحف الالماني على امارته ، واصبح من المقرر انتهاء خط سكة حديد بغداد في امارته ، فكانت معاهدة سنة ١٨٩٩ التي بخلت بمثلها على الشيخ خزعل . ولكن الشيخ خزعل ــ الذي كان يطمع في المزيد من الحماية ــ استأنف الطلب من جديد سنة ١٩٠٢ وطالب ان تعامله الحكومة البريطانية على النسق الذي تعامل به شيخ الكويت ، وكان في هذه الاثناء قد ادخل ــ بناء على

ادخال اللورد كيرزن ـ في دائرة التفاهم الممتازة مع الحكومة البريطانية «على اساس ان في يده قوة عظمى يمارسها في الجبهتين التركية والفارسية لشط العرب ، ويملك بموجبها السلطة الفعلية» كما ان امتياز دارسي واحتمال ظهور النفط في امارته ، كان له اثر في ذلك ، فوافقت الحكومة البريطانية على تقديم بعض الضمانات له ، ولكنها ضمانات مشروطة اقل من تلك التي اعطتها للشيخ مبارك من قبل . ولم تعقد معه معاهدة كتلك التي عقدت مع الكويت في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٨٩٩ تجنباً من وقوع فارس في احضان روسيا ، ومن المؤكد ان مطامع روسيا في فارس وامانيها السياسية في المحمرة ، هي التي دفعت السير ارثرهاردنج السفير البريطاني في طهران ، ان يطلب الى حكومته اعطاء الشيخ خزعل بعض التأكيدات الرسمية التي تضمنها رسالة بعث بها الى الشيخ خزعل في ٧ كانون الاول سنة ١٩٠٢ جاء فيها : «نحمي المحمرة من كل هجوم بحري تقوم به دولة اجنبية مهما كانت حجة التدخل الذي تدعيه ، وما زلتم مخلصين للشاه وتعملون بمشورتنا فنحن ايضا نستمر على معاونتكم ومعاضدتكم» كما اكد السفير ضمان توارث الحكم في اسرة الشيخ خزعل ، وسيادته على الاحواز ، والعمل على عدم احداث اي تغيير في المنطقة مهما كانت الوسائل ، والمتفحص لهذا الوعد يلاحظ ان بريطانيا اعطت امارة المحمرة الحماية ، ولكنها حماية مشروطة بالاخلاص للشاه ، وتعهدت للشيخ خزعل بالتأييد والسيادة ، ولكنها اشترطت عليه ان يتصرف طبقاً لتعليماتها . وعندما ضمنت بريطانيا موقف الشيخ خزعل ، وتسرب نفوذها الى جميع مرافق امارته ، لم يقلقها بعدئذ ان تبقى الاحواز ـ التي تحتل القسم الشمالي من الخليج ـ ضمن منطقة الحياد في اتفاق سنة ١٩٠٧ ، فقد كانت في الحقيقة حقلا متمما لمنطقة النفوذ البريطاني الجنوبية ـ المثلثة ـ من الناحية الواقعية .

ويبدو ان الشيخ خزعل كان يعتقد ان باستطاعته المحافظة على

التوازن بالنسبة الى الساحل الشمالي للخليج . فلما قسمت فارس سنة ١٩٠٧ الى مناطق نفوذ ، رأى ان يفصم كافة ارتباطاته بالحكومة الفارسية ، واعلان استقلال بلاده استقلالا تاما . وكانت بريطانيا ترقب الوضع بكل حذر .

وتحاول تجنب وقوع اي اشتباك مسلح بين الشيخ خزعل والشاه . لما سيترتب عليه من نتائج خطيرة تمس اتفاق سنة ١٩٠٧ اضافة الى ما كان يتوقع له من تدخل العثمانيين ـ الذين ما انفكوا يتطلعون الى المحمرة منذ ان اقتطعت من العراق سنة ١٨٤٧ ـ والقبائل العربية في العراق وشبه الجزيرة العربية باعتبارها مرتبطة معه بعلاقات قبلية وقومية ، وكان العقيد ميد المقيم البريطاني في الخليج قد حذر ـ منذ توليه منصبه ـ في تقرير سري له وضعه عن المحمرة ، وارسله الى السفير البريطاني في طهران «انه في حالة حدوث حرب بين الشيخ خزعل والشاه ، فان الشيخ سينال مساعدات من جميع العرب الذين يسكنون في القسم الجنوبي من دجلة ، وحتى من قبائل المنتفك وسكان البصرة ، نظراً لنفوذه الواسع في العراق الجنوبي» .

والواقع ان علاقات الشيخ خزعل ببريطانيا قد سارت بعدئذ باطراد ملموس ، فقد وقع في ٢٩ (تموز) سنة ١٩١١ على اتفاق مع الحكومة البريطانية يقضي بالا يمنح امتيازات باستخراج اللؤلؤ او الاسفنج الا برخصة من بريطانيا وفي اواخر السنة نفسها وقع كل من شيخ البحرين وشيوخ الساحل المهادن على اتفاقيات مماثلة .

والحقيقة ان نشوب الحرب العالمية الاولى قد غير ميزان القوى في المنطقة ، فقد وقفت فارس على الحياد في اثنائها ، الا ان القوى المتصارعة فيها لم تحترم حيادها ، فنزلت الجيوش البريطانية ثغر بوشهر في ٨ آب سنة ١٩١٥ ، وعينت فيه مندوبا ساميا مؤقتاً ووضعت يدها على البريد .

وارسلت قوة للمحافظة على ينابيع النفط في الاحواز . ومصافي

النفط الحديثة فيها ، ذلك لانها خشيت ان تقع الشيخ خزعل ـ حليفهم ـ تحت رحمة الاعداء . اما الجيوش الروسية ـ حليفة الانكليز ـ فقد تقدمت من الشمال حتى بلغت حدود العراق ، بل دخلت خانقين . وفي اثناء الحرب واجهت المنطقة تحديات المانية ـ عثمانية فقد ارسلت المانيا بعثاتها المستمرة ، التي نجحت في كسب الحزب الديمقراطي اقوى الاحزاب السياسية في فارس ، والذي ظفر بأغلبية المقاعد في انتخابات المجلس التي جرت عام ١٩١٥ ، وكان قصد الالمان من هذا عرقلة المجهود الحربي للحلفاء في فارس ، كما نجحت في اثارة بعض القوات التي يدعمها الدرك الفارسي بقيادة ضباط سويديين ، وقد جاهدت تلك القوات من اجل القضاء على النفوذ البريطاني في جنوب ايران . فأرسلت رسلها بقيادة راسموس لينظم حربا غير رسمية ضد الانكليز في مناطق النفط وعلى سواحل الخليج ، وللوقوف ازاء هذا الخطر انتدبت حكومة الهند السير برسي كوكس من الهند الى بندر عباس ليقوم بجمع قوة من المتطوعين بقيادة ضباط بريطانيين تدعمها قوة بريطانية وهندية يعهد اليها امر توطيد الأمن في جنوب ايران ، وقد عرفت هذه القوة ـ التي كان قوامها خمسة آلاف مسلح ـ باسم فرقة بنادق جنوب ايران اتحدت مع الروس في تشكيل سلسلة تخترق ايران للحيلولة دون تسرب الالمان من الناحية الشرقية الى فارس . ومن ناحية اخرى كان الاتراك قد عقدوا العزم على تهديد ابار النفط في عربستان ، فنفذوا الى المنطقة ، واشتركوا في تحريض قبائلها للثورة بوجه الانكليز ، ونجحوا في قطع انابيب النفط ، مما اضطر الحكومة البريطانية الى ارسال قوة الى الاحواز عملت ـ بالتعاون مع الشيخ خزعل ـ على اخراجهم .

وبعد ان وضعت الحرب العالمية اوزارها ، كانت السيطرة البريطانية في الخليج قد تدعمت بصورة تفوق كثيراً ما كانت قبل الحرب ، فاختفت الدول الكبرى التي تطلعت الى الخليج ، فقد هزمت المانيا ، وقام نظام

جديد في روسيا ، واختنقت من الوجوه الدول العثمانية . وحق لبعض الكتاب الانكليز ـ عندئذ ـ ان يصفوا الخليج بأنه بحيرة بريطانية .

أما فيما يتعلق بفارس ، فان بريطانيا قد اثرت على الحلفاء ليرفضوا الجلوس مع الوفد الايراني الذي حضر الى مؤتمر الصلح في باريس .

وخرجت روسيا من جميع الاتفاقيات والمعاهدات التي عقدها العهد القديم مع فارس ، وقد عقدت كل من بريطانيا وروسيا معاهدتين على طرفي نقيض مع فارس ، فعقد السير برسي كوكس ـ بايعاز من اللورد كيرزن وزير الخارجية البريطانية في ٩ آب سنة ١٩١٩ ـ معاهدة مع فارس كانت بمثابة فرض الحماية عليها . اما البلاشفة فقد توصلوا الى عقد معاهدة سنة ١٩٢١ تنازلوا بمقتضاها عن كل امتيازاتهم في فارس بشرط عدم التنازل عنها لاية دولة اجنبية وكانت النتيجة ان اصبحت فارس ، منطقة نفوذ بريطانية بلا منافس وقد زاد بريطانيا تمسكا بها وجود شركة النفط الفارسية الانكليزية في الاحواز ، حيث مصفاة النفط في عبادان ـ التي لعبت دورا مهما ابان الحرب .

والواقع ان السياسة البرطانية في فارس كانت تتبع نظاما دبلوماسيا مزدوجا ، فقد كانت من جهة تتعامل مع الحكومة المركزية في طهران ـ عن طريق سفاراتها هناك ـ وهي في الوقت نفسه تتعامل من جهة اخرى مع امير المحمرة الشيخ خزعل عن طريق القنصل المحلي والوكلاء فيها .

الشيخ خزعل ونمو المصالح البريطانية في امارة المحمرة

كانت السياسة البريطانية تستهدف الاستغلال الاقتصادي لمناطق واسعة في منطقة الشرق الاوسط ، لاسيما تلك التي عرفت بخصوبتها وباحتمال جعلها مناطق زراعية مهمة . وكان الراسماليون الانكليز ـ امثال ستيفن لنتش ـ يؤمنون بأن الطريق الاساسي في تطوير هذه البلاد اقتصاديا هو ربطها بشبكة من السكك الحديد او الملاحة النهرية التجارية . وقد اهتم الانكليز بفكرة فتح انهار العراق ونهر كارون في

الاحواز للملاحة التي اعتبرها اساسا لمشاريع سكة الحديد ، لذا فان الانكليز وجهوا اهتماما خاصا لمنطقة شط العرب في اخريات القرن التاسع عشر ، واخذوا يرقبون تحركات العثمانيين فيها بشيء من الحيطة والحذر ، فعندما شعرت بريطانيا ببناء العثمانيين استحكامات عسكرية لهم عند الفاو ، قدم السفير البريطاني في الاستانة في ٢١ آب سنة ١٨٨٧ احتجاجا شديد اللهجة الى وزير الخارجية التركية سعيد باشا مطالبا اياه بالكف عن بناء هذه الاستحكامات باعتبارها مخالفة لبنود اتفاقية ارضروم الثانية سنة ١٨٤٧ ، اما روسيا فقد رفضت التدخل في هذا الموضوع .

وكانت بريطانيا تخشى على مصب حوض نهر كارون في المحمرة ومصالحها في المنطقة ، من مسألة تسليح مركز الفاو ـ الذي اعتبرته تهديدا لاحتكاراتها التجارية البريطانية في المحمرة والعراق ، وقد دعت هذه العوامل بريطانيا الى تغيير سياستها ازاء تركيا ، فبعد ان كانت تشد ازرها ضد فارس ـ كما مر بنا ـ في اللجنة الرباعية المؤلفة لتخطيط الحدود ، اصبحت تحتج باسم فارس على مخالفة تركيا لمعاهدة سنة ١٨٤٧ . ويجدر بنا ان نتذكر ان اعمال بريطانيا في المسح والاستطلاع لربوع الاحواز كانت تقترب بنجاح من نهايتها .

وكانت شركة الملاحة البخارية في نهر كارون تستقبل اوائل عهدها ، فاذا ما اصبحت السيطرة في الاحواز امرا محبذا للبريطانيين ، فان احتلالهم فيها مركزا يدرأ التقدم المناوىء في هذه الجهات ، كان في نظرهم امرا لابد منه .

ذلك لما كان لهم من مصالح في الخليج العربي ، بل ان امبراطوريتهم في الهند كانت تصبح في خطر لو ان المجال اصبح مفتوحا لاستقرار القوة المناهضة لهم على ضفاف نهر كارون وشط العرب . وكان نتيجة لذلك كله ان اصبحت ربوع الاحواز منطقة نفوذ بريطانية يصدق عليها المفهوم المعروف لمنطقة النفوذ . فكانت هناك مصالح وامتيازات

وارجحية تتمتع بها دولة اجنبية في قطر متأخر في مضمار المدنية .

وكان الانكليز يأملون ان تكون ضفتا شط العرب ـ وهما اخطر مركز حساس على الخليج ـ في ايديهم ، ليتحكموا بهذا الطريق السوقي ، ويطمئنوا الى مستقبلهم . والى ذلك يرجع موقف الانكليز المؤيد للشيخ خزعل في صراعه مع الوالي العثماني سليمان نظيف (١٩٠٩ ـ ١٩١٠) الذي هدد بضرب المحمرة ، الا انه لم ينجح في تحقيق هدفه ، نظراً لمساندة السلطات البريطانية امير المحمرة واحتجاجها لدى الدولة العثمانية على مضايقات الوالي هذه وكان موقع المحمرة المحاذي لشط العرب قد اثر في دفع الانكليز للشيخ خزعل الى مناوأة العثمانيين ويعتبر ذلك من جملة العوامل التي جعلت الشيخ خزعل غير ميال الى ولاة الاتراك .

واللرسالة التي سلمها اللورد سولزبري في لندن إلى السفير العثماني رستم باشا تفصح لنا عن مبلغ القلق الذي كان يخامر بريطانيا من اعتقادها أن هدف الأتراك هو التفكير في السيطرة على مصالحها الاقتصادية في المنطقة . فقد جاء فيها : «ليست لبريطانيا العظمى اية اهداف عسكرية ، وإن مصالحها تعتمد على التطور السلمي للتجارة . مع المناطق الواقعة على شواطىء شط العرب ، وإن اكثرية السفن المتاجرة بين البصرة والمحمرة هي سفن تحمل العلم البريطاني ، وإن بريطانيا تنظر إلى مثل هذه التحصينات كتهديد مباشر لمصالحها الاقتصادية في العراق وحوض نهر كارون معا» . وقد هدد بالايعاز للأسطول البريطاني لهدم تلك التحصينات .

ولكن الأزمة هذه انفرجت حينما وقع السير إدوارد غراى عن بريطانيا ، وحقي باشا عن الدولة العثمانية في ٢٩ تموز سنة ١٩١٣ اتفاقية شط العرب التي اقرت مبدأ حرية الملاحة الدولية في هذا الممر المائي ، والتي تضمنت بأن يمارس شيخ المحمرة حقوقه كالمعتاد في

الأراضي الواقعة ضمن الممتلكات العثمانية ، على أن تحفظ حقوق الشيخ خزعل على المحمرة وتنظم وراثة العرش في أسرته . والواقع أن اتفاقية سنة ١٩١٣ تعد مظهرا من مظاهر عجز الدولة العثمانية عن الدفاع عن الولايات العربية ، بالرغم من أن العثمانيين اعتقدوا أنهم قد أحرزوا تقدما في إمارة المحمرة حينما شملت الاتفاقية بندا خاصا بتنظيم الوراثة في الامارة مع التسليم باستقلالها الذاتي .

والواقع أن السياسة البريطانية كانت تؤمن بضرورة إبقاء المحمرة مستقلة استقلالا سياسيا بدرجة تكفي لأن تسير المصالح البريطانية فيها سيرا طبيعيا دون تعثر وبدون منافسة أجنبية لها . وقد افادت بريطانيا من الشيخ خزعل شيخ المحمرة كثيرا من أجل توطيد نفوذها وسيطرتها على المنطقة . وكان الميجر سايكس يؤمن بضرورة الاعتماد عليه في السيطرة على جنوب إيران ، فساعدها على اتخاذ الاحواز قاعدة لصد التقدم الروسي من الشمال والزحف الألماني من الجنوب والغرب ، وامن لها مصالحها التقدم الروسي من الشمال والزحف الألماني من الجنوب والغرب ، وامن لها مصالحها النهرية في مياه كارون وتعهد لها بالقضاء على أسباب الفوضى في المنطقه من اجل استغلال نفط الاحواز . لذا فانه حظي بتأييد السفير الانكليزي في طهران ، فصار يتصرف بكيفية جعلته مستقلا عن فارس ــ برغم ما نصت عليه معاهدة سنة ١٨٤٧ ــ وقد شجعه اضمحلال سلطة آل قاجار على أن ينتهز الفرصة لاعلان استقلاله .

وقد بذلت بريطانيا محاولات عديدة لترويج تجارتها ومصالحها في إمارة المحمرة عن طريق تأسيس شركة تتولى مد الخطوط الحديد ، واستغلال المناجم الطبيعية ، على أن أهم ما شهدته المحمرة من تلك المصالح تمثل في امتياز الملاحة في نهر كارون وامتياز حقول النفط .

منشأ الملاحة البريطانية في مياه كارون :

إن الميزة الطبيعية المهمة للأحواز هي نهر كارون وروافده الذي يعتبر من أهم الممرات المائية في رأس الخليج بعد شط العرب وهو أطول منه ــ إذ يبلغ طوله زهاء ١٣٠٠كم ــ وفيضانه قبله ، وعمقه كعمق نهري دجلة والفرات ، ينبع من قلب جبال زاجروس ، وبعد أن يشق وديانا ضيقة ملتوية يخرق جبالا شاهقة وقد يضيق واديه في بعض الأمكنة وقبل أن يدخل سهول الاحواز في شمال تستر يقطع مسافة (٦٠٠) كيلومتر في المنطقة الجبلية ، وبعد ذلك ينفذ في سلسلة التلال الحجرية الرملية قرب الأحواز في سلسلة من الشلالات ويجري متعرجا في السهول الرسوبية فيصب في شط العرب قرب المحمرة ، ويحمل نهر كارون في اثناء الفيضان كميات كبيرة من الغرين الأحمر تقدر بزهاء مليون باردة مكعبة ، وقد قدر المستر مورتون ، في تقريره عن ري كارون كمية مواد الطمى العلقة في كل قدم مكعب من مئة بنسبة ١,١٧٦٠ بالنسبة للحجم ، وهذا ما جعل النهر يكون عند مصبه سد المحمرة ، والمعروف عن كارون أنه سريع الجريان نظرا لشدة انحدار مجراه ووفرة مياهه ، إذ يبلغ معدل تصريفه اكثر من معدل تصريف نهر الفرات . والنهر صالح للملاحة شمال الأحواز إلى حوالي عشرة أميال جنوب تستر ، اما جنوب الأحواز فهو صالح على طول الطريق المؤدي إلى ميناء المحمرة حوالي ١١٠ أميال حيث مصبه في شط العرب ، وذلك بالبواخر النهرية ذات غطس قدمين في جميع المواسم ، وخمسة اقدام في موسم الفيضان . ومعنى هذا أن القسم الذي يتضمن سهول الاحواز من نهر كارون تكون جوانبه مسالك جيدة لسير الملاحة ، سوى بعض الصعوبات التي تعترضها عند الأحواز لتضمن مجراه بعض المساقط المائية .

والواقع أن نهر كارون ، برغم الميزات الطبيعية التي منحها للاحواز ، فانه أصبح مصدر قلق لها عندما اتجهت الأنظار إليه لجعله طريقا ملاحيا دوليا ، وكان قبلا من أهم مناطق التجارة الداخلية العربية في الاقليم ، إضافة الى ربط المدن الكبرى في الاحواز ومراكز الزراعة فيها بموانيء الخليج العربي : فقد كانت البواخر العربية الشراعية تعمل باستمرار بين المحمرة والبصرة ، لنقل الحاصلات الزراعية ولاسيما التمور منها ـ في موسم جنيها ـ إلى موانيء الخليج العربي وإلى الهند . وقد كانت المحمرة ـ التي تسيطر على القسم الصالح للملاحة في نهر كارون ـ تمسك في قبضتها على مفترق طرق هامة جعلتها مركزا تجاريا يلفت الأنظار ، ومستودعا رئيسا لتهريب البضائع إلى فارس والعراق دون أن تدفع عنها رسوما كمركية . وقد حدثنا رولنسون عن زيارة له للمحمرة في كانون الثاني سنة ١٨٤٨ ، فيذكر انهشاهد في المحمرة خمسا وعشرين سفينة من عابرات المحيط ، على حين لم يجد في البصرة منها سوى ست سفن فقط .

ولقد اتجهت بريطانيا إلى التفكير في استغلال نهر كارون للملاحة ، عندما واجهت نقل البضائع التجارية عبر جنوب فارس ، فقد كانت الأسواق الداخلية الفارسية تقع على مسافات بعيدة من موانيء الخليج العربي ، وكانت التجارة الانكليزية في فارس في ازدياد مستمر . وقد فكرت بريطانيا في تبيد الطرق جنوبي فارس إلا أنها اصطدمت بعقبتين : عدم استتاب الأمن من جهة ، والتقلبات الجوية من جهة ، والتقلبات الجوية من جهة أخرى ، إذ أن هذه الطرق كانت تمر بمسالك جبلية فتتعرض لتراكم الثلوج مدة أربعة أشهر في العام ، لذلك اتجهت الأنظار منذ سنة ١٨٤٨ إلى نهر كارون كوسيلة من احسن الوسائل لنقل البضائع الانكليزية إلى اقرب نقطة للأسواق الداخلية الكبيرة ، فقد وجدت البيوت التجارية البريطانية أن استخدام البواخر النهرية بدل السفن الشراعية كفيل بمواجهة ذلك التزايد في حجم البضائع ، كما

انه كفيل بتخفيض نفقات الشحن ، وفي ذلك العام قام سلبي ولايارد ـ اللذان كانا يعملان في خط ملاحة الفرات ـ بدراسة الملاحة في نهر كارون ، وأثبتا صلاحيتها لمسافة مئة ميل ، إلا أن حكومة طهران ـ صاحبة السيادة الاسمية على المنطقة ـ لم تكن تتساهل مثل القسطنطينية في فتح الأنهار التي تمر داخل أراضيها للملاحة الأجنبية . ومن المؤكد أن الشاه ناصر الدين (١٨٤٨ ـ ١٨٩٦) كان يخشى إغضاب روسيا ، التي كانت مستعدة لان تطالب بامتيازات مماثلة في الشمال ، كما أن وقوع إمارة المحمرة ـ التي تتمتع باستقلال ذاتي من الناحية السياسية ـ على مداخل النهر يجعل من السهل على أية دولة أوربية تكوين علاقات تجارية وسياسية مع شيخها ، وتأييده في نزعته الاستقلالية الكاملة . إلا أن الشخصية الفارسية الوحيدة التي كانت متحمسة للمشروع هو الأمير ظل السلطان ـ شقيق الشاه الموالي للانكليز ـ الذي ساند الانكليز في اثناء أزمة التدخل الفرنسي في المحمرة سنة ١٨٨٢ .

ومن الأمور التي تسترعي الانتباه أن شيخ المحمرة الحاج جابر وابنه الشيخ مزعل من بعده عارضا المشروع ووقفا بوجهه خوفا من ضياع استقلالهما ، والتدخل في شؤونهما الداخلية .

وكان المشروع يهدف ـ بلا شك ـ إلى سيطرة بريطانيا السياسية والاقتصادية على الاحواز ، كما يهدف ـ من الناحية العسكرية ـ إلى سهولة إرسال قوات عسكرية في نهر كارون إذا ما قامت حرب مع روسيا . أما من الناحية التجارية ، فهو يهدف ـ بلا ريب ـ إلى تخفيف سيطرة روسيا على التجارة الفارسية ، وإفساح المجال أمام التجارة الانكليزية للحصول على بعض الامتيازات الخاصة

والحقيقة أن البواخر الانكليزية كانت تصعد نهر كارون وتهبط فيه من وقت لآخر منذ سن ١٨٣٧ ، ويذكر الدكتور نوار أنه : «ليس من قبيل المصادفة أن تقوم تلك البواخر المسلحة برحلاتها في تلك الجهات ،

وإنما من قبيل الضغط على إيران حتى تقبل الشروط الانكليزية» ، وقد استمرت محاولات الاقناع الانكليزية لفتح كارون حتى سنة ١٨٨٨ ، فقد لاحظنا كيف أرسل جيمس أوترام قائد الحملة البريطانية على سنة ١٨٥٦ طلائعه إلى الأحواز ، وأخذ يتفاوض مع الحاج جابر شيخ المحمرة للحصول على امتيازات للملاحة في النهر .

وقد استمرت الاتصالات بعدئذ بين لندن وطهران والمحمرة إلى ما يقرب من ١٧ سنة أسفر الفرمان الشاهنشاهي الذي بموجبه افتتح نهر كارون الأسفل لغاية الأحواز للبواخر العالمية . ففي تشرين الأول سنة ١٨٨٨ أعلن الشاه ناصر الدين فتح نهر كارون للملاحة النهرية والتجارة الدولية ، ولكي يتجنب الشاه التعقيدات ، أطلق على المشروع كله اسم (لوائح تنظيمية) بدل كلمة امتياز . وتم فتح نهر كارون لمسافة ١١٧ ميلا من مصبه ، ولكن على شرط أن تستمر الامتيازات العثمانية السابقة الخاصة بالسماح للسفن العثمانية بملاحة هذا النهر من المحمرة إلى تستر .

على ان اهم ما جاء في ذلك القرار مانصه : «إن الحكومة الفارسية ـ وهي تعتزم النهضة بالتجارة والثروة في أقاليمها وتطوير الزراعة في الأحواز ـ قد أبلغت السفن التجارية لكل الدول ـ دون استثناء ـ أن تتعهد بنقل تجارتها في نهر كارون من المحمرة إلى سد الأحواز ، هذا إلى جانب السفن الشراعية التي كانت تتخذ من نهر كارون ممرا لها ، بشرط أن لا تتعدى هذه السفن سد الأحواز ، ذلك لأن المنطقة التالية للسد من حق الحكومة الفارسية وحدها ، ورعاياها . أما رسوم المرور فسوف تدفع في المحمرة تحت إشراف الحكومة الفارسية . وعلى السفن الا تحمل أية بضائع محرم دخولها إلى البلاد ، والا تبقى فترة أطول مما هو ضروري لتفريغ حمولتها من البضائع التجارية .

أما الفقرات الأخرى من محتويات النظام ، فقد ناقشت قضية استغلال المناطق المحيطة بالنهر وبناء المخازن ، وقد احتكر احد امراء

آل قاجار المعروف بنظام السلطنة ـ بناء هذه المخازن ، ودرت عليه اموالا طائلة .

وعندما افتتح نهر كارون للملاحة النهرية ، أسست شركة ستيفن لنتش للملاحة في العراق مصلحة نقل نهرية بين المحمرة والاحواز ، ثم عقب ذلك قيام هذه الشركة بمد طريق معبد بين الأحواز وأصفهان مخترقا مناطق البختيارية .

والواقع أن قرار الملاحة ، برغم عدم اقتصاره على دولة واحدة ـ كما هو الحال في الملاحة النهرية لأنهار العراق ـ ، وصراحة القرار بفتح النهر للملاحة الدولية دون احتكار شركة من الشركات ، فانه اتضح بعدئذ أن الانكليز وحدهم الذين استفادوا من ذلك القرار . والواقع ان تحقيق تلك المكاسب بجوانبها السياسية والتجارية كانت موضع اعجاب اللورد كيرزن ، الذي اعتبرها نصرا بريطانيا ساحقا .

وهكذا شرعت شركة لنتش في إرسال سفنها من شط العرب إلى اعالي نهر كارون ، وقد ساندتها حكومة الهند من الناحية المالية ، وقدمت لها مبلغ الفي باون إسترليني سنويا لجعل المشروع يقاوم الصعوبات التي تعترضته ، ولو أن الأخيرة صرحت بان مصالحها في نهر دجلة هي أوسع من مصالحها في نهر كارون وفي الوقت الذي تعهدت فيه الحكومة البريطانية بالاشراف على الملاحة في نهر كارون وتقديم المساعدات التي تتطلب زيادة التجارة في ذلك النهر ، كانت حكومة الهند قد تعهدت بالاشراف على الملاحة البريطانية في العراق .

أما القسم الواقع شمال الأحواز من نهر كارون ، فقد حصل على امتياز الملاحة النهرية فيه الحاج رئيس التجار ـ وزير الشيخ خزعل ـ حتى نشوء الشركة الناصرية للملاحة ، التي اعتبرتها شركة لنتش تشك عراقيل في وجهها .

وبعد قيام شركة لنتش بتسيير بواخرها في نهر كارون ، تغيرت سياسة المحمرة وزالت المعارضة التي صرح بها شيوخ المحمرة ضد

الملاحة النهرية . ولقيت الشركة مساعدات قيمة من الشيخ خزعل ـ الذي تبوأ الحكم سنة ١٨٩٧ ـ وتعهدت له بأن : موافقته على اتفاق حرية الملاحة لشركة لنتش في كارون ـ الذي عقد سنة ١٨٨٨ ـ سوف لا يؤثر على مركزه كأمير مستقل استقلالا ذاتيا في الاحواز .

وقد شمل تعاون الشيخ خزعل مع الشركة جميع رعاياه في الاحواز ، وقد سمح لتجار المحمرة بنقل بضائعهم على بواخر شركة لنتش . بعد ان احتكرت بواخر شيوخ المحمرة الخاصة التجارة ردحا من الزمن ، كما روي بأن تكون أجور النقل على بواخره موازية لأجور شركة لنتش .

ولكن لو التفتنا جانبا الى الأثر الذي خلفته الملاحة الانكليزية التجارية في نهر الكارون على المصالح العربية في تلك المياه لوجدنا انها اضرت بها ، واستطاعت ان تحل محل الملاحة العربية الشراعية التي توقفت عن العمل ، فاصيب التجار العرب بخسائر مادية فادحة ، اذ ابعدهم تلك الاحتكار عن مجالات المشاركة في التجارة الداخلية التي هي من مقومات حياتهم الرئيسية في المنطقة ، على حين ربحت شركة لنتش ارباحا طائلة . وهكذا بدأت الاحتكارات البريطانية للتجارة في الاحواز ـ التي اعقبها نفوذ سياسي وعسكري واسع النطاق .

ومن أجل إدارة تلك المصالح ، أسس الانكليز لهم في المحمرة سنة ١٨٩٠ وكالة قنصلية ، كما انشأوا دائرة بريد سنة ١٨٩٢ ، ثم ابدلت وكالة القنصلية في المحمرة إلى قنصلية ، واسسوا وكالة اخرى في الأحواز سنة ١٩٠٤ .

امتياز حقول النفط :

لم تكن المصالح البريطانية في الاحواز مقصورة على الملاحة في مياه كارون فحسب ، وإنما كان لهم فيها امتياز آخر اكثر اهمية ، ذلك هو :

امتياز حقول النفط . ففي ٢٨ اذار سنة ١٩٠١ منح الشاه مظفر الدين امتيازا للتنقيب عن النفط في أراضي الاحواز ـ وهو أول امتياز من نوعه في الشرق الأوسط ـ مدته ستون سنة إلى مستر وليام نوكس دارسي بعد أن حصل الشاه فيه عى أسهم قيمتها ثلاثون ألف جنيه ، في حين ذهب مبلغ عشرين الف جنيه أخرى في صورة أسهم إلى رئيس الوزراء واثنين آخرين من الموظفين قاما بالمفاوضات الخاصة بشروط الامتياز . وكانت شركة دارسي ملزمة بالبدء في العمل في خلال عامين ، وبأن تدفع ١٦٪ من أية أرباح تحققها . وتحاشيا لاعتراضات روسيا استبعدت المقاطعات الخمس الشمالية (أذربيجان ، جيلان ، مازندران ، جرجان ، خراسان) المتاخمة لبحر قزوين من الامتياز .

وقد نجح دارسي في تأسيس شركة برأسمال قدره ستمائة الف جنيه إسترليني ، وقد استنزفت أبحاثه عن النفط ثروته التي كان قد جمعها من مناجم الذهب في نيوزلندا ، حتى اضطر إلى مفاوضة شركة ستاندرد أويل الأمريكية ، إلا أنه قبل أن تتم هذه المفاوضات تدخلت الحكومة البريطانية معترضة على إدخال شركة أمريكية في منطقة نفوذها ، وأوعزت إلى شرك بورما ـ وهي شركة إنكليزية ـ أن تتقدم لانقاذ دارسي الذي استمر في أبحاثه وبعد مرور سبع سنوات على منح الامتياز تم العثور سنة ١٩٠٨ على النفط في مسجد سليمان ـ إحدى مدن الاقليم الشرقية على بعد ١٥٠ كم من رأس الخليج ـ على عمق ١١٨٠ قدما ، واتضح أن تفجره قد تم في الاحواز قبل غيرها من الامارات العربية على الخليج .

وفي السنة التالية من العثور على النفط دخلت الحومة البريطانية إلى الميدان واسست سنة ١٩٠٩ شركة النفط الانكليزية ـ الفارسية برأسمال قدره مليونا جنيه من الاسهم العادية ـ اي ما يعادل اكثر من نصف رأسمال الشركة ، وأخذت على عاتقها مهمة تنفيذ الامتياز ،

وحصل دارسي على مائتي ألف وثلاثة آلاف جنيه تعويضا له ، إضافة إلى عدد من الأسهم التي بلغت قيمتها ٩٠٠ ألف جنيه .

ونتج عن ذلك أن أصبح امتياز دارسي التجاري احتكارا حكوميا بحكم الواقع ، وأصبح أي خلاف معه يبدو نزاعا مع الحكومة البريطانية .

ونلاحظ أن الانكليز ــ الذين فاوضوا الشاه في أمر التنقيب عن النفط في الاحواز ، باعتبار أن تلك الاراضي تقع تحت حمايته الاسمية ، ولأن تفجر النفط كان على أطراف إمارة الاحواز ــ اضطروا أخيرا إلى فتح باب المفاوضات مع الشيخ خزعل ــ صاحب السيادة الفعلية في الامارة ــ برغم احتجاجات الشاه عليهم . والواقع أن لهذه المفاوضات مدلولها ، فان بريطانيا ــ الدولة العظمى ــ لم تكن بدرجة من السذاجة لأن تتعامل مع الشيخ خزعل وهو لا يملك ناصية الأمر في إمارته ، وتترك الشاه جانبا ، فلو كانت تعلم أن الشاه يسيطر سيطرة كاملة على إمارة الاحواز ، والشيخ خزعل تابع من اتباعه يأتمر بأمره ، لما توانت عن مفاوضته وكسب رضاه ، ولكن الدلائل كلها تشير إلى ان الشيخ خزعل استطاع ان يحقق زيادة عما كان عليه ابوه واخوه من الاستقلال التام عن طهران . ومن ذلك ، أن السير برسي كوكس ــ الوكيل البريطاني في نجارى والمتولي شؤون المناطق المحيطة بالخليج ، الذي حضر إلى المحمرة ــ أجرى مفاوضاته معه ، ويحدثنا السير أرنولد ولسن ــ وهو سكرتير الوفد المفاوض للشيخ خزعل ــ : «بالرغم من نفوذ كوكس وسلطاته الواسعة ، فانه كان حريصا عل الا يضغط على الشيخ خزعل كثيرا في أثناء المفاوضات ، تجنبا لحدوث خلافات في الرأي ، وكان كوكس يستعمل أحيانا بعض الجمل الفارسية والعربية في خلال المفاوضات التي استمرت اربعة ايام ، وكانت هذه المناسبة ذات أهمية كبرى بالنسبة للشيخ خزعل : لاعتقاده بأنه ساهم في تأسيس شركة كانت تهيمن على كل المصالح والمشروعات التجارية» .

وكان هدف المفاوضات التوصل لعقد اتفاقية بشأن جزيرة عبادان للبدء في إنشاء معمل للتكرير فيها ، كما اتصل بالشيخ خزعل السير أرنولد ولسن والقنصل البريطاني في الأحواز للاتفاق معه على ربط خط للأنابيب طوله ١٣٠ ميلا بين الحقول ومرفأ النفط في عبادان . فتوصل الطرفان في السادس من أيار سنة ١٩٠٩ إلى اتفاق يقضي بدفع ٦٥٠ جنيها سنويا إلى الشيخ خزعل كايجار لموقع معمل التكرير ومرور انابيب النفط عبر أراضيه ، إلى جانب تأييد استقلاله ضد ادعاء الحكومة المركزية . ووعد بمساعدة عسكرية إذا ما تعرض لأي اعتداء ، ويذكر السير أرنولد ولسن : «بدون إعطاء تلك الوعود وضمان الحماية له لبسط نفوذه على المنطقة لم يكن هناك اي امل في الوصول معه إلى اتفاق حول مد الأنابيب ، وقد تم ذلك فعلا وباعهم الشيخ الأرض اللازمة على أن ترد إليه بانتهاء مدة العقد» . والواقع أن الشيخ خزعل كان على علم بالرابطة الوثيقة بين الشركة والحكومة البريطانية ، وعرف أن قبوله لعروض الشركة يعطيه ضمانة لحريته من سيطرة السلطات الفارسية . وهكذا بدأ تبني الانكليز العملي للأحوال القائمة في إمارته ، وانشىء تمثيل متبادل بينهما مبني على واقع الحياة ، واستمرت الشركة تتعامل معه حتى تقويض حكمه سنة ١٩٢٥ . وفي سنة ١٩١٢ اكمل مد الأنابيب لتنقل ٤٠٠ ألف طن سنويا من الزيت الخام إلى عبادان ، حيث أعد سنة ١٩١٣ رصيف لشحن الزيت الخام في الناقلات لغرض تصديره ، كما اكمل إنشاء مصفى للتكرير .

وعندما قررت وزارة الحربية البريطانية ، التي كان يرأسها ونستون تشرشل سنة ١٩١٣ ، أن تعدل عن استعمال الفحم إلى استعمال النفط كوقود للبحرية ، أرسلت بعثة لدرس ميادين النفط في الاحواز وتقديم تقرير عن إمكانية اعتماد الأسطول البريطاني عليها ، فجاء في تقرير اللجنة ما أرضى الوزارة البريطانية ، وأعلم المستر تشرشل مجلس العموم في تموز سنة ١٩١٣ ، أن وزارة البحرية تحاول أن تسيطر على

بعض ميادين النفط ، لتؤمن ما يحتاج إليه الأسطول من هـذه المادة ، فاقر البرلمان عشية الحرب العالمية الأولى بأغلبية ٢٥٤ صوتا ضد ١٨ شراء الحـكومة حصـة الأغلبية في الشركة الانكليزية ـ الفـارسية ، فـدفعت الحـكومة في اذار ١٩١٤ مبلغا قـدره ٥,٢٠٠,٠٠٠ جنيه للشركة . وهكذا اكتسبت حقول النفـط الأحـوازية اهتمـاما خـاصا كمصدر رئيس لتمـوين الامبراطـورية البريطـانية بالنفـط الذي بلغ إنتاجه في تلك الحقول عام ١٩١٤ نحو ٢٧٠ الف طن ، صعد في نهـاية الحرب إلى ٩٠٠ الف طن في العام . وكان أغزر الآبار في الاحواز على الاطلاق البئر (ف ٧) أعظم الآبار شهرة ، والذي لا ينافسـه غير بعض الآبار المكسيكية الكبرى ، فقد ارتفع الانتاج فجأة فيه من ٣٣ الفا إلى ٦٠٠ الف غالون يوميا ، وكان إنتاجه وحده يرهـق إمـكانيات معمـل تكرير عبادان وعند بدء الحرب العالمية الأولى كانت الشركة قد انجزت حفر مائتي بئر . وقد أعطيت الشيخ خـزعل المواثيق بتأييد بريطـانيا سلطته ضد اي اعتداء . وفي هذا المجـال يتحـدث السـير برسي كوكس فيقول : «لقد ربطتنا معه مسؤوليات لايمـكننا ـ مهمـا كلفنا الأمـر ـ التخلي عنها ، فقد تعهدنا له بأننا مسـتعدون لتأييده في كل مـا يؤمـن حقوقه في علاقاته مع حكومتي الفرس وتركيا ، وكانت لنا معه صـلات تجارية قـوية» ، وقـد تناولت جـريدة التايمس اللندنية في مقـالها الافتتاحـي الصـادر في ٢٠ كانون الثاني تلك العـلاقة فـذكرت : «أن بريطانيا قد قدمت له الوعود بالحماية على شرط أن يظل كأحد الرعايا الفرس ، وأن يتصرف على هذا الإساس مدركا أن الحكومة المركزية في طهران لا تحاول المساس بحقوقه المشروعة والمكتسبة او أن تجرده من ممتلكاته» . وامام ذلك التأييد احتجت طهـران لهـذا «التطـاول» على سيادتها ، وارتفعت في مجلس العموم البريطاني اصوات ضد تصرفات شركة النفط الانكليزية ـ الفارسية ، إلا أن قيام الحرب العالمية الاولى

جعل الانكليز يضعون المنطقـة تحـت إشرافهـم العسـكري المباشر وتجاهلوا حكومة طهران ، وتعاملوا مباشرة مع الشيخ خزعل .

وبعد الحرب العالمية ـ على الرغم من نشوء سـلطة إيرانية حـاكمة قوية في شخص رضا خان ـ استمرت شركة النفط في التعـامل المباشر مع الشيخ خزعل ، فاتهمت الحكومة الفارسية المسؤولين الاداريين عن الشركة بتشجيعه على الاستقلال ، إلا أن الحكومة البريطـانية انكرت انها تعمل على إخضاع الامارة للحماية والانفصـال ، وإن كان ذلك لا ينفي أن لها علاقات خاصة مع شيخها .

ويعلق جورج لنكزوفسكي على السياسة التي اتبعتها بريطانيا بعدئذ مع رضا خان ، فيقول : «مع أن الحكومة البريطانية وافقت واقعيا على

ويعلق جورج لنكزوفسكي على السياسة التي اتبعتها بريطانيا بعدئذ مع رضا خان ، فيقول : «مع أن الحكومة البريطانية وافقت واقعيا على
السياسة الجديدة متخلية عن الشيخ خزعل لرحمة الحـاكم الجـديد في إيران ، فان الشركة قد خسرت كثيرا بسبب سياستها القصيرة المدى» .

اما بيربي ، فانه يلقي اللوم على تلك السياسة فيقـول : «مـن أجـل اللعب بورقة الأمير خزعل ضد سلطة بعيدة ، كأن يفترض أن تكون هذه السلطة ضعيفة ، والأمر الذي لم يكن كذلك بالنسبة لايران بعـد اعتلاء رضا شاه بهلوي» . والواقع أن مركز الشيخ خزعل الدولي قـد تعـزز كثيرا عما كان عليه قبل تفجر النفـط في إمـارته والتزامـه المصـالح البريطانية ، وإلى ذلك يشير السير أرنولد ولسن في مذكراته : «إن مركز الشيخ خزعل اليوم ـ إذا ما قورن به منذ عشرين عامـا عندمـا اعتلى عرش الامارة ـ يعتبر تبريرا كافيا لسياسة تشجيعه الفعـال للمشروع البريطاني .. إننا نعتز به وهو يثق بحمايتنا له من اعدائه ومن خانات البختارية» .

وكان هم الانكليز المحافظة على العلاقة بينه وبين زعماء البختارية ، حفظا لسير العمل في شركة النفـط . والمعـروف عن قبيلة البختارية ـ

التي تحادد مناطق النفط في الأطراف الشمالية من الاحواز ـ أنها كانت على خلاف مستديم مع الشركة والشيخ ، ولم تتوان في انتهاز الفرص لخلق المشاكل ضد الشركة والشيخ معاً ، هذا في الوقت الذي كان معظم أفرادها يعملون في حقول الشركة ، فقد بلغ عدد العمال في الشركة عام ١٩٢٣ ما يقرب من عشرين الف عامل من البختارية وعشائر الشيخ خزعل العربية .

ويذكر السير أرنولد ولسن ـ مدير شركة النفط الانكليزية ـ الفارسية ما بعد الحرب ـ أن أعمال الشركة كنت تسير سيرا طيعيا في الاحواز بفضل نفوذ الشيخ خزعل ، في الوقت الذي لم يكن هذا العمل ممكنا في أية منطقة اخرى من بلاد فارس .

الشيخ خزعل ومقاومة التدخل الفارسي

التيارات الداخلية في فارس وأثرها على الاحواز :

لاشك أن ما أصصاب فارس في تأريخها العام من احداث داخلية وتدخلات خارجية قد أثر تأثيراً واضحاً على الوضع السياسي لنطقة الاحواز ، ولما كنا قد تطرقنا في فصل سابق إلى التأثيرات الخارجية ، فسنولي الوضع الداخلي اهتمامنا بالقدر الذي أثر فيه على خطط سير الامارة .

والواقع أن ذلك التأثير يأتي من جوانب متعددة ، منها : مجاورة الامارة لفارس ، وأطماع فارس بذلك الاقليم ومحاولتها المستمرة لضمه إليها ، ووقوعه وسطاً بينها وبين عدوتها التقليدية ـ الدولة العثمانية ـ ، فراحت تسعى لكسب ولائه وجعله منطقة حاجزة لصد تعديات الأتراك .

ويمثل حكم آل قاجار في تأريخ فارس الحديث الفترة البارزة التي لعبت فيها الفوضى والانحلال دوراً كبيراً وظاهراً ، مما افسح المجال أمام القوى الأجنبية للتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد ، فكانت الاحوال الاجتماعية والاقتصادية متأخرة جداً والوحدة الوطنية مفككة إلى أبعد حد ، والوضع السياسي متهريء ، والشاه يعيش بمعزل عن جماهير شعبه ، وقد أرهقهم بالضرائب والغرامات والمصادرات من أجل بذخه ورحلاته المستمرة إلى أوربا ، وارتمى في أحضان روسيا حيناً وإنكلترا حيناً اخر للفوز منهما بقروض تخفف عنه الضائقة المالية .

ويعتبر فتح علي شــــاه (١٧٩٧ ـ ١٨٣٤) ـ الذي خلف عمـــه أغا محمد ، أول ملوك الدولة القاجارية ـ اقوى شخصية ثبتت أقدام أسرة آل قاجار في فارس . وقد بدأ في عهده الاتصال المباشر بالدول الأوربية ، فأصبحت فارس ـ منذ ذلك الحين حتى القرن العشرين ـ مـوزعة بين المصالح المتعارضة لروسيا وبريطانيا . وكانت سياسة الشاه ترمي إلى معالجة العسر المالي الذي ألم به من جراء إسرافه ونفقات حـربه مـع روسيا ، تلك الحرب التي أرهقت فـارس وحملتهـا فـوق مـــا تطيق واكرهتها في ٢١ شباط سنة ١٨٢٨ على عقد معاهدة تركمـانجي التي تنازلت بموجبها عن مقاطعتي روان ونخشـبان الشـماليتين ، وكانت المحمرة في عهده قد أخذت بالازدهار لتحل محـل إمـارة بني كعـب في الفلاحية وذلك على يد االحاج جابر الذي بدأ حياته السـياسية بتكوين إمارة مستقلة فيها ؛ وهـذه الربوع بصـورة عامـة كانت آنذاك تتمتع بمزيج من الهدوء والسلام النسبيين ، لا سـيما بعـد عقـد معـاهدة ارضروم الأولى سنة ١٨٢٣ .

وقد خلف علي شاه حفيده محمد شاه (١٨٣٤ ـ ١٨٤٨) في الحـكم ، فبذل جهده لتحسـين الحـالة الداخلية للبلاد وإلغـاء التعـذيب ومنع استيراد العبيد وقام بمحاولات غير موفقة لاعادة فتح هرات (١٨٣٧ ـ ١٨٣٨) وكانت نتيجة إخفـاقه فيهـا أن منح الروس أعظـم نفـوذ في بلاده ـ رداً لما لاقاه من معارضة بريطانيا الشـديدة له فـاستطاع أن يحقق بوساطتهم كسباً سياسيا فريداً مـن نوعه وذلك بضـمه إمـارة المحمرة المستقلة إلى ممتلكاته باتفاق مع الدولة العثمـانية في أرضروم سنة ١٨٤٧ ولم يكن ذلك الضم في الواقع إلا ، اسـمياً إذ أنه لم يؤثر على استقلال الامارة الحقيقي ، فـالولايات الفـارسية نفسـها كانت مفككة الأجزاء لا تخضع لسلطة الشاه المركزية الذي كان من عادته أن يبيع الولاية للرجل الذي يمهرها بالثمن الأعلى فكيف الحال بالنسـبة لامارة المحمرة العربية ؟ وهي حديثة العهد بتبعيتها للقافلة الفارسية ،

ولم يكن يربطها بفارس إلا حبر على ورق ، فـانها بقيت مـن الناحية الواقعية خاضعة لسلطة حاكمها الشرعي الحاج جابر فقط .

وعندما توفي محمد شاه في ٤ أيلول سنة ١٨٤٨ ، أرتقى العرش اكبر أولاده ناصر الدين شاه (١٨٤٨ ـ ١٨٩٦) وهو في السادسة عشرة من عمره ؛ ليواجه صراعا حاداً مـع حـركة «الباب» الدينية وهـي مـن الحركات الخطيرة في تأريخ فارس الحديث ، التي رحب بتعاليمها عدد كبير من الفرس الذين أطلقوا على صاحبها لقب (الباب) ، وقد حـدث صراع عنيف دام بين الشاه واتباع الدعوة الجديدة التي عمت معـظم أرجاء فارس ، قتل على أثرها (الباب) بأمر من حـكومة فـارس في ٨ تموز سنة ١٨٥٠ ، وبعد سنتين تقريبا قتل حـوالي أربعين ألفـا مـن اتباعه ، لتحل محلهم حركة مماثلة أخرى ، تلك هي حركة البهائية .

والواقع أن السنوات الأولى من حكم ناصرالدين شاه شهدت أزمات سياسية خانقة ، ففي صعيد السياسة الخارجية حـدث الصـدام مـع بريطانيا حول هرات ، وكان من نتائجه تعرض إمارة المحمرة العـربية إلى الاحتلال وإنزال القوات البريطانية في الاحواز التي لم تجل عنهـا إلا بعد إبرام معاهدة باريس ١٨٥٧ .

أما بالنسبة للسياسة الداخلية ، فقد اتخذ نظام الملك صدراً أعظـم ، فأراد هذا الوزير تثبيت سلطة الحـكومةالمركزية على امتداد الخليج ، فعمد إلى القضاء على الأمراء الذين كانوا يعتمدون على عصـبياتهم ، ويكتفون بالاعتراف بسيادة الشاه الاسمية . واستكمالا لهذه السياسة فكر في شراء بعض السفن من بريطانيا ، وكتب إلى بالمرستون يرغبه في هذا المشروع ، ولما وجد منه تلكؤاً عقد صفقته مـع شركة المانية ، لبناء سفينتين : كبيرة أطلق عليها اسم برسوبولس ـ تزن ٦٠٠ طن وحمـل اربعة مدافع ـ وصل إلى بوشهر سن ١٨٨٥ واسـتخدمت في الخليج ، وصغيرة بأسم سوس ، وضع في نهـر كارون شـمال الأحـواز كزورق اتصال تحت أوامر حاكم الاحواز ولكن الحرب الانكليزية الفـارسية

كانت قد قضت عل مقدرة فارس العسكرية لتحقيق أهدافها ، مما جعلها عاجزة عن إخضاع تلك الأقسام المطلة عى الخليج ، لا سيما المحمرة . فاضطره ذلك اخيرا الى التسليم بالأمر الواقع ، فأصدر مرسوم ملكيا يتضمن الاستقلال الذاتي له ، ولم يكن قد مضى على توقيع معاهدة أرضروم الثانية سوى عشر سنوات .

كم انه اتجه إلى إدخال مظاهر الحضارة الغربية إلى بلاده بالقدر الذي يساعده على توطيد سلطته . فأنشأ عام ١٨٧٩ لواءا من القوازق الفرس على النمط الروسي ، وجعل مدربيه وضباطه من الروس ، وحاول زيادة موارده فشجع رؤوس الأموال الأجنبية الى التدفق لبلاده ، فقد أسس البنك الشاهنشاهي برأسمال بريطاني سن ١٨٨٩ ، وانشىء بنك الخصم الروسي للقرض والتسليف سنة ١٨٩٠ ، كما منح امتيازات لمد خطوط تلغرافية واخرى حديدية . وكان جوليوس رويتر قد حصل منذ سنة ١٨٧٢ على حصة الأسد من هذه الامتيازات ، حتى إذا ما قام الشاه في السنة التالية برحلة إلى أوربا ـ بغية الاطلاع على ما بلغته الحضارة هناك ـ قوبل في بطرسبرك بالنفور الشديد مما دفعه إلى إلغاء الامتياز عقب رجوعه . وقد قام بعد ذلك برحلتين أخريين إلى أوربا في سنة ١٨٨٧ وسنة ١٨٨٩ وتطلب منه الأمر عقد قروض لتغطية نفقات أسفاره ـ المتسمية بالاسراف ـ ، فوقعت فارس في ضائقة مالية ـ لم تسلم منها حتى زوال الحكم القاجاري ـ سلبتها استقلالها وقوت فيها النفوذ الأجنبي .

والواقع أن فارس قد أصيبت في عهد هذا الشاه بانهيار كبير في نظامها الاقتصادي وشؤونها الادارية ، وفي عهده تغلغل الانكليز في حوض نهر كارون ، وحصلت شركة لنتش التجارية على امتيازات الملاحة فيه . وكانت السفارة البريطانية تعتبر نفسها أيامه صاحبة النفوذ على جنوب غربي إيران بما في ذلك قاعدة فارس وميناء بندر عباس ، يساعدهم في بسط نفوذهم العرب ، الذين يشكلون قوة عسكرية

كبيرة ، برغم أن حاكمهم الشيخ مزعل قد أبدى معارضة شديدة أول الأمر لذلك النفوذ ، ولكنه سلم أخيرا بالأمر الواقع وغدت إمارته تحت الاشراف البريطاني .

ومن أبرز ما وقع للشاه ناصر الدين في أواخر سني حكمه أنه التقى ـ في رحلته الأخيرة إلى أوربا ـ بجمال الدين الأفغاني في ميونخ فاصطحبه إلى طهران . فكان ذلك مدعاة لتعقيد الأمور على الشاه ، إذ ان المصلح الأفغاني أخذ يبث دعوته الاصلاحية في طول البلاد وعرضها داعيا إلى الاستقلال في سياسة فارس الخارجية وإبعاد الاقتصاد الفارسي عن الاحتكار ، فاستطاع مريدوه أن يبثوا تعاليمه ، مما أثار الشاه فأخرجه عن فارس إلى العراق . إلا أن حركة قومية مصبوغة بالصبغة الدينية كانت قد تبلورت في فارس ضد الاستغلال الاقتصادي الأجنبي ، وقد وصلت هذه الحركة إلى أوجها في خلال الثورة التي قام بها الشعب الفارسي ضد امتياز احتكار تجارة التبغ الذي عرف باسم (Tobacco Regie Concession) الممنوح إلى أحد الراسماليين الأوربيين الميجر تالبوت في ٨ اذار ١٨٩٠ لقاء مبلغ سنوي قدره خمسة عشر ألف جنيه استرليني ولمدة خمسين سنة .

وقد ساهم رجال الحكم في فارس بالامتياز ، فاشترى رئيس الوزراء أمين السلطنة (٥٠٠) سهم إلا أن المشروع ، نال معارضة السفارة الروسية منذ ولاته ، كما حمل اتباع الافغاي ـ يسندهم علماء النجف وكربلاء ـ لواء المعارضة ، مما أثار عاصفة من الاستياء ، فأقلع الرعية عن التدخين ونشبت الاضطرابات في البلاد ، واضطر الشاه نتيجتها إلى إلغاء الامتياز ليدفع للشركة تعويضا قدره نصف مليون باون ، ولكن ذلك لم يخمد نار الاستياء الشعبي إلا بعد أن خر ناصر الدين شاه قتيلا سنة ١٨٩٦ بيد أحد اتباع جمال الدين المدعو ميرزا مهدي ، بعد حكم دام قرابة نصف قرن كانت في خلاله فارس دولة منهارة سياسيا وإداريا ، والولايات فيها لا تخضع لسيطرة الحكومة المركزية ، وكان

ظل السلطان ـ من أمراء آل قاجار الذي يعتمد بصورة كلية على صداقة بريطانيا ـ قد نصب نفسه واليا على اكثرية المقاطعات الفارسية ، وهو من أكثر الأمراء حسداً لمنافسه القوي شيخ المحمرة ، لأن عربستان هي المنطقة الوحيدة التي كانت تتمتع برخاء اقتصادي نسبي .

وقد طالب ، في رسالة خاصة بعثها إلى المقيم البريطاني في الخليج العربي ، مساعدته في احتلال المحمرة متذرعا برحلة مهندس فرنسي لمنطقة ، تلك الرحلة التي وصفها بكونها مؤامرة روسية ـ فرنسية لازالة النفوذ البريطاني من جنوب فارس والخليج العربي .

وفي عهد مظفر الدين شاه (١٨٩٦ ـ ١٩٠٧) ـ الذي تبوأ العرش إثر مصرع والده ناصر الدين ـ لم تحظ فارس منه بأي اهتمام في شؤونها ، وكلفت رحلاته إلى أوربا الخزانة مبالغ طائلة تركتها خاوية على الدوام ، وأخذ الأمراء ورجال البلاط يكسون الثروات في وقت لم يستطيع فيه الموظفون الآخرون الحصول على مرتباتهم ، وقد تدهورت احوال البلاد الاقتصادية وعاشت طبقة الفلاحين في حرمان مريع ، إذ تهدمت سدود الري نتيجة اهمالها وزحف الجدب إلى البلاد ، فأصاب الحقول والقرى . مما دفعت تلك الحالة المزرية الشاه إلى عقد قرض مع روسيا سنة ١٩٠٠ أتبعه بقرض اخر في السنة التالية ، وجعلت كمارك فارس ضمانة لتلك الديون .

والواقع أن مسألة تنظيم إدارة الكمارك خلقت مشكلة مستعصية بين الشاه والشيخ خزعل ، ومن المعروف أن الاثنين جاءا إلى الحكم في وقت متقارب ، فكانت علاقتهما باديء الأمر وطيدة ، وعندما تبوأ الشيخ خزعل كرسي الحُكم منحه مظفرالدين القاب ابيه واخيه ، وأضاف إليه لقب سردار أرفع وسردار اقدس واهداه الأوسمة . وكان الشيخ خزعل يسيطر على كمارك الاحواز ، ولكن حدث أن انتقلت إدارة الكمارك الفارسية إلى إدارة بلجيكية ، وذلك لأن الوطنيين

اجبروا الشاه على استخدام فنيين من دولة بعيدة عن الصراع الدولي في فارس ، وليس لها نفوذ في الخليج العربي ، فاتجه إلى بلجيكا .

وقد تمكن سفير فارس في بروكسيل من التعاقد مع الحكومة البلجيكية لتزويد بلاده بخبراء ماليين . فوقع الاختيار على المستر نوس مدير الضرائب والكمارك لمقاطعة برابانت لتنظيم كمارك الموانيء على الخليج العربي .

وقد اثار الشاه قضية السيطرة على ميناء المحمرة الذي كان تحت سيطرة الشيخ خزعل ، إلا أن الشيخ خزعل ـ الذي ورث عن أسرته سياسة الشك والريبة بالعلاقات والوعود الفارسية ـ رفض مسؤولية اية مشاريع أجنبية من شأنها تحويل المحمرة إلى ميناء دولي خشية السيطرة عليه ، ولذلك دأب على سياسة الانعزال عن فارس . لذا فان الشاه اخذ يحاول الحد من سلطته ، وقام بمحاولات عديدة لتصديع مركزه ، فدعا الروس لبناء ميناء على ساحل الاحواز ليهدد الأفضلية البريطانية في الامارة ، التي تلتزم الشيخ خزعل ، كما حاول الوزير الأمريكي في طهران كريسكوم بأهمية قيام أمريكا بدور تجاري في الاحواز .

ومن هنا بدأ الشيخ خزعل يفكر بصورة جدية لأجل وضع أسس مستقبل المحمرة السياسي والاقتصادي ، وكان يؤمن بأن الوقت قد حان لزوال آل قاجار ، ولذلك حزم أمره الى إعلان استقلاله للعالم الخارجي متى ما شعر بالخطر يحدق بفارس ولكنه رأى قبل ذلك تقوية علاقه مع بريطانيا ، لتضمن له المساندة في الاحتفاظ بمركز المحمرة ، في حزيران سنة ١٨٩٨ ، ومع هذا فان الشيخ خزعل أخبر المقيم البريطاني في الخليج العقيد مي : بأنه لا يود قطع علاقاته مع الشاه ، ولكنه سيقاوم محاولاته لارسال الخبير البلجيكي نوس الى المحمرة ، وأعلن عن تذمره من سياسة الشاه الذي أخذ يتآمر مع ابن أخيه الشيخ عبود بن الشيخ عيسى من أجل تأسيس مركز عربي سياسي موال لفارس ، وطلب

من المقيم ان يحضر الى الأحواز ليجد بنفسه مدى قوة الشيخ ومركزه ، وذكر انه سيتصل بالأتراك والعرب في العراق ، لأجل الحصول على مساندته في صراعه مع الشاه .

ولكن موقف العقيد ميد كان مائعاً ، فقد أخبره بأن حكومته لا تشجعه على الثورة ضد الشاه ، كما لا تريد تشجيع الشاه على ترك المحمرة ، وذلك لحاجة خزينة الدولة إلى المال . وفي الوقت نفسه أخبر القائم بالاعمال البريطاني سبرنك رايس وزير الخارجية الفارسية بأنه في الوقت الذي لا يريد التدخل في الشؤون الداخلية الفارسية ، إلا أن علاقات بريطانيا القوية مع الشيخ خزعل وخدماته للتجارة البريطانية في نهر كارون يجعل من الصعب على بريطانيا ممارسة أي ضغط على الشيخ لتحقيق اهداف الشاه ، واصبح الشاه يحقد على الشيخ خزعل ، ويغار من مركزه العسكري ونفوذه العظيم في الاحواز ، وقد أخبر الخبير البلجيكي نوس بأنه سوف لا يتردد في إرسال قواته المسلحة إلى المحمرة ، ولو أن هذا الجيش سينال الهزيمة ، ولكن على الأقل سيطلق بعض قذائف مدفعية على قصر الشيخ خزعل .

أما الشيخ خزعل فقد حذر الانكليز بأن إلحاق المحمرة بالنظام الكمركي الفارسي معناه سيطرة روسيا على الاحوار ، وتهديدها المباشر لمركز الانكليز في الخليج العربي ، وإلى ذلك ايضا ذهب اللورد لانسداون وزير الخارجية البريطانية ، فقد ذكر في الخامس من اذار سنة ١٩٠١ : «سوف أعارض اية حيلة يتبعها الشاه في المحمرة لأجل السيطرة عليها أو السماح للروس بذلك» ، وقد أخذت المصالح البريطانية في المنطقة تزداد تبلورا ، لاسيما بعد حصول دارسي على امتياز استغلال النفط في الاحواز سنة ١٩٠١ .

ولهذا فان الشاه ـ عندما زار إنكلترا سنة ١٩٠٢ ـ كان متوقعا أن ينال . من حكومتها وسام ربطة الساق الذي كان يحمله والده ، ولكنه

منح وساماً آخر ، فغادر إنكلترا مستاء ، مما حدا بحكومة لندن أن تبعث وفداً في السنة التالية يحمل للشاه الوسام المرغوب فيه .

ويمتاز عهد مظفرالدين شاه بصورة عامة بازدياد حدة الصراع بين إنكلترا وروسيا ، وقد ظلت روسيا حتى سنة ١٩٠٧ صاحبة الكلمة العليا في فارس ، وذلك بعد أن قدمت قروضها للميزانية الفارسية ، كما امتاز عهد الشاه بعنف الحركة الدستورية ، فقد قامت في البلاد ثورة سنة ١٩٠٦ ـ تعضدها وتدعمها بريطانيا ـ تطالب بنشر الدستور والدعوة إلى انتخاب برلمان . واعتصم ما يقرب من ١٣ الف ثائر فارسي في المفوضية البريطانية ـ بضعة اسابيع ـ يطالبون بتنفيذ مقرراتهم ، فأكره الشاه على منح الدستور في اب سنة ١٩٠٦ ، وافتتح اول مجلس تمثيلي للبلاد .

على أن الشاه قد توفي في تشرين الأول بعد بضعة أيام من افتتاحه ليخلفه ابنه محمد علي شاه (١٩٠٧ ـ ١٩٠٩) ، وقد حاول أن يعارض المجلس ـ رغم أنه يتكون من كبار الملاكين والراسماليين ـ الذي أبى عقد قروض جديدة ، وفي هذه الأثناء اعلن نبأ عقد الاتفاق الروسي البريطاني سنة ١٩٠٧ ، فكان مخيبا لآمال القوميين الفرس الذين كانوا يتوقعون من بريطانيا التزامها لهم في حركتها ، وقد اعترف بهذا الاتفاق الشاه برغم المعارضة الشديدة له . ولما تمادى المجلس في مخالفته للشاه ، وأخفقت جميع المحاولات للوصول إلى تسوية ، حاول الشاه العصف بالحياة النيابية وسحق الحركة الدستورية ، فأمر فرقته القوزاقية ـ بقيادة العقيد لياكهوف ـ بضرب مبنى البرلمان بالقنابل ، وأعلن حله للمجلس في حزيران سنة ١٩٠٨ ، واعتقل أعضاءه وعطل الدستور ، فكان الزخم الشعبي لتلك الاجراءات أن قامت في البلاد ثورة اكتسحت القطر كله ، وكان القائمون بها يحدوهم نجاح الثورة التي كانت قد اندلعت ـ قبل ذلك بقليل ـ ضد السلطان عبدالحميد في تركيا ، وقد اكتسبت الحركة الوطنية نصيرا جديداً في قبيلة البختيارية ـ إحدى

قبائل الفرس المجاورة للاحواز ـ ، فقد قاد زعيمها سردار أسعد خمسة الاف بختياري من قبيلته إلى طهـران ـ رغم إنذار السـفيرين الروسي والبريطاني له ، فوفق الوطنيون إلى الاستيلاء على العاصمة بعد قتال دارت رحاه في الشوارع ثلاثة ايام متوالية ، انتهـى بخلع الشـاه الذي التجأ إلى السفارة الروسية ، وذلك في ١٦ تموز سـنة ١٩٠٩ ، ومنهـا نقل إلى روسيا .

وكان موقف الشيخ خزعل من تلك الأحداث مؤيداً للثورة ضد الشاه ، برغم ان الشاه ـ عند توليه الحكم ـ اهـدى الشـيخ خـزعل وسـام همايون ـ مجدداً ـ ووسام آل قاجار ـ يعلق في العنق وفي وسطه صورة الأسد والشمس ـ ، إلا أن الذي عرف عن الشيخ خزعل بغضـه لحـكم الشاه ، فكان يأوي الهاربين من نقمته ، وينعم عليهم بالهبات الوفيرة . وعندنا أن ما تحمله من حكومة طهران من مضايقاتها المسـتمرة هـو الذي دفعه إلى موقفه هذا ، وكان قـد ايد قبيلة البختيارية في ضربهـا لحكومة الشاه ، تلك القبيلة التي كانت معروفة بالقـوة والبسـالة ، إلا انها فقيرة في المال ، وعندما طلبت منه عضدها بالمال والرجال أحجـم عن إرسال اتباعه . ويرى صاحب كتاب المحمرة والوحدة العثمـانية : أن سبب امتناعه كي لا يفسر هدف حملته تحويل الدولة الفـارسية إلى عربية ، لذا فانه اكتفى بأن انعم على هـذه القبيلة بخمسـة آلاف ليرة عثمانية . وعندما وصلت حملتها إلى طهران ابرق إلى محمد علي شاه مهدداً باجتياح العرب طهران لنصرة البختيارية والدستوريين .

وقد استغل الشيخ خـزعل الصراع هـذا بين انصـار الدسـتور وخصومهم ، فامتنع عن دفع المال لحكومة طهران الذي اقره مـرسوم سنة ١٨٥٧ ، واصبح منذ ذلك الحين لا يدفع شيئاً لفارس . والواقع أن تأثير الشيخ خزعل كان كبيراً في إبعاد اي نوع مـن الاضـطرابات عن منطقته ، ولم تؤثر الفوضى التي انتشرت في فارس على الاحواز ، فقـد ظلت تعيش في هدوء واستقرار .

وفي طهران ـ على اثر تلك الأحداث ـ اعيد البرلمان من جـديد ليعين أحمد شاه ـ ابن الشاه السابق ـ ملكاً على فارس ، ولم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره ، فوضع تحت وصـاية اكبر امـراء آل قـاجار البارزين سناً ، وذلك حتى سنة ١٩١٤ . والواقع ان فارس قد شـهدت خلال الفترة ١٩٠٦ ـ ١٩١٠ فوضى سياسية عامة ، واصـبحت لا تملك ناصية الأمر على معظم ولاياتها ، ولم يبق للعاهل القاجاري في طهران من السلطة إلا اسمها .

اما جذور الأحوال السيئة التي سادتها ، فترجع ـ بالدرجة الأولى ـ إلى الفوضى التي تسيطر على مالية الدولة . وفي عهد أحمد شـاه وقـع الاختيار على المستر موركان شستر الامريكي الجنسية ليشغل منصب المدير العام للشؤون المالية ، فوصل فـارس في ايار سـنة ١٩١١ مـع مساعديه الاربعة ليعالج تنظيم الخـزينة ، ولكن ذلك لم يرق لبريطـانيا وروسيا ـ صاحبتي الحل والعقد في البلاد ـ فطلبتا إقصاءه بعد ثمانية أشهر من وصـوله ، ولما رفض المجلس طلبهمـا كان مصـيره الحـل اعتماداً على فتوى أصدرها الشيخ فضل الله أحد علمـاء الدين ، جـاء فيها : إن تأسيس برلمان وسن دستور للبلاد يغاير الشرع الاسـلامي . ولم يستأنف المجلس اجتماعاته الا بتموز سنة ١٩١٤ بعد تتويج الشاه وقد بلغ سن الرشد ، فاعلن فيه الشاه حياد فارس في الحـرب العـالمية القائمة ، ولكنها رغم ذلك ظلت ميداناً حربياً طوال سني الحرب ـ مـع انها لم تنضم إلى أحد الطرفين المتحاربين .

النزاع بين الشيخ خزعل ورضا خان وتقويض الحكم العـربي في الاحواز :

ولد رضا خان في سوادكوه بمقاطعة سازندران في آذار سـنة ١٧٧٨ ، وكان والده عباس علي خان ضابطاً في الجيش الفارسي ، وقد توفي بعـد

ولادة ابنه بثمانية اشهر . وقد شب الابن على حب سيرة ابيه ، فالتحق جنديا بفرقة القوازق الفارسية ، واستطاع أن يتدرج في مناصبها ليصبح ضابطا فقائدا للفرقة في ظرف كان فيه الضباط الروس هم الذين يشغلون المراكز الهامة في هذه الوحدة . وقد استغل القائد الطموح ضعف روسيا الوقتي بعد ثورة أكتوبر ، فتخلص من الضباط الروس في الفرقة ليحل محلهم أخرين من الانكليز يقودهم العقيد سمث ، فاتفقت اراؤه مع الانكليز الذين كانوا يأملون من عقد معاهدة سنة ١٩١٩ ، السيطرة على الجيش الفارسي ، وقد كان الضباط الانكليز يقدمون له المشورة الفنية في اثناء زحفه على طهران ، ومن اجل هذا اتهمه خصومه بتواطئه مع الانكليز . ولكن الحقيقة أن رضا خان كان قوميا فعارض التدخل الأجنبي ـ مهما كان نوعه ـ في شؤون بلاده ، لذا فقد طرا على راي الانكليز والسوفيت فيه تغييرات كثيرة منذ أن ظهر على المسرح السياسي . ففي باديء الأمر رحب به كل منهما بحماسة على أساس انه بطل قومي يمكن كسبه ، إلا أنه سرعان ما شاب تلك الحماسة برودة ظاهرة ، بعد أن وجدوا أن مبدأه الأعلى هو «إيران للايرانيين» ، فأصبح موقفهما منه سلبيا اولا ، ثم عدائيا بعدئذ .

شغل رضا خان منصب وزير الدفاع في وزارة السيد ضياء الدين ، كما أصبح قائدا عاما للقوات المسلحة ، فاتجه إلى تحويل قطعات الجيش الفارسي المتفرقة إلى جيش حديث ، وفي ذلك كتب في مذكراته : «رايت من الحكمة أن أسعى لتكوين جيش وطني قومي حتى ولو كان قوامه من الأفراد التابعين لي ، وقد وجهت جل اهتمامي لهذه الناحية معتقدا الاعتقاد الحازم بأن الجيش المرفه يخلص لبلاده ، خاصة في هذا العصر الذي صارت القوة فيه فوق الحق» ، كما أصدر في الحال اوامر بالقبض على المشتركين في التوقيع على معاهدة سنة ١٩١٩ ، وارسلهم إلى المنفى . وبعد مرور ثلاثة أشهر على الانقلاب دب الخلاف

بينه وبين رئيس الوزراء الذي أجبره على ترك البلاد في نيسان سنة ١٩٢١ ليراس الوزراء قوام السلطنة أحد حكام الولايات المعتقلين . وقد بقي رضا خان وزيرا للدفاع في عدة وزارات متتالية حتى عام ١٩٢٣ . وفي هذه الأثناء تحسنت العلاقات بين موسكو وطهران ، ذلك لأن السوفييت فوجئوا مفاجأة سارة عندما تولى رضا خان الحكم ، نظرا للاعتقاد السائد بأنه يرأس حركة وطنية ثورية ، وعلى اعتبار أن انقلابه «حدث تاريخي» يدشن بداية عهد جديد . وخيل إليهم أن الدكتاتورية العسكرية ستكون مرحلة انتقالية نحو نظام جمهوري قومي . وهكذا تمخضت العلاقات الحسنة إلى إبرام معاهدة سنة ١٩٢١ التي اعترفت باستقلال فارس التام ، وتنازلت عن كل ما بأيديها من المقاطعات الفارسية ، كما تنازلت عن جميع الديون التي كانت لها على فارس ، واشترطت لتنفيذ أكثر بنود هذه المعاهدة أن يبتعد كل نفوذ أجنبي آخر عن فارس . وقد صودق على هذه المعاهدة بعد خمسة أيام من الانقلاب بعد أن رفضت الحكومة الفارسية المعاهدة الانكليزية الفارسية نهائيا . أما ما أصاب الاحواز من تحسن العلاقة هذه ، فقد فتحت في الأحواز قنصلية روسية ، بعد إذن من الشيخ خزعل ، وكان الانكليز يرقبون ذلك بحذر ، وقد طلبوا من الشيخ خزعل الامتناع عن الاتصال بالقنصل الروسي .

وقد انشغل رضا خان خلال سنتي ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ في إخضاع الأجزاء الشمالية من فارس ، وبعد أن استتب له الأمر تدخل ـ منذ سنة ٢٣ ! ـ في أمور حيث كان البريطانيون قد قضوا على هيبة الحكومة المركزية قضاء كاملا ، فحل فرقة «بنادق جنوب فارس» ، وكان رضا خان ـ في سبيل تحقيق الوحدة الوطنية وإقامة دولة فارس العظمى ـ لا يأبه ـ وهو في ميدان القتال ـ بما كان يدبر في طهران من مؤامرات أدت ثلاث مرات إلى تبديل رئيس الحكومة ، حتى إذا ما اكتشف في تشرين الأول مؤامرة كان قوام السلطنة يدبرها للقضاء

عليه ، تولى رياسة الوزارة إضافة إلى وزارة الدفاع . أما الشاه فقد وجد أن من الأفضل له الانسحاب من الميدان ليقوم برحلة إلى باريس لفترة غير محدودة .

والواقع أن رضا خان كان يشبه مصطفى كمال أتاتورك في نواحي متعددة ، وكان متأثرا بشخصيته إلى حد بعيد ، فكانت أقصى أمنية تراوده أن يباريه في أعماله ، وهو من الحصافة بمحل جعله أول ما يفكر بالتآم أجزاء بلاده المتفرقة بوحدة وطنية قبل إقدامه على أية عملية أخرى . وفي سبيل ذلك أفرغ همه لتعزيز الجيش وتزويده بالأسلحة الحديثة التي عقد صفقتها مع فرنسا ، كما أرسل خمسين ضابطا للتعلم في مدارس فرنسا العسكرية . ويبدو أنه كان يمهد لاستلام المسؤولية كاملة ، فقد خطب فيهم قائلا : «إنكم ستذهبون إلى فرنسا موفدين من قبل هذه الأمة المنكودة الحظ .. وإن الغاية المقصودة من إيفادكم عظيمة ، والمهمة التي ستلقي على عاتقكم أعظم . إن البلاد بحاجة ماسة إلى رجال أقوياء من أبنائها يتولون أمرها ويقضون على هذه الفئة الأجنبية العابثة بمقدراتها ، ونحن إنما أرسلنا كم لتقوموا بهذه العملية التطهيرية في المستقبل القريب إن شاء الله .

كما قرر معالجة تنظيم شؤون المالية العامة في فارس ، فدعا في مطلع سنة ١٩٢٢ الدكتور أرثرتشيستر ميلسبوف الخبير الأمريكي لهذا الغرض الذي بقي في فارس حتى سنة ١٩٢٧ ـ فتمكن بادارته أن يهيء للحكومة دخلا مطردا .

وقد جرت في آذار سنة ١٩٢٤ ـ حول مسألة الدستور ـ مناظرات عنيفة في المجلس ترددت أصداؤها في الشارع ، وكان رضا خان قد التزم جانب الحذر عندما انتشرت الدعوة إلى إعلان الجمهورية ووقوف رجال الدين بوجهها ، وقد أصدر بيانا إلى شعبه ـ لم يلق أذنا صاغية ـ جاء فيه : «نظراً إلى أن فكرة قلب صورة الحكم في الوقت

الحاضر قد أقلقت الأمة . الأمر الذي يحول دون إكمال المشاريع العمرانية ويؤدي بالبلاد حتما إلى الدمار ويفسح المجال لدخول الأجانب فيها ، لذا أنصح مواطني الكرام بالكف عن هذه الفكرة في الوقت الحاضر راجياً منهم أن يوجهوا العناية لخدمة المملكة . ويعاضدوني على إكمال النواقص الجوهرية فيها» . وأعلن بعد ذلك استقالته ، وكان نتيجتها أن هدد قواده بالزحف على طهران . وفي الحال وجد المجلس نفسه مضطراً إلى إعلان ثقته به . فتقلد زمام الحكم من جديد ، واعتلج في ذهنه فكرة بعث الامبراطورية الفارسية في كل أرض وطئتها جيوش فارس . فراحت الأحواز ضحية الأفكار القومية المتطرفة ، وهو الذي فطن أكثر من غيره من مواطنيه إلى الفرق الشاسع بين ماضي فارس المجيد وحاضرها المنهار ، فصمم أن يوقظها من سباتها ويغذي فيها الشعور بالعزة القومية ، لذا فقد أصر على ضم الأحواز إلى فارس ، ويبدو لنا أن دوافعه في ذلك كثيرة ، فالى جانب وازعه القومي المتطرف هناك ازدهار المحمرة وثروتها النفطية التي عبر عنها بقوله : «إن معادن نفط الجنوب استولى عليها الأجانب ، وحرموا الفرس الانتفاع به في المستقبل» . ، إضافة إلى أن ضم الأحواز إليه يهيء له المجال للمطالبة بمزيد من المكاسب الاقليمية . فنجده بعد حين يطالب بشط العرب لما له من قيمة اقتصادية واستراتيجية خطيرة . كما أن ضم المنطقة إليه معناه تهديد النفوذ البريطاني المسيطر على معظم اقتصاديات فارس في أعظم معقل له ، ليستطيع بالتالي أن يملي عليه شروطه .

ولا ننسى شخصية الشيخ خزعل التي انضوت تحت سلطتها قوة العرب في المنطقة ، تلك القوة التي تمثل تيار القومية العربية التي تعاديها القومية الفارسية ـ منذ ازدهار الدولة العربية في الاسلام ـ ، لاسيما أن الشيخ خزعل قد بدأ شأنه في الصعود بعد ترشيحه لعرش

العراق ، ودخوله في معاهدات مع بريطانيا . فتبوأ بذلك مكانة مرموقة في العلاقات الدولية في المنطقة .

وهكذا نلاحظه يدون في مذكراته : «لقد فكرت كثيراً قبل إقدامي على اقتحام اكبر معقل يفصل بين فارس والعراق ، ووضعت أمام ناظري ما يقوم به الأجانب من عرقلة أعمالي . ولكني وجدت أنه من الضروري القضاء على أمير الاحواز الذي مضت عليه أعوام طويلة دون أن يدفع أية ضريبة لدولة ، والذي كان يعيش كأمير مستقل داخل حدوده ويساند الأجانب مساندة تامة في أعماله ، وليس لحكومة طهران أي سلطان عليه ، غير أنه يرسل أحيانا بعض الهدايا الى شاه فارس شخصياء .

فبدأ بدعوته إلى أداء الضرائب المتأخرة ، وأصدر أمره إلى موظفي المالية للقيام باحصاء الأملاك الأميرية وتسجيل الواردات ، وقد انتدب مـاك كورمـاك رئيس تحصيلات المالية الداخلية العام للقيام بتلك الاجراءات ، فقدم إلى تصفية الحساب الذي ادعته حكومة طهران عليه طيلة سنوات حكمه التي كان لا يدفع فيها لخزينة طهران شيئا ، فحسمت الديون التي قدرت بمبلغ «خمسمائة ألف تومان ، دفع الشيخ خزعل منها مائة ألف تومان والباقي يسد بعشرين قسطا سنويا ، كل قسط عشرون ألف تومان يدفع في أول برج القوس من بداية سنة ١٣٠٣ بوساطة المصرف الشاهنشاهي في المحمرة» .

أما جباية الواردات بعد سنة ١٩٢٢ (١٣٠٢) ، فقد حددتها الاتفاقية التالية : «يدفع الشيخ خزعل في بداية كل عام شمسي ـ منذ عام ١٣٠٣ ـ مبلغ مائة وخمسين الف تومان بأربعة أقساط سنوية متساوية .. وذلك عن جميع الأملاك التي يملكها بموجب الفرامين التي بيده» . وقد أخذ منه ابستحصال الماليات غير الثابتة في كل من المحمرة وعبادان ، أما في الأحواز فقد عهد إليه أن يقوم باستحصالها نيابة عن الحكومة الفارسية . وقد اتفق أن يحسم من المبلغ الذي فرض عليه مبلغ عشرين ألف تومان مصروفات لديوانه الرسمي ولحرسه الخاص ،

على أن لا تحسم اية زيادة اخرى . كما نص الاتفاق على أن يدفع الشيخ خزعل إضافة سنوية قدرها الف تومان ما دامت هذه الاتفاقية سارية المفعول .

وبعد حسم الخلاف والتوصل إلى هذه الاتفاقية ابق مـاك كورمـاك إلى طهران يبلغهم بنصوصها ، كما أن الشيخ خزعل كتب إلى الشيخ أحمد الجابر الصباح يعلمه بأنه : «أثناء هذه المدة كنا للغاية مشغولين بواسطة مجيء مستشار المالية لطرفنا لأجل تصفية المسائل المالية التي في حوزتنا» .

ونلاحظ أن الشيخ خزعل قد اتفق أول الأمر مع الحكومة الفارسية بأن القضايا المتعلقة بالضرائب ظنا منه بأن الذي يرمي إلي رضا خان في دعته هو الحصول على الأموال فقط ، ولكن الأجراءات التي اتخذت مع الأقاليم المجاورة لامارته أثارت فيه المخاوف ودفعته إلى عدم الاعتراف بتلك الاجراءات . لذلك اعترض على تلك التدابير واعتبرها تدخلا في شؤونه الداخلية ، ومناقضة للفرمان الشاهنشاهي الذي منح لأبيه سنة ١٨٥٧ ، وسندات الطابو الخاقانية التي منحها الشاه له بملكيته الولاية كاملة ملكا صرفا .

لما شعر أن رضا خان مصمم على مناهضة حكمه ، اخذ يعد العدة للوقوف بوجه ذلك الخطر الداهم . ولما يجد املا في الحصول على مساندة الملك فيصل الأول له ، وتلكؤ الشيخ احمد الجابر في الاستجابة لطلبة بمده بالسلاح ، اضطر أن يولي وجهه شطر القبائل العربية المجاورة لامارته ـ وقد حرم من السند العربي ـ ، فاتصل بيوسف خان زعيم البختيارية ، وغلام رضا خان والي بشتكوه ، وأمير مجاهد خان لرستان وغيرهم ، ليشكل معهم اتحاد حلف السعادة لمناهضة تعديات رضا خان المحتملة للمنطقة وانتخب الشيخ خزعل رئيسا لذلك الحلف الذي جعل مركزه في الاحواز ، وقد استطاع المتحالفون أن يحصلوا على شرعية حزبهم من الشاه وهو في باريس . إلا أن ذلك قد زاد رضا

خان تصميما لاختراقه المقاومة الجديدة والنفاذ إلى الاحواز التي وصفها بأنها : «معقل الأشرار ومنع الخطر على جميع فارس» . والذي اخرج رضا خان عن صوابه ورود برقية من الشيخ خزعل بوساطة السفارة التركية في طهران إلى رياسة المجلس تصف رضا خان بكونه «عدو الاسلام ومغتصب الحكم في فارس ، ومتجاوزاً على حقوق الأمة» . كما انه تعرض لحملات صحفية شائنة في العراق ومصر أخذت تنادي باستقلال الاحواز وتطالب بانفصالها عن فارس . وكان صداها عظيما انذاك في المنطقة ، وهي ـ في سبيل التأثير على معنويات رضا خان ، وتهويل الأمور عليه وتعقيدها ، للكف عن مطالبته بالامارة ـ كانت تنشر اخبارا مفادها تعاون الشيخ خزعل وأحمد شاه ـ وهو في منفاه ـ للقضاء على حركة رضا خان ، فقد كتبت جريدة العراق البغدادية ما نصه : «علمنا مؤخرا ان عظمة الشيخ خزعل عرض على جلالة شاه إيران الشاه أحمد قاجار ، المقيم إجباريا في أوربا ، بأنه على اتم الاستعداد لمعونة جلالته ماليا للسعي إلى العودة إلى الوطن ، وانه سيضع كل ما يملك تحت تصرف جلالته لهذا الغرض» . أما جريدة الأوقات البصرية فقد نشرت ما نصه : «وصل إلى البصرة في ٣ تشرين اول الجاري حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سالار الدولة عم جلالة شاه إيران ، وقد ترك البصرة فورا إلى الأحواز لمقابلة عظمة الشيخ خزعل للمذاكرة معه بخصوص عودة الشاه أحمد قاجار من أوربا» . هذا ، وقد اشيع ان الشاه وحاشيته سيعودون من أوربا إلى البصرة والدخول إلى فارس عن طريق الاحواز .

فأمام ذلك كله زحف رضا خان بقواته العسكرية من طهران نحو المنطقة عن طريق إصفهان ـ شيراز ، ومن هناك بذلت بريطانيا مساعيها لايقاف رئيس الوزراء عما صمم عليه ، وأوعزت إلى قنصلها في شيراز لمقابلته وإبلاغه رسميا بأن الشيخ خزعل تحت الحماية البريطانية ولا يمكن التعرض له ، ومما ذكره القنصل البريطاني له :

«إن لبريطانيا ـ علاوة على الموقع السياسي والاستراتيجي ـ موقعا خاصا ذا اهمية كبرى بالنسبة للشعب البريطاني والامبراطورية البريطانية بسبب أنابيب النفط ولا يخفاكم أن هذه الأنابيب ممتدة على طول نهر كارون ومن المحتمل جدا ان تقع الأضرار المادية الكبرى على هذه الأنابيب بسبب حركات الجيوش والصدام الذي سوف يقع بينكم وبين الشيخ خزعل وعشائر الجنوب ، ولهذا فان أي ضرر يقع على الأنابيب في المستقبل تكون الدولة الفارسية مسؤولة عن نتائجه ، وعلى الأخص تكونون انتم شخصيا مسؤولين عن ذلك وسنكون مضطرين شديد الاضطرار إلى المباشرة حالا في الدفاع عن مصالحنا ومصالح شركة النفط» .

إلا أن كل المحاولات البريطانية باءت بالفشل ولم تثن رضا خان عما صمم عليه ، وقبل أن يتحرك من بوشهر ـ التي وصلها من شيراز ـ

إلا أن كل المحاولات البريطانية باءت بالفشل ولم تثن رضا خان عما صمم عليه ، وقبل أن يتحرك من بوشهر ـ التي وصلها من شيراز ـ
وصلت برقية إلى مقر قيادته من السير برسي لورين الوزير المفوض البريطاني في طهران جاء فيها : «إني علمت عند رجوعي إلى فارس ـ من بغداد ـ أن الوضع قد تغير كثيرا وإذا دام على ما هو عليه فتكون النتائج مجهولة ، لأن تقدم فخامة رئيس الوزراء بجيوشه هو خلاف لتعهدات فخامته السابقة ، وأن تقدم القوات النظامية في خط بهبهان وزيدون وميناء ديلم ، هذه الأماكن التي تعهد فخامته بعدم تجاوزها او خرقها حاليا قد تسبب مشكلة كبرى ، وإن كان قصد فخامته القيام بعمليات سلمية ومناورات شكلية . ولكن مما يؤسف له ان وقع صدام عنيف بين الجيوش النظامية وجماعات من العرب لاسيما في (الويرة) و (جيرى) ، وكان يساعد الجيش النظامي عشائر (إيلجاري) وقد نهبوا القرى العربية واعتدوا على الآمنين ، كما هاجموا العشائر البختيارية ، وحدثت خسائر عظيمة في الأرواح بين الطرفين . وبما أن

الاماكن المذكورة تبعد عن (أيلش) اربعة فـراسخ (اثنى عشر ميلا) في الطرف الغربي من الخط المذكور، فليس من المعقـول اتهـام العـرب والبختيارية بالمهاجمة والتجاوز - واعتقد أن هذه الأعمال حدثت دون علم من فخامة القائد العام او مستشاريه - ولهذا أرجـو مـن صـميم قلبي من فخامة الرئيس أن يصدر أوامره المشـددة الأكيدة إلى قـواته والأمراء المحليين أن يرابطوا في خطي بهبهان والديلم. وفي أي وقـت تجتاز القوات هذين الخطين وتتقدم اكثر من ذلك فـان العـواقب مـع الأسف ستكون وخيمة جداً، لاسيما إذا وقعـت مصـادمات دمـوية، ولاشك عندئذ في حدوث نزاع شديد ومؤسف وإني أنتهز هذه الفـرصة لتقديم احتراماتي». كما أنه تسلم وهـو في بوشـهر. بوسـاطة وزارة الخارجية مذكرتين من سفارة بريطانيا في طهران بهـذا المعنى، وقـد تضمنتا توسط حكومة صاحب الجلالة في الأمر دون الحاجة إلى إراقة الدماء التي ربما أثرت على أرواح الرعايا البريطـانيين في المنطقـة، وتذكره بأن بريطانيا سبق وإن أعطت الشيخ خـزعل عام ١٩١٤ وعداً بحمايته من أي هجوم يقـع عليه وبناء على هـذه التعهـدات فإنهـا مضطرة لحفظ أموال الشـيخ وأرواحـه وأتباعه وأولاده. وقـد كلف المستر تشمبرلين السير برسيي لورين السفير في طهران أن يطلب مـن القنصل البريطاني في برشهر والقنصل البريطاني في شيراز أن يبلغـا رئيس الوزراء رسمياً هذه التعليمات.

ولكن رضا خان رفض المذكرتين، وطلب مـن وزير خـارجيته إعلام بريطانيا بوجوب سحبهما على الفور باعتبارهما مخالفة لحق السيادة والاستقلال وتدخلا في شؤون فارس الداخلية.

والواقع أن موقف بريطانيا لم يرض كلا من رضـا خـان والشـيخ خزعل معاً، فيظهر لنا من مذكرات رضا خـان أنه كان يلقـى اللوم في إطـالة العمليات الحـربية على عاتق الممثل البريطـاني السـير برسي لورين، الذي استمر يحذره ويلح عليه بعدم التقدم نحو المحمرة، وقـد

كتب: «إن عملاء بريطانيا السياسيين يجولون ويصـولون في الجنوب، ويعملون المستحيلات لاقناعي وحملي على ترك الشيخ وشـانه»، كمـا يذكر «كنت على علم تام بحـركات الممثلين البريطـانيين في إيران، إذ كان جل قصدهم وهدفهم الحقيقي منعي من الوصول إلى الاحواز بأية وسيلة كانت، وكانوا يضعون العراقيل في طـريقي ويهيئون الشـباك، وهم الذين أشاعوا بين الناس أنني سأجتمع بهـم في بوشـهر وانهـي معهم قضية الاحواز بالطرق الودية بوساطتهم».

أما بالنسبة للشيخ خزعل فقـد كان يطمـع مـن الانكليز بالايفـاء بتعهداتهم له، وتقديم المساعدات العسكرية اللازمة، إلا أن معـاونتهم له اقتصرت على العمل السياسي فقط، ولمْ تشأ الحكومة البريطانية أن تأخذ على عاتقها علنا الدفاع عن الشيخ خزعل ضد فـارس بعـد مـا أصاب سياستها في فارس مـن الاخفـاق لئلا تخسر بقية نفـوذها، لا سيما أن لها مع فارس مصالح اقتصادية واسعة النطاق، كمـا أنهـا كانت حذرة جداً من وقوفها بوجه رضو هو

، كي لا يؤدي تماديها في مضايقته إلى الارتماء في أحضان السـوفييت في وقت لم تظهر فيه هويته الحقيقة بعد، وخاصة أن السوفييت أظهروا له من نكران الذات والتسامح - في عقد معـاهدة ١٩٢١ - مـا قـوى نفـوذهم في البلاد، وقلص نفـوذ الانكليز، ولذلك كان هـم بريطـانيا الوحيد رفق الفتق الذي أحدثه رضـا خـان وعرض وسـاطتها لحـل المعضلة بالطرق السلمية.

إلا أن رضا خان تقدم بجيشه نحـو بهبهـان - مـن مـدن جنوب الاحواز - وجرت هناك مناوشـات بين جنوده وعرب الشـيخ خـزعل يساعدهم فرسان البختيارية، كما خرجت جيوش أخرى من خرم أباد لتدخل شمال لاحواز، من هناك نشر رضا خان بلاغا رسـمياً لأهـالي الاحواز وزع بين الأهالي جاء فيه: «إن سبب مجيئي إلى خرسان مـا هو إلا لرؤية جماعة من إخواني وأولاد سكان هذه المنطقة وان أوفـر

لهم الراحة والأمان والاطمئنان ، وأرفع عن كواهلهم الظلم والارهاق والعبودية التي يفرضها عليكم الشيخ خزعل وجماعته من الغلمان ، عن قريب سينال هؤلاء الخارجون على النظام جزاءهم وستصادر أملاكهم ، ويلقي عليهم القبض لمحاكمتهم ، كما سيقبض على كل مناصر للشيخ» .

وكان موقف الشيخ خزعل من ذلك أن بث رسله في جميع أرجاء الامارة يدعو العرب إلى الجهاد دفاعا عن عروبة الاحواز ، واعلن الانفصال عن فارس نهائيا . واتجه إلى تشكيل فرق عسكرية هي نواة جيش الاحواز ، سميت باسم «شباب حزب السعادة» ، وتمكن من طرد باقر خان قائد حامية تستر ، وقام بسفرات متوالية إلى أطراف القبائل ووسطها دعاهم للثورة بوجه رضا خان الذي ينوي طرد العرب من أراضيهم وإحلال الفرس بدلهم وسلب ثروة الأمارة ومصادرة أموال العرب ، وقد كتب إلى الشيخ أحمد الجابر أمير الكويت بهذا الشأن ما نصه : «إن أهالي الاحواز كافة .. كلهم متفقون على القول والعمل ، وجميعهم متعاهدون ومتحالفون بالقرآن المجيد أن يدافعوا عن حقوقهم إلى آخر نقطة من حياتهم ، ولو أنهم ما لهم قدرة على المقاومة مع الدولة العليا لكنهم حاضرون ومستعدون أن يحافظوا على حقوقهم ويدافعوا عن وطنهم .... والآن جميع الرؤساء عندنا في الناصرية : من كعب ومحسن وباوية وإمارة بني طرف وبني سالة والشرفاء والحويزة وخوانين وششتر ودزفول وأهل المينا وانا ياعمك لما شفتهم على هذا الاتفاق انجبرت أن ارافقهم وأساعدهم على مقاصدهم .. ومقصودنا في الوقت الحاضر أن ترجع الأمور على ما كانت عليه قبل ثلاث سنين وأن يرفعوا العسكر من منطقة الاحواز هيج الغير أيضا ..» . كما كتب رسالة ثانية سرية له في ٢٧ صفر سنة ١٣٤٣ / ١٩٢٤ جاء فيها : «بسلامتك ما عليه عايز من جميع الوجوه لكن يعوز علينا شيء واحد هو السلاح »

كما أنه أرسل الرسل إلى العلماء الأعلام في فارس والعراق يوضح لهم نوايا رضا خان في إذلال العرب ومحوهم من الوجود . وقدم شكوى رفعها عن أكثر من خمسة عشر الف عربي إلى عصبة الأمم يدعوها للوقوف بوجه رئيس وزراء فارس المعتدي على إمارته ، كما عمل على الاتصال بالعناصر المعادية لسياسة رضا خان في طهران للوقوف بوجه تعدياته ، وقدم طلبا الى بيطانيا يدعوها الى الايفاء بتعهداتها له ، وأبلغها ــ عن طريق الممثلين السياسيين ــ بنوايا رضا خان ، وطلب أن تؤمن له :

١ ــ جلاء آخر جندي فارسي من الاحواز ، لأن بقاء الجنود في هذه البلاد يساعد على الثورات والاضطرابات .

٢ ــ يجب تأييد جميع الفرمانات التي أحملها رسميا دون نكوص فيما بعد .

٣ ــ إبقاء الواردات الت كنت أتقاضاها كما هي في السابق وبنفس المقدار على أن يعتبر الاتفاق الذي كنت قد عقدته مع المستر (مكرمك) لاغيا لأن الحكومة الفارسية أهملت تعهداتها .

٤ ــ يجب أن يؤمن حلفائي وأصدقائي ، وأن يصدر بحقهم جميعا عفو عام شامل ، وإني سأجاهد ما استطعت لحفظ أنابيب النفط ، لكن لا يغرب عن بالكم أن فارس ــ عدوتي ــ سوف تجتهد لايقاع الضرر بالأنابيب جهد استطاعتها لايجاد التنافر بيني وبين الانكليز ، وإني سأتخذ أشد التدابير التدميرية بحق من تحدثه نفسه بايقاع الضرر بالأنابيب ، وعساي أوفق لذلك ، كما أرجو أن تتنبه بريطانيا لمكايد الأعداء نحو أنابيب النفط .

وإني أكرر من جديد تعهدي لحفظ مصالح بريطانيا ، وإن خدماتي غير مخفية ولا مستورة وإني أنتظر عدالة بريطانيا ومساعدتها لي لانجاز تعهداتي على الوجه الاكمل . وقد كانت الاحواز آمنة مطمئنة طوال هذه السنين وهذه حقيقة يعترف بها الجميع ، وإن الحكومة

الايرانية تميل لبث الشقاق في هذه الجهة والاخلال بأمن هذه الأمارة المسالمة .

وإني أكرر التماسي من الدولة البريطانية لتقوم بتنفيذ قرارها وتطبيق تأكيداتها ومواعيدها لي ، وأن تحافظ على معاهداتها معي ، للمحافظة على أملاكي وصيانتها ولقد قام السير أرنولد ولسن صديق الشيخ خزعل الحميم ـ وكان قد عينه وكيلا عاما على أملاكه وامواله ـ بنشاط سياسي واسع النطاق ، في سبيل المحافظة على مركز الشيخ خزعل وع م

عرض رضا خان له بسوء ، وقد بذل جهودا دبلوماسية مضنية بين لندن وطهران والمحمرة لحل المعضلة ، وقدم الكثير للشيخ خزعل وإلى ذلك يشير رضا شاه في منكراته : «قام المستر ولسن رئيس شركة النفط في عبادان بأعمال سياسية على حين أن أعماله في الظاهر تجارية فقط ، وأخذ يلعب بأمور خطرة ، وهو الآن بمثابة المستشار للشيخ خزعل ، وهو الذي يضع له الخطط ، وأخيرا سافر إلى لندن لحمل الجهات العليا هناك على تأييد سياسته الرامية إلى فصل الاحواز عن فارس وجعلها إمارة مستقلة يحكمها الشيخ خزعل كما هي الحال في الكويت والبحرين» .

وقد طلب السير ارنولد ولسن من الشيخ خزعل بوساطة معتمده محمد أحمد خان بهادر ما نصه : «نظراً إلى الوضعية في جزيرة العرب والعراق التي تجعل من المحال أن يحصل الشيخ على أية مساعدة فعلية من أمراء العرب في سائر البلاد ، إنني أظن من المناسب أن الشيخ يقبل نصيحة الكابتن بيل ـ القنصل البريطاني في عربستان والمقيم في الأحواز ـ ويحصل على مساعدة الدولة الانكليزية في إعادة الأحوال على ما كانت عليه في سنة ١٩٢٣ ، أعنى أن تجدي المقاولة المعمولة مع ماك كرماك بخصوص الرسوم» .

لذلك فان الشيخ خزعل وجد أن من المستحسن عدم مقاومة جيش

نظامي مدرب بأسلحة حديثة بعشائر غير نظامية ، برغم أنه ربح عدة معارك . فلما اوفد رضا خان ـ وهو على حدود الامارة ـ رسولا يدعو الشيخ خزعل للحضور إلى مركز قيادته ، اعتذر الشيخ بأن صحته وشيخوخته لا تسمحان له بالقدوم ، وذهب نجله الشيخ عبدالكريم ليتفاهم معه في أمر الامارة ، وليرافقه عند دخوله حاضرة البلاد . وقد أرسل الشيخ خزعل لرضا خان رسالة مطولة شرح فيها الأسباب التي دعته إلى الثورة ، ملقيا اللوم فيما قام به على المحرضين والمشاغبين ، ويتعهد بخضوعه مقابل تركه حاكما على إمارة الاحواز من قبل الحكومة الفارسية ، ولكن رضا خان الذي قال عند خروجه من طهران : «إنني ذاهب للقضاء على الشيخ خزعل فان توفقت وإلا فسأواري جسدي في مقابر المحمرة ولا أرجع إلى طهران بالفشل» ، أبى إلا أن يدخل إمارة المحمرة فاتحا ، فظل يزحف بجيوشه ، يحتل القرية بعد الأخرى .

أما التحالف الذي عقده زعماء المنطقة ، فقد تفكك بعد علمهم أن الشيخ خزعل يسعى لاقامة إمارة عربية مستقلة ، وكان لأعوان رضا خان اثر كبير في تفككه ، بعد أن أشاعوا الهلع في نفوس العجم من العرب . وأمام ذلك لم يجد الشيخ خزعل بدا من التسليم ، ولم يبد أية مقاومة تذكر . فدخل رضا خان الاحواز (الناصرية) الحاضرة الثانية للاحواز ، واتخذ من قصر الشيخ خزعل فيها مقرا لقيادته . ومكث يومين قابل في اليوم الأول الشيخ خزعل ، الذي أظهر له رضا خان اعتزازه بصداقته وحرصه على سلامته وحفظه لمنصبه ومقامه ، ومقابل ذلك أهداه الشيخ خزعل مبلغا كبيراً من الباونات . ولكن العرب في المنطقة ـ الذين كانوا في حماس شديد في سبيل نيل الاستقلال التام ـ ثاروا على موقف الشيخ خزعل الذي أظهر فيه من الخنوع والخضوع الشيء الكثير ، وتجردوا عنه «وبذلك انكسرت شوكته وأصبح منبوذا من بني جلدته» .

اما رضا خان فيذكر في مذكراته : «في مدة بقائي في الناصرية طلب القنصل البريطاني مواجهتي .. فأخبرني في سياق حديثه معنى أن السير برسي لورين الوزير المفوض وصل إلى الناصرية ـ بطريق الجو ـ وأنه سيكون في محلي للتشرف برؤيتي . وبعد خروج قنصل بريطانيا دخل علي قنصل روسيا مهنئا ، وأظهر لي سروره وفرحه» . والواقع ان السوفييت كانوا يؤيدون رضا خان في حركته ، وذلك لأن القضاء على الشيخ خزعل معناه القضاء على النفوذ البريطاني في المنطقة ، وهذا ما يعمل من أجله السوفييت . وقد اعتبروا دخول الجيش الفارسي إلى الاحواز انكساراً وهزيمة للدبلوماسية الانكليزية ، كما أن السوفييت يعتقدون بأن أي خلاف بين فارس والأنكليز يكون سبباً لتقارب فارس مع السوفييت . أما الانكليز فقد تخلوا عن تعهداتهم السابقة للشيخ خزعل ، عندما وجدوا أن رضا خان ماض بجد وحزم في تحقيق غايته . وقد استهدفت بريطانيا تجنب وقوع اي اشتباك مسلح بين الشيخ خزعل ورضا خان فتحقق لها ما ارادت .

وقد توجه رضا خان بعدئذ إلى المحمرة ، واستقبله الشيخ خزعل في قصر الفيلية ، ثم طاف في معظم ارجاء الامارة ، وقبل أن يغادر الاحواز أمر بتشكيل حكومة عسكرية برياسة أمير اللواء فضل الله خان زاهدي ، على اعتبار أن المنطقة قد احتلت احتلالا عسكريا مؤقتا لأغراض وطنية ووضعت تحت إمرته ثلة من القوات العسكرية لتمشية أعماله . وقد أعلنت الأحكام العرفية في جميع أنحاء الاحواز ، وشكلت محكمة خاصة باسم «محكمة الصحراء» من العسكريين لتستجوب المتهم وتنفذ الحكم في الحال . وبعد ذلك غادر رضا خان الاحواز متوجها إلى العراق في زيارة خاصة للعتبات المقدسة ، بعد أن طلب من جميع موظفيه ـ الذين حلوا في الاحواز ـ احترام الشيخ خزعل .

أما الشيخ خزعل ، فان المكانة المرموقة التي تمتع بها أيام حكمه لابد أن تتضاءل بعد ذلك الاحتلال وتتقلص سلطته ، ولكنه برغم ذلك يبدو

ان الأمل مازال يراوده في استعادة مكانته ، وقد ظن أن المهمة التي جاء من أجلها رضا خان قد انتهت إلى هذا الحد ، وما زال يعلق آمالا على حلفائه الانكليز ، فقد كتب إلى الشيخ أحمد الجابر الصباح يطمئنه بقوله : «إن الأمور ـ من فضل الله ومساعي رجال الدولة المعظمة البريطانية ومساعدتهم ـ ختمت على حسب الارادة في جميع الوجوه «اما» عن وجود انفار من القوزاق في المحمرة لاتصيروا بفكر لأنهم أربعون نفراً فقط وهم : عشرون نفراً يستقيمون في المحمرة وعشرون في عبادان ، وبقاؤهم مؤقت» .

وقد اتبع الجنرال زاهدي ـ الحاكم العسكري في المنطقة ـ أساليب دبلوماسية موفقة انطلت على الشيخ خزعل ، وجعلته يثق به . وقد كتب للشيخ : «تلقيت رسالتكم الكريمة التي أظهرتم فيها إخلاصكم لصاحب الفخامة رضا خان ، وعطفكم علي ، فأقدم لكم خالص شكري ، وأرجو أن تعلموا بأني سوف لن أتوانى عن القيام بانجاز اشغالكم ، وقد كتبت إلى طهران عن إخلاصكم ، وأنا مطمئن بأن الأمور ستسوى عما قريب» ، ويبدو أنه كان يشير إلى ما ينوي التخطيط له لازاحة الشيخ خزعل من على خشبة المسرح العربي في الاحواز . وكأن الشيخ خزعل أوجس في نفسه خيفة من الجنرال زاهدي فمكث مقيماً في قصوره في الفيلية لا يتركها إلا نادراً للذهاب إلى البصرة ، إذ صمم على سكناها وعزم على شراء إحدى مقاطعاتها في (كرمة علي) لينتقل وأتباعه من المحيسن إليها . ولكن حكومة فيصل الأول أبت عليه ابتياع الأرض «لرعويته الفارسية» ، وقد بذل الجنرال زاهدي جهوداً مضنية لاقناع الشيخ خزعل بالسفر إلى طهران ، ولكن دون جدوى .

وبينما كان الشيخ خزعل في البصرة ـ في قصر الرباط ـ أعلن الجنرال زاهدي تلقيه الأوامر والانسحاب من المنطقة ، وقد غادر الأحواز إلى المحمرة ، وطلب من الحاج رئيس التجار أن يبلغ الشيخ خزعل هذا النبأ فعاد الشيخ إلى المحمرة بيخته الخزعلي الخاص

ليقابل المعتمد السياسي البريطاني في الأحواز ، للوقوف على صحة ما أدلى به زاهدي ، وقد أكد المعتمد البريطاني له صحة النبأ ، وعندئذ طلب الجنرال زاهدي إقامة حفلة ساهرة لوداعه ، فلبى الشيخ خزعل الطلب ، وأوعز إلى ابنه عبدالحميد بالحضور من البصرة ليهيء لتلك الحفلة كل مالذ وطاب والتي أعدها حفلة النصر . فأقامها في يخته الخاص الراسي في شط العرب مقابل قصر الفيلية ، لكي لا يشيع خبرها ، ولم يدع لها سوى أبنائه : عبدالحميد وعبدالله وعبدالمجيد وأحد أقاربه موسى الشيخ يوسف وسكرتيره الخاص عبدالصمد ، وذلك احتراما لقدسية ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان ـ التي أقيمت فيها الحفلة ـ أمام الأهالي . وبعد غروب الشمس قدم الشيخ خزعل يحرسه نفران من غلمانه : يوسف العلي الزبيدي ، وعبده ناقوط . وبعد أن عرضت بعض الرقصات واستمعوا إلى جانب من الغناء ـ وقد أرخى الليل سدوله ـ صعدت ثلة من الجيش إلى الباخرة ، فقطعت على الشيخ خزعل نشوته ، وتقدم إليه أحد الضباط الفرس المسلحين ـ المدعو مصطفى خان ـ ليلقي أمر القبض عليه ، وعلى ابنه عبدالحميد اللذين سيقا من الفيلية إلى المحمرة ، ومنها إلى الأحواز في نفس الليلة . وفي اليوم التالي أرسلا الى طهران على البغال ولم يتعرض الجند لغيرهما بسؤ وبذلك طوح بحكمه ، وزالت إمارة آل مرداو من الاحواز في ٢٠ نيسان سنة ١٩٢٥ . والغريب انه لم يحدث أي رد فعل من قبل العشائر في المنطقة ، ذلك لأن الجيش الفارسي كان يسيطر على زمام الأمور في الأمارة ، إضافة إلى العزلة التي كان يعيشها أبناء الامارة عن شيخهم .

وكان موقف إنكلترا من ذلك الحدث قد عبر عنه اللورد بلفور بمجلس اللوردات في ١٩ اذار سنة ١٩٢٥ : «إن الشيخ خزعل لم تعتبره إنكلترا يوما ما حاكما مستقلا ، بل كان في نظرها ـ على الدوام ـ خاضعا للسيادة الفارسية» .

اما رضا خان ، فبعد أن تم له ما أراد عمل على تحويل السلطة التنفيذية لنفسه ، فأصدر المجلس في تشرين الاول سنة ١٩٢٥ قرارا يقضي بخلع الشاه أحمد المقيم في باريس ـ والذي كان يحلم بالعودة إلى بلاده ـ وتسليم الامور إلى رئيس الوزراء ريثما تقوم جمعية وطنية جديدة بوضع دستور جديد للبلاد وأخرج ولى العهد إلى بغداد ، واجتمعت الجمعية الجديدة في كانون الأول سنة ١٩٢٥ وناقشت الدستور طوال ستة أسابيع ، فاصطفى رضا شاه بهلوي عاهلا وراثيا على إيران .. وفي نيسان سنة ١٩٢٦ ارتقى رضا شاه العرش ليبدأ في إيران عهد جديد ، لكن رضا خان الذي كرس نفسه لخدمة إيران وتقدمها قد عاقته لذته المتزايدة في جمع ثروة شخصية هائلة وعدم رغبته في التنازل عن شيء من السلطة ، فأصبحت في يده مبالغ طائلة واستولى على كثير من القرى وامتلك كثيرا من الاراضي الزراعية والاقطاعيات في وقت كان يفتخر بأنه قضى على الشيخ خزعل الذي يمثل في نظره آخر نغمة من نغمات الاقطاع .

اما من الناحية الادارية فقد استعان بجيشه لاخماد روح التمرد في البلاد ، وببرلمان فقد روح الاستقلال ومقوماته الأساسية ، فكان ينفذ كل اقتراح يقدمه إليه . وهكذا انعدمت حركة الكلام والصحافة ، واصبح أعداء الملك الشخصيون يعاقبون عقابا قاسيا ، وأنشأ إدارة خاصة لتوجيه الرأي العام ، ولم تتح أية فرصة لاظهار المصلحين والزعماء الوطنيين .

عوامل نكبة العرب في الاحواز:

يمكننا ــ ونحن ندرس عوامل نكبة العرب في الاحواز ــ أن نقسمها إلى قسمين رئيسين: عوامل داخلية، وأخرى خارجية.

أما العوامل الداخلية، فتتمثل في ضعف بنية أبناء الامارة لما أصابهم من فقر وجهل ومرض، وانخفاض مستوى المعيشة وانعدام في الوعي السياسي والاجتماعي، وعدم الشعور بالمسؤولية نتيجة النفوذ الأجنبي من جهة، والحيف الذي لحقهم من حكم الشيخ خزعل وغلمانه من جهة أخرى.

والواقع ان حكم الشيخ خزعل كان يشبه إلى حد بعيد حكم الشيوخ المحليين في الجزيرة العربية. وكان لكل منهم أطماعه وخططه في التعاون مع العثمانيين والانكليز، وكانوا ــ جميعاً ــ يعتمدون في بقائهم على مقدراتهم الدبلوماسية من جهة، وعلى المعونة المادية والمعنوية التي يتلقونها من الخارج من جهة أخرى.

أما أفراد الشعب العربي في تلك الامارات، فكانوا يكدحون ويقاتلون إرضاء لرغبات هؤلاء الأمراء الذين أمعنوا في إذلالهم، لذا فاننا لم نلاحظ أن العشائر العربية في المنطقة قد هبت لنجدة الشيخ عندما اختطفه الجنرال زاهدي إلى طهران، وكأن الأمر لا يعنيهم في شيء، ذلك لأن الشيخ خزعل قد اتبع سياسة البطش والقوة مع عرب الاقليم، مما جعلهم يبتعدون عنه، ويخافون سطوته، وينتظرون اليوم الذي يتخلصون فيه منه ومن أبرز مظاهر تلك العزلة بين الحاكم والمحكوم أن أظهر الشعب في الاحواز ــ والحرب العالمية قائمة ــ ميلا نحو الأتراك على حين كان الشيخ وحاشيته ميالين نحو الانكليز، مما اضطره إلى أن يتعاون مع الانكليز في ضربهم. ومن المؤكد أن جانبا كبيراً من أبناء المنطقة قد ارتسمت علائم الارتياح على وجوههم عند

احتلال رضا خان أرضهم ــ برغم عروبتهم الأصيلة ــ ذلك لأنهم كانوا يبغون الخلاص من الضيم والحرمان، ورفع قسم منهم ظلاماتها إلى الغازي الجديد لانقاذهم مما كانوا عليه. وقد عرف رضا خان كيف يستغل ذلك لمصلحته، فنشر بلاغا رسميا جاء فيه: «إن هدفي الوحيد في تحملي المشاق والمتاعب واجتياز هذه المسافات البعيدة هو الاستجابة لطلب مواطنينا ورعايانا الذين استنجدوا بي لتخليصهم من الظلم والارهاق والتعديات، فلبيت النداء بنفسي لأقف على هذه المظالم التي تواجههم في كل يوم وليلة، ولأضع حدا لأعمال المتجاوزين ..... وإني مستعد أن اخذ حق كل ضعيف من كل قوي، وسوف أنظر بجميع القضايا المقدمة بنفسي، ولا أبرح هذه الأرض حتى أعيد الحق إلى نصابه ...»

ومما يؤخذ على الشيخ خزعل، انه أبدى خضوعا لا مبرر له تجاه رضا خان في وقت كان قد جمع فيه ممن يحمل السلاح ويحارب ما يزيد على اربعين الف، واكتفى بأن يبث لواعجه للممثلين البريطانيين متذمرا من أساليب الحرب الباردة التي اتبعها رضا خان معه، فمما ذكره: «أن الموظفين الذين أرسلهم رضا خان إلى هذه الجهة ما جاءوا إلا لاغتصابي، ونهب اموالي واموال عشائري، افراد هذا الشعب العربي الذي مضت عليه القرون وهو سيد نفسه وليس للشاه عليه إلا السيطرة الاسمية فقط. وإن أعماله وموظفيه كلها تضر بمصالحي، في حين اكد لنا هؤلاء الموظفون انهم أرسلوا لنفع الدولة ولتأمين اموال الناس وأرواحهم، وفوق ذلك فان هؤلاء اخذوا يبشرون بين الأعراب بآراء تضر بمصلحة العرب، وقد سمموا افكار العشائر نحوي والبوهم ضدي، وهذا ما يخالف الواجب الذي أرسلوا لتأديته، وإن أعمالهم هذه خارجة عن نطاق اختصاصهم، وها هو ذا يلعب بنا: فيوما يرسل احد الحكام الى عبادان، وفي اليوم الثاني يشيع بأنه يود إسناد منصب الولاية لفلان على الجهة الفلانية، ومرة يريد تعيين رئيس بلدية،

واخرى يريد أن يرسل رئيسا الى المحمرة . وهكذا لا يمر يوم إلا ويتدخل في أعمالي .

إن الصحف التي وقفت ضدي وكالت لي التهم ، الشنيعة ووصمتني بأشياء لا حقيقة لها ، لم تنل عقابها ولم يقدم أحدها إلى المحاكم ، وحتى لم يتنازل لتوقيف المتطاولة منها علي ، وكذلك تلك الصحف التي شنعت علي فإنها لم تؤدب ، وقد كان ظهيرا لهذه الصحف» .

ومن المسؤوليات التي تقع على عاتق الشيخ خزعل : أنه الى جانب تبذيره أموال الامارة ـ التي أرهق الشعب بجبايتها ـ على نزواته الشخصية لم يسع مدة حكمه الى تأسيس جيش نظامي مدرب يكون على استعداد للدفاع عن كيان الاقليم الواقع بين قوى لا يطمأن إليها . وكان جل اعتماده في حالات الحرب على استنفار العشائر جريا على عادة العرب القديمة ، وقد كانت العصبية القبلية بين معظمهم على أشدها ، والحروب بين الشيخ خزعل وبينهم مستمرة ، وإن خضعوا فلم يكن خضوعهم ولاء له منهم ، وإنما تجنبا لتنكيله وإرهابه ، وحتى الاتفاق الذي تم بينه وبينهم لمجابهة الخطر الفارسي كانت تشوبه الريبة وعدم الاطمئنان . فكان الشيخ خزعل يشكو منهم دائما ، ومما نكره : «سألوني ـ وأنا العربي الأصيل ـ الا يمكن الاتفاق معهم ومشاركتهم ؟ فأجبتهم . إنني مستعد لبذل آخر نفس في سبيل منفعة الوطن . وقد اجتمعت جموع القبائل كلها ، وبعد تلاوة القرآن الكريم ، أقسموا الأيمان المغلظة ، وحلفوا بالطلاق ، وصمموا على وقوفهم في صفنا وعدم مخالفتنا مطلقا ، ولكن كان ما يبطنون غير ما يظهرون» . ومما زاد في الطين بلة ـ إضافة الى ذلك ـ أن الاب وبنيه لم يكونوا على اتفاق وصفاء فيما بينهم . وفي تقديرنا أن ذلك التفكك في الجبهة الداخلية هو من جملة الأسباب التي أقعدت الشيخ خزعل عن الحرب .

ولكن ـ برغم ذلك كله ـ لا يمكن ان ننسى أن الشيخ خزعل بشخصيته القوية وأساليبه الخاصة ومعاهداته التي عقدها ، قد حافظ على

عروبة الامارة ، ولولاه لكانت فارس قد ابتلعتها منذ زمن غير يسير . وعندما احتلت فارس بلاده لم يكن الشيخ خزعل إلا رجلا عجوزا قد قعدت به السن ، فليس بمقدوره أن يقوم بأكثر مما تسمح به صحته ، «وكان ذنبه أن إمارته قائمة في مكان استراتيجي في عالم البترول الذي لا يحفظ حقا ولا ذمة» ، وهكذا احتجز في أحد قصور طهران ، إذ لاقى خلال سجنه من لحكومة الفارسية احتراما وإكراما ، حتى إن الشاه زاره هناك أكثر من مرة . وقد خلفه في منصب الامرة بنه الشيخ عبدالله ، ومنحه رضاخان رتبة في الجيش لكسبه إل ه . وقد حدث في اثناء حكمه ثورة الغلمان ـ حراس الشيخ خزعل ـ كرد فعل لأسر شيخهم ، وذلك بعد مرور أقل من ستة أشهر على أسره ، إلا أن السلطات الايرانية قضت عليها بشيء من الشدة وحوكم عدد كبير منهم ، وقد غرم نتيجتها الشيخ خزعل مبلغ خمسة ملايين تومان (ما يعادل مليونا ونصف مليون دينار) . دفعه الشيخ خزعل نقداً وهو في معتقله ، وبعد ثلاث سنوات نقل الشيخ عبدالله الى طهران ولم يعين من يخلفه ، سوى أ الشيخ عبدالمجيد ـ ابنه الآخر ـ أصبح ئيسا لقبيلة المحيسن .

أما الشيخ خزعل فقد توفي في ٢٦ مارس سنة ١٩٣٦ . وقد علق بيربى على وفاته بقوله : «مات الشيخ خزعل في طهران محاطا بكل مظاهر الشرف محروما في الوقت ذاته من كل حقوقه كأمير مستقل ، أما أراضيه فقد ضمت إلى الامبراطورية الفارسية ، واضطرت الشركة الانكليزية الفارسية الى التعامل بعد ذلك مع حكومة طهران» .

أما بالنسبة للعوامل الخارجية ، فقد تضافرت عدة عوامل للاطاحة بالحكم العربي وإزالته ، وأشد هذه العوامل قوة : ظهور رضاخان على المسرح ، ذلك القائد ذو النزعة القومية المتطرفة ، الذي كان ينوي ضم كل جزء وطئته الجيوش الفارسية الى بلاده ، فراحت عربستان لقمة سائغة لأفكاره هذه .

والواقع أنه كان يحمل نوايا عدوانية ، إذ يمثل تيار قوميته المعادية للقومية العربية . لذا نلاحظ أنه عمل ما بوسعه لازالة كل أثر عربي في المنطقة وفصم كل الروابط التي تربط الاحواز بالوطن العربي ، فأمر بابدال اسم المحمرة الى خرمشهر ، والاحواز الى خوزستان ، كما أبدل أسماء بعض المدن العربية بأخرى فارسية . وحارب اللغة العربية ، ونقل بعض القبائل العربية ، الى شمال فارس ، فلم تختلف سياسته عن سياسة التتريك التي مارستها جمعية الاتحاد والترقي تجاه العرب في أخريات أيام الامبراطورية العثمانية .

وكان عرب المنطقة في كل هذا يستغيثون فلا مغيث لهم ، فولوا وجوههم نحو النجف يستصرخون علماء الدين للتدخل في أمر تلك الاجراءات ، والى ذلك تشير جريدة المفيد : «إن الحالة في المحمرة قد ساءت بسبب ضغط ولاة الأمور الايرانيين على السكان العرب للهجرة منها الى الأراضي العراقية ، وقد اضطر كثير منهم الى إرسال البرقيات الى علماء الهيئة الروحانية الاسلامية في العراق» .

وقد أوردت البرقية التالية من علماء الدين وسادات الاحواز الى علماء النجف في العراق : «ان علماء وسادات الاحواز يشكون احوالهم من ضغط أمراء الدولة الايرانية الذي كاد يقضي على العرب ، فاضطرهم الى الهجرة عن الأوطان مشتتين أيدي سبأ ، وقد هتكت منهم كل حرمة ، وأخذت الأموال منهم بلا حق ، فلا مانع يمنعهم ولا قانون يدفعهم ، والباقون يستغيثون طالبين المساعدة الاسلامية» .

ورضا خان في كل هذا لم يكتف بضم الاحواز وحدها . وإنما صار يطالب بالبحرين منذ سنة ١٩٢٧ ، ولكن بريطانيا التي توصلت معه الى تسوية في الاحواز لم تتوصل الى مثلها في البحرين الذي كان موضوع أخذ ورد . والواقع أن نعرته العدائية للعرب هذه تظهر بصورة جلية في وصيته لابنه ، إذ قال له :

لقد حررت الشاطىء الشرقي للخليج من العرب وعليك أن تحرر الشاطىء الغربي .

أما موقف الانكليز المتراخي من الاحتلال الفارسي للامارة فقد ساهم الى حد بعيد في نكبة العرب في الاحواز ، فان عهودهم وضماناتهم الواسعة المكتوبة لم تكن أكثر جدية من الوعد الذي أعطوه للملك حسين شريف مكة فعندما شعروا بأن مصالحهم السياسية والتجارية تقضي بتغيير الحصان الذي راهنوا عليه ، تركوا الشيخ خزعل لوحده ، وثبطوا همة قبيلة البختيارية في مساعدته ، وقطعوا عليه كل اتصالهم مع العشائر العربية في العراق الواقع تحت انتدابهم . ويعلق بولارد على ذلك فيقول : «ربما خلف تخلي الحكومة البريطانية عنه وهو في أشد ساعات محنته حسرة مؤلمة في قلبه» . وكان قد وثق بالانكليز حتى آخر لحظة من اعتقاله .

والواقع أن وضع الاحواز يشبه الى حد بعيد وضع الامارات العربية في الخليج العربي من ناحية اتصالها بدولة ثالثة هي إنكلترا ، لكن زوال الأسباب التي من أجلها عقدت بريطانيا معاهداتها مع الشيخ خزعل ، وتناقص المنشآت البريطانية العسكرية في فارس منذ سنة ١٩٣٠ ، وسحبها كليا بين كانون الثاني ونيسان ١٩٢١ ، وأملهم في تأكيد حسن نيتهم نحو رضا خان ، ليحتفظ بموقفه المحايد وعدم انحيازه الى جانب السوفييت ، جعل من الصعب على بريطانيا أن تتخذ إجراءات مضادة بالقسر ، فاختارت الطريق الأخرى ، وقلبت للشيخ خزعل ظهر المجن ، وتحولت نحو رضا خان بعد أن أصبح في نظرها من القوة بحيث يحتمل أن يلعب دوراً مهماً في تاريخ إيران . ولكن خاب ظن الانكليز ، وأصبحت علاقاتهم معه سيئة ، إذ منع سنة ١٩٣١ طائرات الخطوط الجوية الامبراطورية من الطيران في سماء بلاده ، وأزال مؤسسات شركة خطوط البرق من أراضيه ، وألغى في تشرين الثاني سنة ١٩٣٢ امتياز حقول النفط ، وأرغمهم على إبعاد

مقيمهم السياسي في الخليج من بوشهر . وقد احتجت بريطانيا في البدء ، ثم سرعان ما سكتت على مضض لتزيله من مسرح السياسة سنة ١٩٤١ عندما قامت بهجوم مباشر على قواته في المحمرة ، واضطرته الى التنازل عن العرش ، ونفته تحت حراستها الى جزيرة الموريس ، ثم نقلته الى جنوب أفريقيا حتى توفي سنة ١٩٤٤ .

واخيرا ، فان الموقف المائع الذي وقفه الحكام العرب المجاورون لامارة المحمرة ـ بسبب السيطرة البريطانية على مقدرات أمورهم ومعرفتها في كيفية اختيارهم ـ إزاء احتلالها ، يعتبر مساهمة غير مباشرة في نكبة العرب في الاحواز .

فمما لا ريب فيه : أن الاتجاه السائد في ذلك الوقت هو اعتبار سكان الامارة جزءا من الشعب العربي في الخليج ، وقد اكدت الاحداث ان معظم العشائر في الاحواز وجنوب العراق لم تقبل التعاون مع الغزاة .

والواقع أن رضا خان قد خدمته الظروف في المنطقة العربية ، فجزيرة العرب كان أمراؤها في شغل عن أحداث الاحواز ترهقهم الحروب ، وقد اشتبك الهاشميون والسعوديون في صراع عنيف من أجل السلطة . وكانت بريطانيا تسيطر على معظم العلاقات بين حكام تلك المناطق ، فلا تسمح باتصال بعضهم ببعض الا بموافقة الوكيل السياسي البريطاني . وسوري كانت تخوض ثورتها الوطنية ، أما العراق فكان يعيش في أعقاب ثورة العشرين ـ وقد شرد معظم الوطنيين ـ ، فاستلمت السلطة طبقة تسيرها الدبلوماسية الانكليزية ، فلا يمكنها ـ والحالة هذه ـ الخروج عما يرسمه لها الانكليز . لذا فان حكومة فيصل الأول هادنت الاحتلال الفارسي للاحواز ، وتركت المنطقة العربية تبتلعها فارس دون ما اكتراث ، ولم يدر في خلدها أن هذا الاحتلال كان خطوة أولى للدخول الى مياه شط العرب ، فقد أصرت السلطات الايرانية على جعل شط العرب باكمله مشتركا ، ولشدة الاصرار اضطر العراق الى رفع القضية الى مجلس عصبة الأمم . وذلك في

تشرين الثاني سنة ١٩٣٤ ، ولكن المجلس أوصى بحل الخلافات عن طريق المفاوضات التي باءت بالاخفاق . فانتهزت إيران ضعف الادارة السياسية في العراق عند انقلاب بكر صدقي ، وانشغالها بالمشاكل الداخلية ، فجددت مطالبتها بشط العرب ، مما اضطر العراق الى منحها حق الاشتراك مناصفة في ملاحة الشط مسافة ٤ أميال أمام عبادان . واصبح خط الحدود يمر في منتصف النهر . مما سهل تهديد العراق في كل لحظة ، وجعل مصالحه المتعلقة بالنفط وميناء البصرة في خطر ، وهذا ما جعل الحدود الايرانية العراقية كثيرة الحساسية في تلك المناطق .

والواقع انه منذ الغزو الفارسي وشعب الاحواز يعيش بعيدا عن أية مشاركة عربية فعلية وحتى دون أي اهتمام عربي معنوي ، سواء من قبل الجامعة العربية أو الدول والمنظمات العربية . فشعب الاحواز يقف وحيدا في معركته ، معزولا في إمكانياته ، غريبا في كفاحه ، لا عون عربي له .

لقد مر احتلال فارس للاحواز دون اية مقاومة عربية خارجية ، او حتى اي احتجاج . ومضت إيران في خطواتها لتفريس المنطقة ، فأحدث ذلك ردود فعل عند ابنائها للقيام بثورات غير منظمة ومتفرقة ومتباعدة ، كتلك التي قامت بها عشيرة كعب الدبيس سنة ١٩٤٠ ، وثورة الفجرية سنة ١٩٤٣ التي تزعمها الشيخ جاسب خزعل ، وحركة الشيخ عبدالله بن الشيخ خزعل سنة ١٩٤٤ التي وئدت في المهد ، وثورة بني طرف سنة ١٩٤٥ التي كان من نتائجها أن اجبروا على ترك مناطقهم الى شمال إيران ، كما قام في سنة ١٩٤٦ حزب السعادة للمطالبة بحقوق العرب في المنطقة ، وفي عام ١٩٥٦ شكلت حركة قومية سياسية ثورية في المنطقة أطلق عليها اسم «جبهة تحرير الاحواز» لتنظم عرب الاقليم سياسيا وثوريا ، وأخذت على عاتقها منذ ذلك الحين قيادة النضال العربي ضد الاحتلال الفارسي .

وإذا كان جيلنا اليوم يذكر مأساة فلسطين بكثير من المرارة ، فلأنه عاش النكبة ورأى قطعة غالية من بلاده تنسلخ عنها . بيد أنه من المؤسف أن الكثير من أبناء جيلنا المعاصرين يجهلون كيف سلبت من وطنهم العربي قطعة أخرى هي الاحواز .

المصادر والمراجع

التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة . د . صالح العلي
جولة صحفية في ايران . رياض حمزة شبر علي .
حياة محمد – ص – . محمد حسنين هيكل .
دليل الخليج – كازاتير – لارامير .
الخليج العربي . قدري القلعجي .
الخليج العربي – ارنولد ولسن .
الخليج العربي – جان جاك بيربي .
ذكرى السعدون .. علي الشرقي .
زاد المسافر ولهفة المقيم والحاضر . عبدالقادر باش اعيان .
عرب العراق . علي الشرقي .
عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد – ابراهيم الحيدري .
عشائر العراق . عباس العزاوي .
سبائك الذهب انساب العرب . للبغدادي .
سبائك العسجد . عثمان بن سند .
مباحث عراقية . ابراهيم الحيدري .
معجم قبائل العرب . رضا كحالة .
مشكلة شط العرب . خورشيد شوكت .
مسالك الابصار . الشهابي .
مناهل الضرب في انساب العرب . الاعرجي .
نهاية الأرب . للنويري .
نهاية الأرب للقلقشندي .
ولاة البصرة ومتسلموها . ابن الغملاس .

النصرة في اخبار البصرة . القاضي احمد الانصاري – يوسف عز الدين .
صبح الاعشى . للقلقشندي .
الاشتقاق . لابن دريد .
العبر – للذهبي .
جمهرة انساب العرب . ابن حزم الاندلسي .
الكامل . ابن الاثير .
احسن التقاسيم . المقدسي .
المسالك والممالك . بن حوقل .
البلدان . ابن الفقيه .
التنبيه والاشراف . المسعودي .
الباز الاشهب . ابراهيم الدروبي .
الاغاني . ابن الفرج الاصفهاني .
صهرة بني قريش . للزبير بن عكار .
ديوان اوس بن حجر .
ديوان حسان بن ثابت .
معجم البلدان . ياقوت الحموي .
الملل والنحل . للشهرستاني .
نسب عدنان وقحطان . للمبرد .
الاستعمار في الخليج العربي . الدكتور صلاح العقاد .
مجلة الاقلام العراقية .
الاحواز . علي نعمة الحلو .
ارض النهرين . ادون بفن . الاب انستاس مارتن الكرملي .
اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث . لونكرك . جعفر الخياط .
بلاد ما بين النهرين . ارنولد ولسن . فؤاد جميل .
البحرين ودعوى ايران . شاكر الضابط – محمود علي الداود .
تاريخ امارة كعب . علي نعمة الحلو .
تاريخ الامم والملوك . الطبري .
تاريخ العمارة وعشائرها . عبدالكريم الندواني .
تاريخ العراق بين الاحتلالين . عباس العزاوي .
تاريخ العالم . لايزبرك .

تاريخ الكويت السياسي . حسين خلف الشيخ خزعل .
تاريخ الاحواز . حسين خلف الشيخ خزعل .
تاريخ الكويت . ابو حاكمه .
تاريخ السعدون . عبدالله الناصر .
تاريخ المنتفق . سليمان فائق .
تاريخ نجد . محمود الألوسي .
تاريخ المشعشعين . جاسم شبر .
تاريخ خوزستان . احمد كسروى .
تاريخ وجغرافية ايران . حكيم الهي .
التحفة النبهانية . محمد خليفة النبهاني .
الاستعمار في الخليج العربي . الدكتور صلاح العقاد .
مجلة الاقلام العراقية .
الاحواز . علي نعمة الحلو .
أرض النهرين . ادون بفن . الاب انستاس مارتن الكرملي .
أرض النهرين . ادون بفن . الاب انستاس مارتن الكرملي .
اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث . لونكرك جعفر الخياط .
بلاد ما بين النهرين . ارنولد ولسن . فواد جميل .
البحرين ودعوى ايران . شاكر الضابط – محمود علي الداود .
ديوان اوس بن حجر .
ديوان حسان بن ثابت .
معجم البلدان . ياقوت الحموي .
الملل والنحل . للشهرستاني .
نسب عدنان وقحطان . للمبرد .

الفهرست

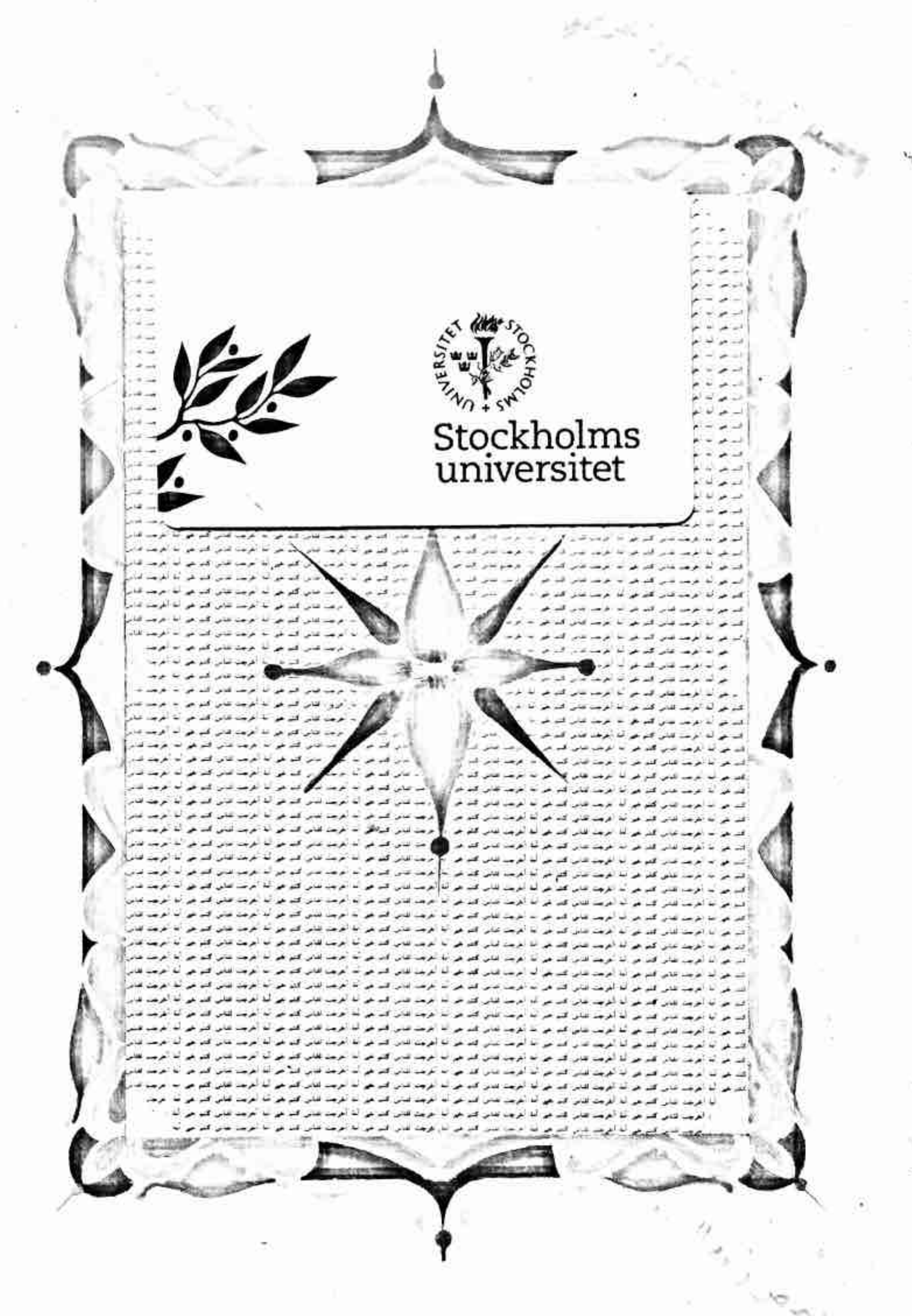
رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦١٤ لسنة ١٩٨٣



المؤلف في سطور

- ولد عام ١٩١٦ م . في تكريت من ابوين عربيين ومن اسرة عريقة في العروبة . اذ ينتهي نسب ابيه الى الامام علي بن ابي طالب ، وأمه من فخذ ﴿البو بكر﴾ من عشيرة العزة .
- قضى شطراً كبيراً من حياته في الريف مع والده السيد فلاح مزارعاً في تكريت ، واكمل الدراسة الابتدائية فيها ، ثم اكمل دار المعلمين الابتدائية ﴿بأربع سنوات﴾ ، ثم دخل الكلية العسكرية وتخرج فيها ضابطاً في الجيش برتبة ملازم . وذلك عام ١٩٣٨ م .
- اشترك في حرب العراق مع بريطانيا عام ١٩٤١ م ، واصيب بجروح اثناء الهجوم العراقي على مدينة الفلوجة صباح ١٩٤١/٥/٢٣ م .
- احيل على التقاعد في اواخر سنة ١٩٤١ م ، واقتيد الى الاعتقال حيث امضى فيه خمس سنوات بتمامها . اتم في خلالها تأليف كتابه «كنتم خير امة اخرجت للناس» بأجزائه السبعة عشر جزءاً .
- اطلق سراحه في اواخر سنة ١٩٤٥ م ، وتنقل في وظائف التربية والتعليم حتى قامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ م . فعين مديراً لمعارف بغداد بشقيها : المركز والاطراف .
- وبعد مرور ثلاثة شهور من عمر الثورة ، سيق الى المحاكم العرفية ، بعد انحراف الثورة عن خطها القومي . ونجا من حبل المشنقة بأعجوبة .
- ثم عين معاونا لمدير دار المعلمين في الاعظمية . ثم مانشا اختصاصيا للغة العربية .
- انهى كلية التربية في دورة مسائية عام ١٩٥٦ .
- وفي سنة ١٩٦٨ م ، اكمل كلية الحقوق في الجامعة المستنصرية . وبعد قيام ثورة ١٧ ـ ٣٠ تموز ١٩٦٨ م ، عين محافظاً لبغداد وذلك في ١٩٦٨/٨/٤ م .
- وفي سنة ١٩٧٣ م عين رئيساً لمجلس الخدمة العامة .
- ترأس كثيراً من الجمعيات الثقافية والخيرية والاجتماعية منها : جمعية احياء التراث العربي الاسلامي ، وجمعية الدفاع عن عروبة الخليج العربي ، وجمعية المحاربين ، والجمعية الخيرية ، والجمعية التعاونية لموظفي الدولة ، وجمعية الصداقة العراقية ـ التركية ، والمجلس الاعلى للجمعيات العلمية .
- يعد المؤلف من رواد الفكر القومي في القطر العراقي ، واحد المؤرخين للحضارة العربية والاسلامية .
- له من الاثار المطبوعة :
- موسوعته الشهيرة : كنتم خير امة اخرجت للناس ، ﴿أي : تأريخ العرب الحضاري والعلمي﴾ ، وقد طبع منها ثلاث وعشرون جزءاً وتتبعها اجزاء اخرى ، والشعوبية عدو العرب الاول ، كيف السبيل الى الله في اثني عشر جزء واياه من حياتي في جزئين ، والعراق في ست سنوات ، ما كتبت لله وقرأت ، مبادىء في القومية العربية ، مبادىء في اشتراكيتنا العربية ، الشخصية العربية ومكوناتها ، اقباس من نور العروبة ، منجزات صامدة ، قصص عربية ، حياة ابن تيمية ، عروبة الخليج ، من هدي القرآن ، ومن روض العروبة ، العلم يدعو الى الايمان ، الدين والماركسية ، العرب مادة الاسلام ، حقائق مجهولة عن اليهود ... نحن والفرس وعدد كبير من الكراسات لمواضيع مختلفة .
- وله آثار أخرى تحت الطبع .
- رئيس تحرير جريدة ﴿المحارب﴾ ومجلة ﴿احياء التراث العربي الاسلامي﴾

دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٨٣



دار الحــرية للطباعة ـ بغـداد